

نوستالجيا الحب والدمار
رواية

اسم الكتاب: نوستالجيا الحب والدمار

تأليف: السعيد الخيز

تصميم الغلاف: أحمد مراد

رقم الإيداع: 2015/7879

الترقيم الدولي: 978-977-6376-78-6



إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

كيان للنشر والتوزيع - 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
محمول: 01000405450 - 01005248794 - 01001872290 - أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

© جميع الحقوق محفوظة، وأيُّ اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورةٍ كانت ورقيةً أو إلكترونيةً أو بأية وسيلةٍ سمعيةٍ أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشر؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

نوستالجيا الحب والدمار
السعيد الخيز
رواية

obeikandi.com

إهداء

إلى حبيبي محمد أمين بوادي..
محارباً وشهيد سرطان والذي قال ذات يوم: "أطالب بالتغيير"
لن يفهمها الكثيرون لأنهم سيعتبرونها أداة لتزيين البروفایل. فيا
ليتهم يدركون أنها أقل ما يمكنني قوله في زمن أصبحت فيه
المطالبة بالحق جريمة.

إلى قسيم الروح أيوب مديان..
صديقاً وشاعراً، والذي قال لي ذات يوم: "لنحتم من الحياة
بالحياة.. لنرسم الطريق على شفاه الأطلس وننطلق بخطى ثابتة
جهة الضوء.. وأعلم أن كل ما تبقى مني هو نفسه ما تبقى منك..
شيء من الطفولة". سنبقى دائماً قلباً واحداً بجسدين.

إلى أنا آخر أيوب شهبون..
شاعراً وجندياً، والذي قال لي ذات يوم: "والطفل.. ذلك الطفل
الذي يطل علينا من وراء، يرمم ذاكرتين من زجاج، ويرش جديلتی
أيامنا بغيث الفرح". قيل ذات قول: "الذين يكتبون الرواية، يكتبون
الحياة".

obeikandi.com

استهلال

obeikandi.com

أنا كلي لك..
أنا صامتٌ كجسدٍ لفظٍ روحه
كمساءٍ قرضٍ نهاره.
وكوحي لم ينزل من سماءٍ
أزهري يا روحنا الكئيبة..أزهري
واسكني جسدنا الموقوت.
كساعةٍ حائطيةٍ
تنظر سقوط عقاربها.

الشاعر أيوب مديان

obeikandi.com

يجب أن أتغير، يجب أن أنسى كل شيء وأركز فقط على كلمة التغيير، يجب أن أكتبها آلاف المرات علني أتغير بهذه الطريقة، سأسلك نهج التحوّل ليس على الطريقة الكافكاوية، بل على طريقة بروس في مد الجمل الطويلة، يستحسن بي أن أقرر، والآن، وأتسبّع بقناعة التغيير وبالرغبة فيه، وأتنفس كل مساراته وألامس أسبابه الظاهرة والباطنة، دون القبض عليها تمامًا، لنَدعِ التوغل في التفاصيل إلى وقت آخر، يجب أن أمسك فقط بالكلمة الفكرة، وأتمعّن في حروفها وهندسة حركاتها، وألتقط لها صورًا من زوايا مختلفة، كأني موديل أزياء، فهي أنيقة حقًا ورشيقة، تستحق أكثر من فلاش وأكثر من زاوية نظر. وقبل أن أقرر وضعها على الغلاف يجب أن تكون لها إحياءات بعيدة التأثير.

إن هذه المفردة تستأثر بعواطفني، ترفعني نحو السماء كأني خارج من عاصفة نفسية، سأفعل أشياء كثيرة تستدعي التحوّل، وسأسير في اتجاهات مختلفة، جديدة، مغايرة.

أولاً سأخلص من بعض العادات بدءًا بآلة التحكم عن بُعد، بل مشاهدة التلفاز ككل، لساعات طويلة، على كلٍ فهي لا تبث سوى مشاهد الدمار العربي.

لن أشرب القهوة السوداء سريعة التحضير طوال اليوم
المشاعر الثابتة تنضج على مهل.

حتى أنني لن أتسرع في دفع ثمن الطلبات عن الأصدقاء في المقهى، فكأترين نفسها تعتبرها حركة شرقية غير راقية وغير ديموقراطية، وقالت لي يومًا إن كنت تحسبها رجولة فهي ليست كذلك هي عنصرية تجاه المرأة، فأنت لست وصيًا علينا، ولست أبانا ولست أفضل حالًا منّا حتى تدفع فاتورة المقهى على حسابك. كم نحن

متخلفون وبدويون مهما تمدّنا! فكاترين تصدمنا غالبًا بوجهة نظر لا نقول مغايرة أو مختلفة، بل لا مفكر فيها أصلاً في منهجنا الاستدلالي.

لذلك يجب أن أغير.

يجب أن أتخلص من بعض الشوائب التي تحول دون تقديمي، وسأخذ بعين الاعتبار كل ملاحظات الأصدقاء، خصوصًا كاترين، الرياضة، قراءة الكتب الممتعة كالروايات والقصص والمسرحيات، وسألتجنب ما أمكن الفكر الفلسفي والنقدي.

أحيانًا يجب أن تتخلص من كل شيء مهما بدا خفيف الوزن، فهو يكتسب قدرة على الالتصاق بك وعرقلتك، حتى أن وزنه يتضاعف مئات المرات، كذلك بعض الناس يجب أن تتخفف منهم في أسرع وقت ممكن، وإلا ظلوا متشبثين بذاكرتك يكزونها كزًا، وإن حدث وانسحبوا فتلك الفاجعة الكبرى، ستظل تنتظر عودتهم لتتخلص منهم بنفسك، بإرادتك، بمحض إرادتك، لن تجدهم لتفعل ذلك.

- تتكلم كثيرًا فقط تغير..دون ضجيج.

- أوي.

تكرر كاترين على مسمعي جملها الشهيرة والحكيمة دائمًا، وأسمعها دون كثير اهتمام، ربما حان الوقت لأسمعها جيدًا وأعلقها داخل عقل تصرفاتي.تقول:

لا تنظر إلى الخلف، وأحيانًا لا يجب أن تنظر حتى إلى ما حولك من أمور، سر إلى الأمام كعسكري يعرف هدفه بدقة، كمجاهد لا يهمله الماضي ولا الحاضر. رفيقك الذي تعتقده صديقًا إن لاحظت تشبهه بالمكان فانسل منه ودعه يربي كسله وحده. لا تترك له فرصة التشبث بك لأنه لن يكون سوى مسمار تثبيت يمنعك من الاستمرار في المشي. أشياء كثيرة يجب أن نتخلص منها كل يوم كأكياس الندم والتأجيل والتسويف.

وتقول أيضًا:

لا تضيع حياتك رفقة أشخاص يعيدونك دومًا للوراء. تقدم ولا تلتفت هناك، من لا يستطيع التقدم يعجبه إبطاء الآخرين، تخفف من العلاقات التي لا تنتج حركة وكن حرًا وافتح قلبك لأشخاص جدد يدخلون النور لقلبك ويسعدونك بأفكار جديدة بابتسامات جديدة. يجب أن تتبّه لبعض المسامير في مقعدك لا تشغل بإصلاحه كل مرة، غير مكانك فقط فهناك أماكن أكثر راحة.

سأغير ربما مشيتي، فأنا أنكاسل كالسلحفاة العرجاء، أسير لوجهات غير محددة، سأعمل بقوله تعالى: {وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} صدق الله العظيم.

تسريحة شعري..

يجب أن تثبت في اتجاه واحد. تقول كاترين إنه طفولي يتدلى على جبيني وعلى أذني، أعرف أنني أشبه الصينيين في نوع الشعر ولكني لا أملك طريقة أخرى لتسريحه، سأقصّه فقط ليصبح أقصر رغم أنه سيصير كأشواك القنفذ، سأخلص بذلك من استدارة وجهي الطفولي، لولا اللحية التي تثبت بسرعة لتقول للعالم إنني لست قاصرًا لاعتقدوا أنني في السابعة عشر من عمري، المهم شعري أيضًا سأغيره، لن أبدو آسيويًا جنوبيًا، سأثبتته بمثبتات الشعر إلى الوراء. سأغير عيني..

لن أضع النظارات ذات الإطارات السوداء الغليظة، رغم أن كاترين تقول إنه أجمل أكسسوار أضعه، فهي باستطاعتها تمنح الطول لوجهي المدور كالكرة، يستحيل عليّ خلعه لأسباب صحية وفي نفس الوقت لكوني لا أحب العدسات اللاصقة. سأغير لوني..

لا مستحيل، لن أبدل جلدي، أي غباء هذا! أنا لست جاكسون ولست مضطهدًا في بلدي (اضطهادي من نوع آخر) ولكن ما

دمت أنشد التحول فلا بأس بحمامات شمسية مع زيوت برونزاج
وكريمات وقائية ومغيرة للون البشرة.

أستطيع إذن أن أغير جلدي. هذا مستحيل هذا جنون!

لا.. لا.. ليس كذلك.. عادي جدًا، بل عبقرى جدًا.

سيقولون عني أشياء كثيرة وغير محتملة بمجرد بدئي بسطور
التغيير، ولكنني بارتدائي الريح وانتعالي المطر لن يهمني رأي
الأحوال في كعب حذائي، لأنني سأغير أيضًا نظرتي إليها، ولن أكرث
لها، وهذا جزء من مخطط التغيير، المظهر سينعكس تمامًا
على الجوهر، وهذا هو المقصود، أن يؤثر الخارج على الداخل،
شيئًا فشيئًا ستتلون أعماقي بألوان ملابسي، أنا لست متعبًا وكل
ما أقوله سأنفذه، فهذه إجراءات واقعية وليست أحلامًا هاربة
تمسك بتلابيب الزمن. لن أتخلى عن استيلي في اللباس وسأظل
أتابع الإنتاج الياباني في الموضة، رغم عودتهم نحو الاستلham من
الكيمونو، لكن تركيزهم على منطقة الكتفين والصدر وجعلهم
السراويل منطلقة في الطول يجعل قصار القامة أشالي يبرزون
شكل الجسم القصير كمثلث قوي. كما أن ألوان البهجة تغطي
على لباسهم وهذا يناسب فلسفتي في التغيير. لحد الآن لا أسميها
فلسفة، فهي ما زالت أفكارًا قيد الانشطار ولم تتفكك بعد.

هذا كل شيء يمكنني التفكير فيه الآن من أجل مشروع التغيير،
ولكن حتى حين التنفيذ سأستمتع بعبادتي القديمة.

يا للهول! ما زلت أحنّ لأحوالي.. نقطة وأعود إلى السطر.

كم هو صعب أن أغير! كم كتاب فلسفة أحتاج؟ ما دمت
سأستمتع بعبادتي القديمة فهذا يعني أنني أحنّ لحالات الضجر
وهذا يعني أنني أقاوم التغيير في داخلي.

أحتاج شعرًا..

أنا، أجد نصف معاني حياتي رفقة الشعراء، أعرف من تاريخي

أن الشاعر شخص استثنائي، يعطي الكلام حقه وحقيقته، حين يسير النهر غير مكترث بالمارة يقف هو ليحدث المياه الشاردة والشخصيات الهامشية ويضع روحه رهن إشارة الحقيقة. وجسده مسرح فقير ينتج اللغة بعلامات قليلة وهو يلقي فتواه كأنه يحضن جمرة أو يسبح في بركان.. أحب الشعراء. أحتاج شعراً..

فالنضج العاطفي يسير بسرعة البرق بعد كل قصيدة.. والشاعر وحده قادر على قطع المسافات الطويلة في ميدان العاطفة الإنسانية، الشاعر وحده الذي لا يخل من قول أحبك في وجه الوطن وفي وجه الأنثى وفي وجه الصديق وفي وجه الحرية ووجه المفاهيم. يكتبها على حائط المعاني ويدحرجها على حافات الخطر المعنوي، يعجنها خبزاً يومياً لأنه كائن فضي لا يلمع إلا بحكه بمعجون الحب، ولأنه جرس ذهبي لا يبرق إلا بشمس الحب، فتراه ينثر الحب في الطرقات كما تنثر البركة. لا تلوموه لأنه بدل وضع نقطة نهاية لقصيدة يقول أحبك، وبدل أن يقول وداعاً يقول أحبك وحتى بدل أن يقول مساء الخير يقول مساء الحب. لا تلوموه فهو يبنى عشه بالحنان وقش مطحون مع بودرة الحب، وأينما حل وارتحل يضع قلبه عرضة لهواء الحب.

كأترين ملئت هذه الأسطوانة، ملئت سماع ثرثراقي حول التغيير، فالتحول عندي لا يبرح المجال الشفوي، عقلي يفكر ولساني ينطق وواقعي لا يتغير، ولكن هذه المرة سأثبت لها العكس، سأثبت لها قدرتي على التغيير وتنفيذ قراراتي، أحتاج كتب فلسفة؛ هي وحدها قادرة على قلب مفاهيمي القديمة وتعويضها بأركان جديدة. ولماذا أتغير من أجل أن أثبت لها شيئاً؟ لا سأتغير من أجل نفسي فقط. أحتاج أيضاً أن أقرأ القرآن الكريم بصوت مرتفع كما كنت أفعل في المسيد، كي تدخل الآيات أعماقي وتغيرني. سأخلع نعلي وأدخل

المسجد وأمكث فيه طيلة ما بعد الظهر حتى العصر ثم المغرب،
لأمتص السكينة والإيمان.

- منذ أن عرفتكَ وأنت تتغير، ولكننا لا نرى فيكَ جديدًا غير
لباسك، وتسريحات شعرك، حتى أن اللون الشاحب الذي صبغته
به يجعلك محط شبهة، وعنايتك الدائمة ببشرتك وسمرتكَ.. تقول
كاترين.

يجب إذن أن أبحث عن الخل الحقيقي، يجل أن ألج برنامجًا
حاسوبيًا مضادًا للأخطاء التكوينية.. في الذات البشرية.

الخلل في الهوية؟ ربما.

الخلل في التاريخ؟ ربما.

لا أحب كلمة الهوية ولا كلمة التاريخ، فأنا متعدد وأعيش الحاضر،
هنا الحسم والقرار، أقفل على الموضوع في صندوق المفاهيم،
خصوصًا التي بنيتها منذ زمن وجلبت لها موادًا أولية من الشرق
القديم، سأتسبب بتعاسة الكثيرين وقلقهم وغضب آخرين وحتى
عنفهم تجاهي. ولكني قلت قبلاً أن الآخر لا يهم.

أين العطب إذن؟ أين التشوّه الذي أصابني وأصاب من حولي؟
أي مصداقية للكلمة وأي امتداد للمعاني على شجرة الصفصاف التي
تغطي احتمالات الحرية. كل تلك الاستعارات من أجل البرهنة على
الحب والتعاسة اللذين يشتركان في مسير ومصير واحد، يدخلان
قلب الإنسان ويتصارعان داخله في حلبة أشبه بالجدل.

أين المساء الذي ينحني تواضعًا أمام أحزاني ليقبل عن قصد
نقط العشق على شعيرات صدري؟ بل أين الملل الذي يختفي
خجلًا أمام سهراتي؟ أين القمر الذي ينوي كل ليلة مناجاتي؟ يرسل
ضوءه في حميمية لينعش أشلائي ويحيي الدم في نباتات الموسم
الخرافي.

أين الطفولة في حساباتي؟ كم ضاع من عمر ومن نصف عمر أمام

انتظاراتي، أمام أسئلتني؟! كان يجب أن أدرس كل منحنيات الثورة في
مراهقتي كي أعلم جيدًا أن بناء التاريخ على ضوء انفعالاتي جنون
لا بعده جنون، وأن انكسار الموج على صفحات الرمل وصخور
الحواشي لا بد منه رغم الشمس ورغم المد والجزر ورغم الضباب
ورغم النوارس ورغم الحمام.

رغم الأغنيات ورغم جورج والجرجاني ورغم مارسيل والمتنبى،
لو كنت أنا لما بنيت احتمالاتي على شفا قبلة خاطفة من
زمن ظلال الزيتون، ترتوي الانقباضات المشيمية من عذابات
الأم وأنطرح إلى عالم كله ألم من سوء صنيعي، كم كأس حنان
رضعت؟ وكم ضمة حب حقيقي شممت؟ وكم نظرة ود التقطت؟
كان العدد كبيرًا ليكون معادلة برحمة السنين على حدودي، ولكني
خطأ في جل حساباتي، وكان عليّ أن أعيد دروس الرياضيات من
جديد في وقت انمحت فيه رسائل الغروب واضمحت فيه
اشتياقات الشروق الساخن في مدينة بطقس الجحود. كأنها منفى
للمتهمين بالخيانة العظمى لوطن ليس لهم فيه إلا انتماء بالميلاد.
كان يجب أن أتخلص من الجنس حتى أستطيع التفكير بعقلانية،
وهذا مستحيل، فكلما فرغت شحنة منه بأي شكل من الأشكال،
عادت لتتكون في ظرف لا يسمح بالتعاطي الطويل مع الحلم
والفجيعة فلسفيًا، بل تصبح الحاجة إلى الجنس طبيعة، وهذا
مفروغ منه، إذن فسياسة التقشف الجسدي غير مجدية تمامًا
وشاحنة المتعة تأتي مع كل امتلاء لتحط من قدر التمنطق وتعيق
التغيير، مع العلم أن الرجل المخصي يعاني من كآبة دائمة وخمول
وكسل في التفكير، إذن فانتظاري فراغ الشحنات ومرور شاحنات
القمامة الجنسية من قبيل تضييع الضائعات. حيلتي هي في
انتصاف الامتلاء، بحيث لا يجر إلى شهوة تذلل الرجال، ولا تنقص
من شهوة هي تاج الرجال، الاعتدال هي الكلمة الأنسب للاحتفال

بوضع جسدي يسمح بالمرونة القصوى في اتخاذ قرارات لا رجعة فيها من فصيل التغيير.

تخلصت إذن من ملابسِي، شعري وعيوني.

تخلصت من آلة التحكم عن بُعد، نظاراتي وحتى جلدي.

وتخلصت من إغواء الشهوة مذلة الرجال وموانعة الاحترام.

يبدو أنني تخلصت مني وهذا هو المنشود، فلأعد من جديد.

فلأبدأ من جديد، فلأكتب من جديد.

أعرف أن كتاباتي لا تغيّر العالم، لكن رغم ذلك أكتب، أكتب رغبة في تغيير العالم وهذه معضلة الكتابة، تبدو نشاطاً موازياً للعالم، ربما هناك سر أكبر في فعل الكتابة ومسك القلم، فالله أمر أول ما أمر بالقراءة والقلم، فليس غريباً أن يكون لفعل الكتابة ذلك الغموض اللذيذ وكأنها سر كوني لا يعلمه إلا الله وقليل من الناس، تلك الطاقة التي تحملها الحروف في أشكالها وذبذباتها أثناء النطق لها مفعول السحر والحب.

أحببت دومًا أن أكتب في السر وأخفي كتاباتي، لأن ما يدفعني إلى الكتابة شيء سريّ أيضًا، فأحيانًا آخذ القلم فقط لأمسح دمعة أو أعتذر عن غلطة.

اليوم قررت أن أحضن ورقة اليقطين التي طالما وارت جسدي وأكتب الوحي من إملاء حبة البركة وزعفران الروح، وأتعرى من احتمالات الحب وأكتب ضد رغباتي.. أكتب عن جمال نبتة الدفلة وقبلتها الطويلة المألحة، وعن صديقي الذي أخافته جرأتها فأطلق صمته، وانضم إلى حزب الهدوء العاطفي. أما أنا فثورتي لم تهدأ بعد، وما زال لمذاق عنب الذيب طعم الرغبة.

سأكون عمليًا، سأتناول القهوة السوداء كل صباح، فقط لدقائق معدودة. لن أضيع الوقت في المقهى وأنا جالس، سأبقي ظهري منتصبًا كأني رجل عملي، لن أطلق رجلي تحت الطاولة وأتمطط،

أصلاً لن يكون لديّ وقت للتمطط، سأجيب على الإيميلات الرسمية فقط وأترك رسائل الفيسبوك لوقت الفراغ الرابع، ففي الوقت الثالث يمكن أن أفعل أشياء أخرى مهمة. أكيد سأتغير، سأشذّب لحيتي كأى حديقة ملكية، فهي تبدو كحقل ذرة هبت عليه عاصفة مدارية. سأستعيد قمصاني من داخل الدولاب وأكويها ومعطفي الطويل أيضاً. لن أرتدي البيريه كي لا أبدو كاتباً ستيريوتيبك ولكن سأقص شعري الطويل كي أقنع أذني بتقبل النظارات الطبية.

سأكتب القصص القصيرة جداً فقط، فهي تمتعني بمساحة كبيرة من الحرية، ففي أربعة أسطر يمكنك أن تختزل الوجود. أبالغ لكني متحمس لقصص قصيرة جداً كتنورات البرازيليات من لاعبات التنس، فهي تكشف تختزل تمنح احتمالات التأويل، والأهم من ذلك أنه لا وقت لديّ للكتابة ولو لم تكن مرضاً مزمنًا لا يُشفى إلا بالقلم لتركتها، ولكن هذه القصص هي الحل في ظل زحمة حياة وسرعة مفرطة في العيش وتسابق لا هوادة فيه.

أكتب.

حبك سكر:

رش عطر الخزامى داخل مكتبه، يقال إن نبتة الخزامى تزيل عفن القلوب، وضع فنجان القهوة المقطرة والمعطرة بالقرنفل، يحبها حلوة جداً بثلاث قطع سكر، يحب أن يرى السكر مترسباً في قعر الفنجان الأحمر. وقبل أن يضعها رن الهاتف:
- صباح الورد وشقائق النعمان أحبك يا شقيّ.
حرك قهوته وشربها دون سكر.

موعد حب:

كتب لها رسالة هاتفية: أحبك، اشتقت إليك، يجب أن نلتقي سأكون هناك في الساعة الثامنة تمامًا لا تتأخري.

ردت: وأنا أحبك أيضًا، سأكون هناك قبل الموعد.
في الساعة الثامنة تمامًا فتح الماسنجر، ووجدتها في انتظاره، تبادلًا
جمالًا، تناولوا بعض بطاقات الحب والتهاني حتى منتصف الليل،
ودّعها ونام.

حافية القدمين:
كانت على موعد.
وضعت قاعدة من البودرة البيضاء على وجهها.
وضعت أحمر شفاه بلون التوت الشهي.
وضعت كحلًا أسود وماسكارا زرقاء.
وضعت ظلاً رماديًا تحت جفنيها.
بيّضت أسنانها بالأشعة الزرقاء المنزلية.
ارتدت فستانها الأرجواني من زارا.
رشت عطر ديور خلف أذنيها.
وجلست أمام شاشة حاسوبها.

نظف حياته:
دخل وحيد إلى الحمام لتنظيف أسنانه، وجد المغسل متسخًا،
به الكثير من الأشخاص الغيورين منه، لم يهتم، أخذ فرشاة
الأسنان ونظر في المرأة، هي أيضًا متسخة، بها بقع علاقات متعبة،
ومشكلات عائلية بنية، وضع الفرشاة جانبًا، ورش مطهرًا على
المغسل والمرأة فبدأ يكشط الأوجاع عنهما بهمة كبيرة، استطاع أن
يعيد البريق إلى حمامه، فخرج وهو يحس بانسراح كبير.

أنا أيضًا يجب أن أنظف محيطي، تاريخي، وترتيب مخزون
ذكرياتي، سأفعل ذلك حتمًا، رغم سهوي وسرحاني الدائمين، ذلك

يساعدني على التذكر والترتيب والكشط والتقشير والحذف. فرحت
أطلق العنان لحنيني كالخيل يجري في كل الصحارى وكالموج يلطم
كل الصخور.

obeikandi.com

الفصل الأول

نوستالجيا حب ووطن يتعرى

لَسْتُ أَهْتَدِي بِالْحَبِّ حَذَوَ ذَاكَرَتِي.
فَالْحُبُّ.. هُرُوبَ مَا، مِنْ دُرُوبِ الذُّكْرِى.

الشاعر أيوب شهبون

obeikandi.com

أدري وأنا أخرج أن هذا الخراب سيعلق بذاكرتي إلى الأبد وأنه سيحرمني النوم ليالٍ طوال، الدموع جفت في مقلتي ولن تخرج، جمدت صمدت سيّان، ستبقى صامدة، جامدة، ذلك أني أعشق البيت العتيق، ترابه، حجارته وسقفه الخشبي، هذا المشهد جزء من ذاتي، تشكّله الجدران ذات الألوان الترابية، الأبيض والبني والأحمر الآجوري، الأبواب الخشبية المهترئة، والشبابيك الحديدية ذات الزخارف الملتوية النابغة من أعماق الماضي، هي لا تدري أن التواءها يسبب لي التهابًا نفسيًا حادًا هذه اللحظات.

أحيانًا أشم رائحة الطين المرشوش بالماء، وأسمع خرير الهرة المرقطة، وأسمع صوت جدي الذي ينادي، أسمع كل هذه الذكريات، تداعبني تقبلني ولكنها لا تمر دون أن تجرحني. ألا يكفي أني أحتفظ بتفاصيل هذا البيت العتيق في ذهني، وفاء له؟ أي نوع من الوفاء هذا؟ لم التعلق بالتراب والحديد والخشب القديم؟

آه من رائحة أبواب العرعار المنقوشة ببساطة الماضي!

آه من خراب اللحظات الأخيرة!

لم يكن زلزالاً، كان أقبح من ذلك بكثير، لم يعد مهمًا ما حدث بالضبط، المهم طريقة احتفاظ الذاكرة به.

لم يكن شيئًا مهينًا، كان أسوأ من ذلك بكثير، لم يكن هناك وقت للإحساس بالإهانة، هناك فقط عذاب، عذاب ودموع متحجرة داخل المُقل. كان الناس يحتجون والجذات تولولن، والرجال يركضون إنقاذًا لما يمكن إنقاذه، إنقاذًا لكل شيء تجري فيه روح.

وكان لي الصمت، كاميرا خرساء تسجل في صمت هول اللحظات الأخيرة، كاميرا تسجل قدرًا مخجلًا، ثابتة، تحاول استبطاء الكون ولو للحظات قصيرة.

لكنها ليست لحظات قصيرة إنها اللحظات الأخيرة. السقف الذي راقبته منذ ولادتي، بخشبه الثقيل، البني الحنون، الجدران بألوانها الترابية الطبيعية والنوافذ الحديدية، حين تفقد هذه الأشياء تشكيلتها الطبيعية تصبح مأساة حقيقية.. لم تعد النافذة وسط الجدار والسقف لا يغطي الغرفة وأعمدته لم تعد متوازية بل مبعثرة بعشوائية الجنون. الجدران لها عنوان التحدي، صمود حجارة الأساس عنون اللحظات باسم التحدي، خجلت ألا تتحمل ثقل اللحظات؛ هي التي حملت البيت قرونًا وقرونًا. تعانقت مكونات البيت العتيق مكونة كومة من الذكريات والالام، ما آلمني أكثر الزرقة النيلية لغرفة الضيوف، تلك اللطخات من الأزرق التي طبعت كومة الخراب لتنتهي لوحة الدمار.

- هل كنت حاضرًا؟

- يا ليتني لم أكن حاضرًا؛ لما أثقلت الذاكرة بالخراب والدمار. يا ليتني كنت غائبًا، ويا ليتني لم أكن، يا ليتني ولدت في زمن آخر لا يحمل طعم الفجيعة.

حزن مراق على الأرصفة، يسحبه المطر في نواح إلى مجاري الأرق، قطع من اليأس تتجمع على حديد المداخل، وأنا أحترق، أخاديد جرح يتمزق، يصنع من الاحتمالات تسعين ألف وجه للقلق، يا دودة الخشب كفي، كفي عن النخر في العمق فما عاد القلب من جنس النطف. هو محجرة البرد محضن الصقيع. تنف من ريح الحرب تدق طبول الخوف.

جميع الأشياء في هذا الكون الفسيح، حين تتزحج عن حيزها الفضائي تسبب الفوضى والقلق.

- ماذا حدث بالضبط؟

- خراب اللحظات الأخيرة.

الفئران تهرب نحو الإنسان، حين كانت الحرب عادية ذات زمن، كان الفأر يجتهد في عدم التقاط هدايا الإنسان المسمومة، يتحایل ما استطاع لإقلاق راحته أو سرقة حبوه أو فقط نخر أخشاب بيته ككل القوارض، أما في لحظات الخراب فالفئران تركض في اتجاهات متعددة لا تدري أي مصاب حل بها، تستفسر عدوها الأذلي رغبة في النجاة، في الفهم، لا فرق الآن بين فأر ورجل. الفأر يقف بمحاذاة جمل الاستفهام، يستنكر ويشجب ويهرب.

أما الدجاجات فتجري نحو السلال، تلتقطها الأم بيأس ملحوظ، ملحوظ على وجنتيها الحماويين من أثر البكاء، لا وقت للبكاء، تحاول التقاط أكبر عدد ممكن من الدجاجات هذه التي تفض ريشها خوفًا وذعرًا، أما الديك فقد مات بكبريائه المعهود، مات تحت حطام خمه، عزيزًا كريمًا كأي بطل فضّل التحدي، فضّل الوقوف، إلى متى سيقف الأبطال؟

أما البقرات فرحلت في ساعات مبكرة، كانت أثنى من أن تنتظر اللحظات الأخيرة، كان الرهان فقط ضد الناس البسطاء والحيوانات الصغيرة. طاولة قمار بين الجبال، الرجل يرمي النرد والزمن يرمي القذارة في وجوه المساكين.

- هل هذا سبب حزنك وغموضك؟ ما أوسمك بتاج الغموض والقلق!

- الحزن يلزمني بسبب الأشياء المتحجرة في الذاكرة، إحساس قديم بأن الأشياء تهدم أمامك أو بمعنى آخر تتمزق داخلك، ولا

تستطيع لّمها ومنع تشتها.

فضاعة الخيانة هي في كونها شقيقة الألم وانعدام الثقة، تشتت الذهن والمشاعر كسكين حاد ينعزز في القلب لتقلب حياتك رأساً على نار.

هل كانت خيانة زمن أم خيانة وطن؟ هذا هو السؤال.

- هل مات الناس أثناء الدمار؟

- الموت شرف لم نملكه آنذاك، بل لنا حياة من الذل والهوان ورحلة نحو المجهول. نحو الا استقرار حيث تنفر منا الأراضي لأسباب غجرية، فبيننا وبين الغجر ذلك الصدع المسمى الأرض الأم. آه لو كنت غجرياً! ما أثقلت جثتي بالمرافئ والمناديل البيضاء. ولكن مركبي في بلاد أخرى وراء البحر، ولكني لست غجرياً.

التشبث بالأرض، الأرض الأم، إلى درجة أكل التراب، هذا هو المشهد الذي هد وجودي وجعلني أكفر بالجمال والحياة. جدي الذي كبر على هذه الأرض ما زال يذكر أول شجرة خروب زرعها في صباه، رعاها حتى نمت، فأنت عليها آلة ضخمة كلعنة من السماء. حق له أن يأكل التراب أسفاً على التاريخ والأرض، لم يكن يملك غير الأرض يحرقها ويزرعها، يسقيها ويحصدها، يجادلها وتجادله، هي مجاله وامتداده، قمة إحساسه بالوجود أن يستيقظ فجراً ويذهب إلى إكران (وهي مدرجات على سفوح الجبال) لقطف حبة الطماطم والبصل وحفر درنة البطاطس وقطع غصن نعناع لصنع الشاي، يضعها في المطبخ وينصرف إلى حين إعداد الفطور، الفطور الثاني، فقد استيقظ فجراً وتناول الحريرة مع حبات التمر، سبع حبات كالعادة، وإن قلت فخمس أو ثلاث، هذه الحياة القروية القانعة البسيطة هي كل ما يشكّل وعيه.

- جنون إذن أن تأتي آلة ضخمة كالدبابة، لتهدم المنزل فوق الخضار والمائدة، جنون إذن أن تتحجر تربة إكران.

- نعم إنه الجنون.

- لقد أكل التراب، الجد أكل التراب.

من أجل هذا التراب قاوم الاستعمار الفرنسي، ودافع عن بلده باستماتة، حوصِر وعُذِّب وسجن، أيأتي اليوم من يحرمه متعة الموت فوق أرضه بعد أزيد من أربعين سنة من الاستقلال؟! أن تُعذَّب وتُهان من أجل وطن سيخونك حين تشيخ لم يكن في الحسبان. جد يأكل تراب حقله، إنه خراب اللحظات الأخيرة.

هو كذلك الوطن، إما أن يغنيك عن التدلل إلى أوطان أخرى وإما يدفعك دفعًا إلى الهجرة طالبًا اللجوء الأدبي إلى بلد آخر. هي كذلك الكتابة، تغنيك عن استجداء الوطن، وتدفعك دفعًا إلى الهجرة سرًّا طالبًا اللجوء السياسي إلى قصص حزينة، تركب قوارب السطور في مغامرة بحياتك، تتلاطمك أمواج القهر والعنف والفقر، تبحث في أعماق البحر عن بطن حوت يونس يحتضنك برأفة فإذا بك تسقط بين فكي قرش تمزقك أنيابه.

تعفك الأدبي وسياستك الكتابية حصن حصين ضد شرور الوطن. لا يمكن أن تفهم الوطن، إنه كائن معقد حقًا وخيوطة أكثر تشابكًا من كبة صوف في السدرة.

أحببت دومًا أن أكتب في السر وأخفي كتاباتي، لأن ما يدفعني إلى الكتابة شيء سري أيضًا فأحيانًا أخذ القلم فقط لأمسح دمة أو أعتذر عن غلطة.

أن تنظر إلى ذلك الخراب لن يجعلك تبكي، بل ستظل مشدودًا

إلى مشهد الدمار بكل ما أوتيت من انتباه، ولن تجد فرصة للبكاء أو النحيب، سيبقى المجال مفتوحًا فقط لملامسة البقايا بعيون الألم.

لن أكتب؛ تلك المشاهد لا تُكتب، بل تعطل فعل الكتابة، ذكرها فقط نكتب بالجمر والنار، أما هي فتستعصي عن التعبير، منفلة دومًا من قبضة الحروف.

أين كانت الحروف والكلمات حين أتت الجرافات على كل شيء، حين بدأت الدجاجات تهرب عن بيضها {تَصْعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا} التبن يتطاير في الهواء، والحمير تنهق بجنون، صوت الضجيج يزج ترتيب الأشياء في فضاء رتيب وساكن.

وسائق الجرافة لم يبد قاسي القلب، بل كان يبكي، هل كان حقًا يبكي أم أنه منطقي البسيط الذي يرفض أن يصل إنسان إلى هذه الدرجة من القسوة والتحجر؟ أحاول أن أنظر في عينيه علَّ منطقي يستقيم، أيقوم بكل ما يقوم به وهو في كامل وجوده الإنساني؟ أيسطيع -وفق منطقي البسيط دومًا- أن يدمر قرية بكاملها وهو مرتاح الضمير؟

كان السائق يبكي، فمنطق الألم والحكمة يقتضي ألا نلوم السائق ولا حتى الجرافة، بل أن نلوم فكرة الدمار.

عندما تعود من رحلة القهر، تجد أسلوب الألم في انتظارك،
فتركب جملاً مدرجة بالدماء.

دموع السائق كانت كدموع المحقق بعد ذلك، فبعد اعتقالي إبان
المظاهرات والاحتجاجات كان موقف المفتش غريباً أيضاً، أحب
فيه قيامه بواجباته لأن الوطن يحتاج أناساً يقومون بواجباتهم،
ولكن أكبر فيه دمتين أخفاهما عن الجميع، أكبر فيه إنسانيته،
وفق منطقي البسيط دائماً. لم أكن مدرباً على اللعب بالكلمات،
بل دربتي الحياة على العدل والخير، قلت له حينها:

- عذب كما تشاء، إن كان للجسد ثمن فلا بد أن يكون أرخص
مما تظن، لكن انظر إلى الكون إنه أكبر من جسدي، أنا أتألم،
لكن أخاف عليك أكثر من نفسي، أخاف أن تتألم روحك، فقد
ظلمتني.

علينا ألا نلوم الأشخاص إذن، بل الأدوار التي خلقتها يد الزمن،
المسألة مسألة حظوظ، والضحية والجلاد أدوار قابلة للتبادل في
سينما الحياة، خصوصاً إذا كان المخرج رجلاً كالوطن يتقن فن
العبث. لكن المحقق لم يبك وكذلك السائق.

لا يمكن أن تفهم الإنسان؛ إنه كائن معقد جداً، أكثر تشابكاً من
غابة الأمازون، كل ما يظهره وما يخفيه وما يظهره ليخفيه، ليس إلا
القليل مما هو عليه حقيقةً. الإنسان ذلك المجهول.

حيوات الناس غريبة، لا تستطيع فهم الإنسان، إنه ذو طبع
جميل، الإنسان في أعماقه لا يمكن إلا أن يكون إنسانياً، أنا مؤمن
بهذه الفكرة لدرجة أن الشير لا يمكن أن تنطبق على بني آدم،
إن الشر أسطورة تنعص علينا حياتنا، وتلك الأدوار التي يخلقها

الزمان والمكان تجعل الإنسان ينسى طبعه الأصيل لتصبح تصرفاته غير مفهومة وغير مُستوعبة، الإنسان الشرير ليس إنساناً، علينا أن نخلص الإنسانية من الشوائب والعيوب لتعود إلى طبيعتها الخيرة. عبد الرحمن منيف هو الذي علمني كيف يمكن أن يكون الجلاد هو الضحية الأولى.

عندما نحتفظ بهمومنا الصغيرة يصبح الوطن فكرة ساذجة أمام تعاستنا، فكرة لا تتغير إلا حين يكون الوطن أكبر همنا، هذا كلام رجل مخلص، صحيح، أما السياسي فهمه أن يجعل الوطن فكرة ساذجة لسجن الرجال المخلصين في همومهم التافهة. أفكار متضاربة، الوطن بقدر ما نعطيه معنى يفقدنا الصواب.

أحقًا أحببتها؟ كيف أكون متيقنًا من حبي لها؟ صحيح، أحببت
طريقتها في وضع ساعتها اليدوية، وكيف تديرها في معصمها، حقًا
أحببتها! كنت مأخوذًا بها إلى درجة التقاط كلماتها كي لا تقع أرضًا
وذذبات صوتها كي لا ترحل بعيدًا، وأطلب من الصدى ردها
لو حدث ورحلت، وجلب نظراتها كي لا تسرح، أحاول امتصاص
كل إشاراتنا كي أفهم جيدًا أنني متيم بها، كنت سعيدًا بانجذابي
لها، هي الخريف وأنا الورقة اليابسة، يكفيني من حبها نسمات
تدغدغني طوال الشتاء. هي القطة وأنا كبة الخيوط البنفسجية.
العبي بي قطتي الجميلة، لست أكرث لحجمي فأنت امتدادي، أنت
مدّي وجزري. أنت البحر وأنا المركب تتقاذفني أمواج هيامي بك،
أنت أنت وأنا لست شيئًا دون أنت.

إن كان هذا حبًا فقد أحببتها، لقد نسيت حتى أسئلتني المحيرة
حول الحياة والألم والعقل والروح والآخرة.

في ابتسامتها الأولى اهتزت الطاولة، وفي الثانية تحرك الكرسي
ورفعني عن الأرض، وفي الثالثة فرغت المقهى وبقينا: أنا وهي
والطاولة، معلقين في مكان غير خاضع للجاذبية، هو الحب إذن
حين يخفت الضجيج حولكما شيئًا فشيئًا إلى أن تنفصلا عن العالم
أو يصبح العالم لكما وحدكما.. وطاولة.

تكفّان عن سماع ثرثرات الآخرين، تنصتان فقط لإشارات
جسدكما، هذا الواقع الصوفي هو ما جعلني أكتشف حبي لها،
أو جعل الحب ينكشف أمامي، لا يهم، فقد كنا نسبح في كل
الاتجاهات، اختزلنا الوجود في ثلاثة أشياء: هي، أنا.. وطاولة.
أكان لا بد للطاولة من الحضور؟ ربما هي نزعتي الكتابية ترك

دائمًا احتياطيًا للكتابة، أو ربما كانت الطاولة ضرورية للإبقاء بيننا على تلك المسافة من التعبير الإشاري، أو لنضع عليها بكل بساطة فناجين القهوة حين صحتنا.

لا أفهم لغز الثلاثة، فأنا أحب الأرقام الزوجية، قلم ورقة وأنا وطاولة، هي إذن اختزال لأشياء متعددة. أحب حياة الاختزال فالتفاصيل لا تستهويني.

حب إذن أن أقبل أشياء لم أقنع بها يومًا.

حب إذن أن أتخلّى عن القلم والورقة وأسبح في دنيا التصوف.

إن كان هذا هو الحب فقد أحببتها.

«ليت قلبي لمحة من ذلك الضوء السجين

أهو حب كل هذا؟ أخبريني».

أحببتها وأنا أجلس إلى طاولة في مقهى، كثيرًا ما اعتبرت الجلوس في المقاهي كسلًا وجريمة ضد الحركة، الحب إذن هو الجريمة الأولى ضد الحرية.

والقانون.. هو الجريمة الثانية.

- ماذا تشربان؟ قال النادل.

- عصير الحب الخالص.

- عفوًا؟!

- كوكيتيل مشاعر صافية، مع القليل من الجرأة للتقيل.

كنا ندرى أن طلباتنا لم تكن مدرجة في اللائحة، فمتى كان للحب ثمن. بل متى كان لنا الحق أن نطلبه، إنه عالم العشاق المفلس.

- ماذا تشربان؟ قال النادل.

- عصير ليمون حامض.

- والآتسة؟

- كوكيتيل فواكه مع القليل من السكر للتخفيف.

في الأدب فقط لا يكون للحب ثمن، ولا للجلوس في المقهى ثمن،

ولا للخوف وجود، والعشق وما فيه ليس إلا كأس لبن، بالقلم فقط يصبح الإخلاص والوفاء والأكل والشرب مجانيًا، يمكنك هكذا بجرة قلم أن تطلب من النادل صحن الديمقراطية لتطعم منه وطنك، وبالمقابل يمكن للوطن بمسطرة قانونية أن يحوّل الديمقراطية إلى كنز غالي الثمن، بعيد المنال، لا يسدّد إلا بالرقاب والدم، ويطعمك كطبق أخير مرارة غدر الأوطان. يدمر بيتك تحت دجاجاتك بكل برود.

كنت أشرب العصير ببطء شديد، أو ربما شربته دفعة واحدة، لم يكن حامضًا، الحب عطّل حاسة الذوق عندي، ترك فقط حاسة البصر، فكلي أعين مفتوحة، أشرب عبرها ما ينعش حياتي من حب وجمال.

وتنهض كنساء السينما لتطل على المرأة. أرجو ألا تنظري في المرأة فأنا أغار من نظراتك إليك، ومن تقابلك مع زجاج همه الأزلي التحديق في ملامح العذاري. استعملي المشط ببطء ولا تضغطي فأسنانه السكارى التي لا بد أنها صنعت على يد رجل من قبيلة المحدقين يهوى لمس شعور النساء، تجعلني أموت من غضب. لا تمرى قرب البحر فأنا أغار من ريحه تلمسك ولو بنسمات. والأخطر من كل هذا أن تقابلي شاعرًا يحضنك من فرط التشظي ولو بالكلمات، فأنا لا آمن عليك من سطور القصائد ولا من هوامش الروايات. أنت لي وحدي ولك رجل واحد يحبك حتى ما بعد النهايات.

نعم هو الحب إذن يفرغ فناجين القهوة وأكواب العصائر في الحلق دون حاسة ذوق، كما ليخفي عنك سرًا، أو يقنعك بأن ما تعيشه ليس إلا حلمًا.. محكومًا بالجهل وعطالة الحواس تدخل المغامرة، لا بد أن تخسر.

تلك نوستالجيا الدمار وتلك إستراتيجية الحب.

كلاهما يحملك بعيدًا عن نفسك، سواء تلك التي تسير بك عبر
مناهات الحب ونفي الحب، أو تلك التي ترهبك بالدمار وإثبات
الخراب، لا مفر من الكتابة، فلا الذاكرة ميتة ولا القلب صامت،
أُكتب إذن أو كف عن إزعاج القلم، لو طرَقنا باب الذاكرة فلن
نجد إلا خرابًا في خراب، على خراب، والقلب الموجه بالحنين
والذكرى لا يعرض عن الحب، فلو فَتَّشنا شرايينه فلن نجد إلا حَبًّا
في حب.. على طاولة.

يقف الحب على حافة الذكرى، يجرّب الحياة على المخاطر
والهوامش، في القلوب المنكوبة كأنك تنقل موناليزا دافنشي على
كارنيكا بيكاسو، لتسأل كبيكاسو: أنت من فعل هذا؟ وسيجيب
صوت من داخلك: «لا، الوطن فعل هذا»، تتدمر على التسرع
وتعيد: «ربما الوطن فعل هذا»، أو أنك ستقول مؤكدًا: «أُكيد
الوطن فعل هذا».

لكن لماذا يختار الخراب اللحظات الأكثر جمالاً ليطفو، ما رأيت
زرقة البحر إلا وتذكرت الفضاء النيلي لغرفة الضيوف في القرية
المهجورة، الغرفة كانت دائماً على استعداد لاستقبال ضيف، طقم
الشاي الفضي والكؤوس ذات الحواشي المذهبة معدة باستمرار كأن
ضيفاً على الباب يدق، تقاليد ترسخت على حائط الكرم، نضع
كل ما يلصق في غرفة الضيوف احتفاء بكل قادم يمكن أن يمر
صدفة أمام البيت، لا بد أن يشرب الشاي لا بد أن يتذوق الفاكهة
والحلويات، لا بد أن يشرب القهوة ويتناول بضع حبات من اللوز
والجوز رفيقا مائدة الطعام، كأن الغرفة تتجهما كلما دخل ضيف.
كلما دخلت الحديقة أرى بساطين جدي المتحجرة. وكلما عبرت
سريراً تزدحم الأسرة في ذهني، وحمرة الغروب كل مساء، جمرة
حارقة ألتقطها بين يدي، حمرة الغروب كل مساء، كل مساء، أتبه
في ألوان زربية تازناخية كانت يوماً مسرح لعبي.. يا ذاكرة الخراب
يا مسرح ألمي!

إحساس بالشتات، بالتبعثر، نعم تبعثر كأوراق شجرة الجوز في
فصل الخريف، حتى لو حاولت جمعها، فإنها تتفتت بين يديك،
وتزداد تشتتاً وضياءً، داخل اللحظة يتطلب الأمر ساعات ودخل
العمر يحتاج الأمر عمراً آخر، عمر للخيبة وعمر للنسيان. الذكريات
تظل تستفد كل طاقاتنا، توقف فينا بين الفينة والأخرى مشاعر
غريبة، عندها تنهار وتسمح للدموع بالتساقط، فذلك يبدو أرحم
من أن تبكي وحدك في الظلام، بصمت، غارقاً في بئر اليأس، لكن
ليس أسوأ من أن تتحجر الدموع في مقلتيك وتبأى الخروج، سكاكين
حادة تنغرز في لهاتك، تبحث عن الدموع فلا تجدها كأن جميع

السوائل نضبت من جسدك، حياتك تنقصها الحياة، وإذا رغبت في البكاء، لا تجد دموعًا كافية تغسل كل عذاباتك، مأساة، صدمة، كارثة، كابوس، مرارة.. تكرر وضعًا ما كان له أن يكون، حين يصبح الجسد مستقلاً عنك يا إنسان، تصرخ صرخة قوية جدًا، يهتز لها الكون، ولا تغير شيئًا.. الإحباط.

فلا يبقى إلا التوجع ملء الحنجرة مع أغاني الغيوان حين يصرخون:

يا عالم كثرات لحزان

يا عالم علة ف لوطان

يا عالم مصير الإنسان

يا عالم نكبة ومحان.

ولا تبقى إلا الكتابة، قصص قصيرة تتراقص الماء، تود أن تقول شيئًا، أن تكتب، فهناك عند نهاية كل شيء تبدأ الكتابة.

الزاوية 1

إن هناك في زاوية شبه مظلمة، يشعر باليتم، فقد مات شيء في داخله، شيء قديم كان يحبه، تذكره فجأة فأحس بثقل الذكرى، كل الرمادي يحيط جروح الماء الدرويشية المستحيلة. يحس بالتخلي، فالعالم يبدو من تلك الزاوية لوحة غامضة مخيفة ومستهترة، إنه يقاوم وحدته.

الزاوية 2

عادت إيمان من جديد لتقول له: كفكف حزنك وابتسم للحياة. كأن جوابها كان جاهرًا في حقبة إسعافاتها العاطفية. باحترافية أخذت جملة مستعارة عادية لتلقيها صفعة على وجهه الرمادي كرمح عربي أخطأ مساره فزادته تعاسة. ورحلت وهي تبتم كما

لتعلمه فعل الضحك. وبقي وحده يقاوم ضغط الحروف.

الزاوية 3

رفع رأسه من جديد لينظر في اتجاه القلق فوجد
إيمان مرة أخرى أكثر حزمًا وقوة وتفاؤلًا تقول له: لملم
شأت صفعة الكلمات ولتعزف به أنشودة لحن الحياة،
لا تقل إنك حزين ففي الحزن عمق لا يدركه إلا المبتسم المتألم..
انظر في عيني وانظر إلى السماء وقل الحمد لله أني حزين.
تقول له انظر في عيني اليمنى لترى روعة الحياة، وانظر في عيني
اليسرى لترى حلاوة العيش.
فتح عينيه بصعوبة واستسلم لابتسامة ولو أنها حزينة إلا أنها
ابتسامة أمل.

obeikandi.com

لكن، رغم كل شيء أحبيني.
شفتاك كزهر الرمان، أقضمهما كحبات العنب، يا قلبي لم خُلقت
بكل هذه الأسرار، لا تنفع معك حكم جدي، تكلمي أو اصمتي،
رائعة أنت في جميع الأدوار، مثلي أو لا تمثلي فأنت معشوقة قلبي،
تودين قتلي؟ أنا مقتول سلفاً، ادفنيني إذا شئت، أو لا تدفنيني،
تمتعي بجثتي تتحلل، ستتحول حتمًا عظامي إلى جملة: أعشقتك
حتى الموت يا موتي.
هيفاء كسنبلة، لا تتمايلي، ارحمي جروحي، لا تضحكي، فكأنك
تنزعين الضمادات عن جروحي المفتوحة دومًا في وجه الموت يا
موتي.

لا تتحولي هكذا فجأة إلى سكين، كذب من قال إن الحب ليس
عذابًا وألمًا، الحب عذاب طويل كالانتظار، ملتوٍ كالحية، يسير
ببطء شديد كالودودة، ولكن يلدغ بسرعة كعقرب، لا يدع لك مجالاً
للشك أو اليقين، تظل تطرح نفس السؤال: هل هذا هو الحب؟
يجدري أن أطيّر عوض التساؤل، السيارات والحافلات التي تملأ
المكان تحسدي وتعبّر عن انشراحي بأضوائها، حفلة فضائية من
أفلام الخيال العشقي.

عيناك، آه من عينيك! بنيتين كاللوز، غرفتي مليئة بك، وجدتك
في الدولاب بين ملابسني، ملابسني الزرقاء، إنها أكثر ما يذكرني بك
(الأزرق النيلي لغرفة الضيوف يطفو إلى الذاكرة، ليحتفل بعيد
ميلاد ألمي، أشتاق إليك يا غرفة البحر الجبلية) الأزرق يستهويني،
يشئت تفكيرني وإحساسي ويعيد لمهما من جديد.
وكلما ابتعدت أبحث عن كوب حليب.

لا أدري لم أتجه دومًا نحو فكرة شرب الحليب كلما شعرت بالضغط النفسي. ربما بياضه يوحى بالصدق مع الذات فأبحث عنه في غمرة ارتبائي وبحثي عن نفسي، أو هو حنين لشدي الأم الدافئ، وقد يكون حنينًا للطفولة ككل حيث كل القلوب بياض كالحليب؟ الأبيض لون الأطياف والأحلام الجميلة، الأصل والمنتهى، ومذاق الحليب الخاطر الذي يملأ الفم بلزوجته الحليبية اللذيذة يحملك إلى عهد قديم من الذكريات، كنت فيه كتلة صراخ تحمل مرضعة وتجربكاءك، ومن عاداتنا في الأطلس أن نرش العرائس بالحليب، حتى أنني شاهدت جدتي تغسل ملابس ملطخة بقطرات دم صبيحة عرس بالحليب، وهو نفس الحليب الذي شرب منه العريس تلك الليلة، وربما هو نفس الحليب الذي.. ما أروع سيميولوجيا الحليب الأبيض، حتى تلك القصة عن الحليب التي كتبها أحمد بوزفور يومًا عن الحليب تتداخل الآن مع أفكاري داخل هذا النص الأبيض. إنه لون الطفولة والمراهقة ولون الحياة والحداد والموت. أما رائحته فهي رائحة معزاتنا السوداء التي تتناول نبات الكركاز بزهره الأصفر ورائحته القوية التي تصل حتى لحم وعظام الماعز. لذلك كله لا أنظر إلى سواد عينيها أكثر مما أنظر إلى صفاء بياضهما الحليبي وعمقه وتاريخه وما حَطَّتْهُ العروق الحمراء الصغيرة من قصائد عليه. سأشربك إذن كلما شعرت بارتباك وجودي فناوليني عينيكَ يا سيدة البياض يا حلوة البياض يا أنت.

حب قَدْ من فرط الإحساس، يسير على خطى بنفسجية من حسن صنيع الشوق. كعالم يرسمه أورسن ويلز. إضاءة هنا وقبله هناك. طائر من فرط الدهشة ينقر المجازات التي انسكبت علي من بهاء إقبالكَ علي. أنت وحدك تنظمين لي حياة فيها حياة. كما تنظمين عقدًا من الفرح. عقيقة بياض ثم عقيقة حمراء ثم حقيقة شفافة ثم حقيقة كاملة، وتختمين بقطعة مبسم تتوهج

داخل سريدة كياني كمصباح يشتعل، كثلج ينهمر ينتعل حروفاً من
أبجدية حوار الماء والنار.

obeikandi.com

مات الجد بعد ذلك، يقولون مات تحسّرًا على الأرض، هذا صحيح، فقد طلب أن ندفنه في المقبرة القديمة، كان يهلوس مدة يومين قبل موته، تحدث عن كل شيء تقريبًا، عن أمه وقريته ونضاله ضد الاستعمار الفرنسي وأصدقائه في النضال والمقاومة، أول قنينة غاز قاموا بتفجيرها في مقهى فرنسي، السجن، التعذيب، يلعن الخونة، في الساعة الأخيرة قبل موته تحدث إليّ بكلام لم أفهمه.

بعد أن تأوّه تأوّهًا اعتقدت أن روحه فارقت، رفع جفنيه بثاقل، فتح عينيه بصعوبة ثم قال:

- أنت رجل علم وحكمة، خذ القلم، أنت أهل للقلم، خذ القلم وفك رموز الحروف وأسرار الأسئلة.

صمت للحظة كأنه مات، تحرك قلبي من مكانه لحظات، ذعرت كفأر محاصر، لكنه استرسل:

- السؤال ليس نصف الجواب، السؤال كل الجواب، وأنت مكتوب عليك أن تحمل القلم وتكتب، ربما هو شقاء أبدي أو لعنة قديمة، هذا ما سيقولونه، لا تكثر لهم، إنهم جهل مغبونون، بالقلم تستطيع حل الألغاز وقراءة بواطن الأسماء، تم اختيارك لتحمل القلم، فلا تتردد، ستكون.. رجل حكمة، ضع.. هاتين الكلمتين في ذهنك، رجل وحكمة، رجل وبعد ذلك تكتسب الحكمة.

- ارتح قليلًا يا جدي، سنُشفى قريبًا وننهي هذا الحديث، يجب أن ترتاح، الطبيب يؤكد ألا تجهد نفسك.

إنها حكم ما قبل الرحيل، وصايا الوداع، عرفت ذلك. بعناده المعتاد أجابني مقاطعًا:

- أنا علّمت ذلك الطبيب، أنت أيضًا ستتعلم الأطباء، اسمع يا ولدي، ابحث عن الحكمة بالقراءة والسفر، سافر، فالمكان ليس مقدسًا (هذه أول مرة أسمع فيها نبرة التخلي عن الأمانة عند جدي المتشبه دومًا بالأرض) الزمان عَرَضَ والمكان عَرَضَ، ابحث عن جواهر الأشياء وخوافي النفوس، ولا ترضى بغير الأجوبة التامة الكاملة الشافية.

هل عرف جدي شيئًا لم أكن أعرفه؟ لقد تأكد كلامه، صدقت تنبؤاته، أخذت القلم، كان قدري أن أكتب أقدارًا أخرى في قصص حزينه حزن المداد الأسود، هل عرف جدي أنني سأشطط في استعمال القلم؟ لقد وقعت -كما توقع جدي- في هوى وغرام القلم والحرف، لا أشفى منه إلا بجرعات دائمة من البحث والسفر والحب.

في احتفالية الفراق وجماليات الحزن، ينهض جدي دومًا بقصيدة على بحر الحديث. يسترسل في الكلام في الهذيان في الانكتاب شفويًا داخل صدري.
فلأكتب إذن.

ويمتصون من التأمل حليب السياسة، يقول الحجر وينسحب خجلاً: كلهم يرتلون القضايا قللاً. يقول المطر وينزوي إلى سحابة حنونة: كلهم يفتنون النوايا جملاً على أذهان الآخرين. يقول ابن جيراننا وينصرف رفقة لفيفته الحشيشية الأم.

شيء من صمتها يقتلني، أمعناه أنها توافقني كلامي، أم أنه الصمت اللامبالي الذي يستحث المزيد من الصمت؟ شيء من نظرتها يحيرني، كلما دخلنا مطعمًا تجعلني مقابل نظراتها والحائط كي لا تدع لي المجال لاستراق نظرة ولو عابرة لأنثى أخرى قد تدخل المقهى. احتياط فطري ضد كل امرأة.

غيرة النساء دائماً تعمل في الخفاء.

شيء في صمتها يقتلني، في عمقها سيدة المسافات الحزينة وفي عينها دملج وقت يغطي الأمنيات، تسير صمًا إلى جنب مع الفراغ، تمتطي أسئلة مؤجلة كالأمل. ترتدي فستانًا طويلًا من النظرات الشاردة كسكون ميت لا محل له من الرقن، تحضن القلق تهدده كي لا يثور فتسفك الدماء، هي حبيبة نهر اسكتان، تترقق صورًا أرجوانية من تراويل المعبد القديم. قريبها مر عبد الله بن ياسين ليستنجد بالأمازيغ ويحيي لها عن غدر الرمال، كساعة سالفادور دايلي السورية تتدلى على حيرتها تسكبها أنخاب تأويل مخدر لا يسمح بالتكرار، خلخالها مستكين ينصت لترنيمة عائدة من سيمفونية الحاج بلعيد تبحث لنفسها عن رباب يليق بمشاق رحلتها السيمولوجية.

رغم صمتها الغامض وحركاتها العفوية العادية، أحسست حبها يتدفق عبر شراييني، يدفئني، لا يمكن أن أخونها في لحظة شرو

ذهني، إنها تائهة يشغلها أمر ما عن التركيز على جمل الغزل التي تتزاحم للخروج من قلبي. شفتي خضراء، عيناى خضراوان، ربيع الحب يلونني، سأتكلم، لا سأسكت.

سكتت أيضًا، لا فائدة من الكلام، في الصمت مهلة لترتيب الحوار من جديد، في حوار كهذا بين العشاق، تفتح مساحات الصمت حوار الأمكنة، ويبقى لديكور المقهى وشكل الإنارة النطق بحكم الحب، أوقع فعلاً أم لم يقع؟ وما هي أدلة الإثبات؟ صمتٌ أيضًا، لم أستطع إجبارها على ملء الفراغ، فخيم صمت ثقيل. الصمت الثقيل يولد شكاً مزدوجاً، الشك في الحب والمحبوب.

للصمت تاريخ بحجم كل ما قيل من كلام، فيه يحدث كل شيء، فيه نحيا، نحدث أنفسنا، نرتب دواخلنا، نبني الحدث القادم، في الصمت أيضًا نموت، ندفن آلامنا وشكوكنا. في الصمت مهلة لترتيب الحب داخلنا، لتفعيل قوى السكون والهدوء، يجب أن ننصت لما تحكيه الريح على عتبات الخريف، وما تحكيه النوارس للنفار، هناك في عمق السكوت الطويل رداء ضد الثثرة العابثة والفراغ، كل الأشياء تحكي في صمت رسويّ قديم، الشبايبك الحديدية الملتوية وخشب العرعار وعتبة البيت وقشور طلاء ماء الجير وتلك الرسومات الزرقاء في سقف الغرفة، اليد النحاسية على الباب الكبير، كم لها من قصص ووجوه. الكتب المُجلّدة تحكي، التلفاز الرمادي، المذياع الخشبي، صمت ثقيل يحكي التاريخ بعيداً عن الضجيج بعيداً عن الحكي نفسه وكل مداراته، الردهات المظلمة ليل نهار، المواعيد خلف الدار. موسيقى أعراب أتيكي الشعبية، اللوز والجوز وزهر الليمون، رؤى حلم صامت حد الكلام.. تكلم يا صمت تكلم.

أكره الصمت الثقيل الذي يطبق على المكان كتلك اللحظات ما بعد الأخيرة، التي والت مرحلة التدمير، حيث السكون التام الذي

يوازى النهاية، نهاية كل شيء.

obeikandi.com

كتلك الدقائق غير المحسوبة على الزمان، التي مال فيها رأس جدي بين ذراعي، وهو يوصي بالوطن خيرًا، رغم كل شيء. ذلك حوار الأمكنة الذي يأخذ من الصمت خيطًا يغزل به نسيج المقاهي والغرف والقرى المهملة ورأس جدي الذي مال كسنبلة مثقلة.

ذلك حوار الأمكنة، ينظم المتشابهات والأمثلة.

obeikandi.com

لحظات الصمت طالت بيننا، تنبئ بقرب نهاية ما، كنهاية قرينتنا الجبلية، لكن هل يمكن أن تكون جمل الغزل التي أرددها كركام الجدران؟ وأن يكون للمساتي صوت انكسار أبواب الغرف والمخازن؟ لن يحدث هذا بالحماسة التي التقينا بها، لا يمكن أن نفترق بهذا البرود الصقيعي لحب نضج على نار هادئة، إنه يحدث في ذهني فقط، أنا المهووس منذ فراق القرية باستباق الفراق واستعجال النهايات، إذ بفلسفة غبية أردد: بعد النهاية مباشرة تظهر الأشياء على حقيقتها حين تستنزف مقومات الزيف والتزوير والمظاهر الفارغة، الحقيقة تنتصب بعد الخراب لا غبار عليها.. لا غبار عليها أي حقيقة هذه؟ الحقيقة الوحيدة هي أن الغبار غطى كل شيء، أوراق الأشجار، الأثاث المكوم أمام أبواب المنازل، الماشية، خصوصًا الحمير السوداء التي تحولت إلى اللون الرمادي، مسخت مسخًا تامًا، كل شيء غطاه الغبار.. ووجه جدي أيضًا، لننسى حتى حين.

لا أستطيع أن أنسى.

صدري يشتعل بالغضب والتمرد كلما ساقني حرف إلى الحديث عن قريني المدمرة. لن أغفر للوطن هذه الخطيئة. نظرت نحوي وقالت:

- ماذا تريد من الوطن؟
- أريد وطنًا يضمني إليه بحنان، حتى يكسر أضلعي حنًا.
- عجبًا! لا تتحدث عن الوطن إلا وتتحدث عن التكسير والعنف؟
- لقد شرب أسلوبي من منابع الدمار، كيف له أن يتحدث عن

الحنان، عن ضمة وطن أو قبلة بلد؟

- هل تحبني؟

- نعم.

- صحيح (وتضحك) ما الذي يعجبك في بالضبط؟

- بالضبط؟ لا أدري بالتحديد.

هي كذلك المرأة تضع نفسها بينك وبين الوطن، لا لأنها تهوى الحديث عن الحب، بل لأنها وطن احتياط يقبل دون شروط لجوء الرجل المُبْعَد قسرًا عن الأمل.

- كيف لا تدري؟

- ربما عفويتك وبساطتك.

- أنا أبسط مما تعتقد، أنا مثل جيل بكامله، بعنفوانه، بحبه، بغضبه وفرحه.

نعم أعرف ذلك، أنا الغريب في هذا الجيل بهذا الوطن، أنا نوع آخر تكونت أحاسيسه تحت الحطام والفقر، يعيش الحب حتى النخاع ويشك فيه بعد أن ينضج ويكبر. أما غضبه؟ لم يعد يغضب، ماتت الأحاسيس في جوفه ودفنها، تغضبه الذكريات فقط، لا تغضبه تمامًا، بل تزعجه كالذباب. حمار على أبعد تقدير كما قال أحدهم: «من استغضب فلم يغضب فهو حمار».

- لم أنت حزين؟

- لست حزينًا، أحس موتًا داخليًا يعيش في قلبي، أمل يابس، أو لنقل لي قلبان، أحدهما حزين والآخر يتعلم الفرح.. عبر النسيان.

- أوه، كن عاديًا!

- لا أستطيع.

- افرح، افرح، لن تخسر شيئًا، انهض واصرخ في هذا المطعم، قل أنا سعيد جدًا، وستسعد.

- لا أستطيع.

- أحيانًا لا أفهمك، نضالك وقوتك تصبحان كمركب صيد قديم
تتقاذفه أمواج البحر، لا أذكر أين قرأتها ذات يوم، لكنها قولة
جميلة، تقول: لا يجب أن تزعجنا الأشياء التي لا نستطيع تغييرها.
- سأصبح تافهًا وبسيطًا كالذباب.
- أن تفرح حقك الطبيعي، لا أحد يمنع الفرح، يمكن أن تفرح
هكذا من فراغ وتستفز جسدك على إنتاج السعادة، انظر إليّ (تقف
وتدور حول نفسها برشاقة، لفتت انتباه مرتادي المقهى لكنها لم
تكثر لهم بل تابعت مسرحيتها التي تغريني بالفرح) أنا سعيدة،
فرحة، من يستطيع أن يثبت العكس، منسجمة مع ذاتي، فرحة
بأخطائي وهفواتي وفضولي، وحين أغضب أصبّ جام غضبي على
موضوع غضبي في ذات الحين.
- أنا لست غاضبًا، أنا حزين.
- وتستحلي فكرة الحزن، هذه مصيبتك.
- هذه لعنتي، إني أتعذب، أتعذب.
ربما ليس عذابًا، أخاف فقط أن أستسلم لفرح ساذج يستنفد
دفع الإحساس بالحزن والدموع السخينة، يا لبؤس هذا الإنسان!
لا يستطيع التخلص من الحكايا القديمة.

obeikandi.com

ماريا مقبلة على الفرع دون احتياطات، كما تقبل على الحب، حركاتها تشع حيوية حتى طريقتها في شرب العصير فيها الكثير من اللذة، كأنها تحتفي بكل قطرة تحتسيها، عكسي تمامًا، فإما أن أشربه دفعة واحدة وإما أتركه. أنظر في الكأس أقيس درجة اصفرار البرتقال، بين الأحمر والبرتقالي، فلا أشربه، فلونه قد يكون لون قصعة الكسكس الساخن الذي تسقيه جدتي كل يوم جمعة، يجتمع حوله أطفال الدوار يلتهمونه ولا يحسون بسخوته في زحمة الصراع إلا بعد أن تسلق أصابعهم.

{وتلك القصعة أتت عليها جرافة الوطن، فاستحال أحمرها دمًا على الخد يسري، وجدتي ما عادت تقتل السميد}.

تحضر إلى مواعيدنا في الوقت المتفق عليه مسرورة باللقاء، تقفز كالغزال تمزج ألوان الأمل على جسدها في بذلة محسوبة المقاس، تحيط خصرها في دقة متناهية. تترك دائمًا فرصة لرؤية أعلى صدرها، خصوصًا حين تنحني قبل الجلوس مباشرة لتدع لك مجالاً لتدرس التاريخ على مدى خط مستقيم يرسمه التصاق نهديها، فتلعن في نهايته فكرة صناعة الأقمشة والألبسة، ينتفض جسدك وينخطف بصرك، يتصلب كالخشب لسانك في أقل من ثانيتين، تبحث عن المدى وامتداد المدى، وتخيّل العرق أو الندى على ثلثين مكورتين ترفعهما وتضغطهما صدارة من الجهتين، يا تضاريس المدى! كيف للإنسان أن يستقيم ومستقيم كهذا، لم ترسمه مسطرة، يهز أركان الجسد ويصب في الأعماق قطرة سم؟ المدى.. الندى.. ماذا؟

أما أنا فأحضر ساعة قبل موعدنا، لأتلفذ بالوحدة ولأدع مجالاً

لأتأمل الأشياء وأتذكر المنزل الأول والحب الأول.

كم منزل في البعد يألّفه الفتى

وحنيه أبداً لأول منزل

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحب الأول

أنا غبي، شرد ذهني، أراني حماراً يعشق العذاب تحت أشعة
شمس حارقة، وقربه ظلال وارفة، أطريقي في الحب صحيحة؟
هكذا يتصرف المحبون؟ لأنّ تنشئي خاطئة لا يبقى أمامي إلا
المقارنة، عابس دوماً، هل أنا عاشق ماهر؟ صحيح أنني أفكر في
ماريا أحيان كثيرة، وتستولى على بصري صورتها، فأراها في جميع
الزوايا والممرات.. والأسرة. وأحياناً أجعل طيفها يستحم معي،
لكن...

حين سألت صديقي مراد يومًا، ما الحب؟
قال:

- أنا أعشق ولا أحب، ألتهم العنق وآكل الشفاه، ألعق الظهر
وأمص النهد، أضغط الأرداف وأعض الأكتاف.
- أتعشق دجاجة أم امرأة؟!

ضحكنا بعدها، رغم أن الزمن مضاد للضحك.
ابتسمت لهذا الحوار العالق بذهني، مر زمن طويل، كأنه يصف
وجبة شواء. لا بد أنه من النوع الذي يرى المرأة «وليمة فوق
سريّر».

أفقت من هذه اللقطة الساخرة وأنا أبتسم بغباء راسمًا ابتسامة
البله على وجهي، لو أن أحدهم مر بقربي آنذاك لازدادوا يقينًا
بغرابة أطواري.

أنا لست من هذا النوع، أين مراد الآن؟ إنه بعيد كل البعد،
أتصوره يدفع عربة الأطفال في الحديقة العمومية، عربة طفله الرابع
أو الخامس. وزوجته تمسك بذراعه، تمسكه بقوة، هل تزوج فدوى
أم ابنة عمه؟ ابنة عمه على الأرجح، فقد وعده أبوها بالعمل
معه، حياته إذن مريحة، أتصوره بضًا كثير اللحم والشحم، بارز
الوجنتين، أحمر كالتوت، منتفخ البطن كبطة، مترهل المقعدة،
أملس البشرة، بارد الأحاسيس، تصنع له أمه العجوز مقويات
طبيعية تقليدية تشعله كل ليلة، مسحوق الجوز واللوز والإلان
والتمر والفول السوداني وأشياء أخرى، هذه نتيجة عض الأكتاف
وهز الأرداف.. وحماه وحماته يتحكمان في أصغر تفاصيل حياته،

ربما يهددهم بين الفينة والأخرى بالرحيل وترك الزوجة والأولاد، لن يفعل ذلك؛ لا يستطيع؛ إنه جبان. باطلة حياتك يا مراد، قاومت الحب بالجنس، فدوى دوختك ورفضت الاعتراف بذلك، هل كنت مثلي حينها لا تدري إن كان حبًا أم شيئًا آخر؟ ما لا يمكنك نكرانه أنها رفضتك.

وحياتي أيضًا باطلة.

مراد على الأقل ساهم في التعمير، أنجب أولادًا، يكبرون، يدرسون، يثقلون الكرة الأرضية، يحركون الاقتصاد، يتزوجون، يتناسلون، أما أنا فقد توقفت معي عجلة الحياة والاستمرار، أنا الباطل، الباطل يأتي من بين يديّ ومن خلفي ويخرج أحيانًا من أسفل حزامي، لا يهم، أردت لنفسي حياة أخرى، ما زلت أبحث لها عن معنى بحضوري قبل الموعد بوقت طويل.

ماريا تحب الزيتون، تحضر كيسًا من الزيتون الأسود أو «المشرمل»، تأكل منه كل وقت وحين، هي من أصول برتغالية، انتقلوا قديمًا إلى الأطلس شمال إفريقيا، وحين غادروا مدينة مازاغان إلى البرازيل بأمر من العسكري الماركيز بومبال، بقيت عائلتها بالمغرب، لأنها كانت مرتبطة -على غير عادة المستعمرين- بعائلة أمازيغية عن طريق المصاهرة، وتحفظ عن أجدادها الإيبيريين بشعر أشقر، كما تحتفظ بإتقان اللغة البرتغالية، وهذا ما يميز الكثير من العائلات التي استقرت بالمغرب بعد انتهاء الحملات الاستعمارية وخروج أغلب المعمرين، وورثت عن أحوالها الأمازيغ عينيها البنيتين وأنفها المستقيم الصغير، حضارتا الشرق والغرب أنجبتا هذه المرأة الرائعة على أرض هي تاج إفريقيا. أنجبناها من أجلي.. وحدي. ابنة أكبر إمبراطوريات العالم تجلس إليّ في علاقة حب بائسة.

والبائس أنير (كما يسموني)، يفتخر جدي لأمي بأصوله العربية حين يتحدث عن قبيلة «أيت داود» يقول دومًا «أجدادك يا بني عرب، حضروا من الشرق، يحملون إرثًا ثقيلًا من علوم الصين والهند والجزيرة العربية».

كان جدي دائمًا يفكر في اتجاه الشرق، تجاه الشمس، تجاه مكة المكرمة.

وعندما أسأله: «ألم يكونوا يهودًا في البداية؟» لا يجيب. يفضل الصمت، يسكت دون سابق إنذار، ربما هو لا يدري، كل ما يفخر به بعض ما يسميه، «أسرار الكون» يقول إنه وارثها،

وسيعلمني إياها بالتدريج، علمنيها لكني نسيتهما، يتحدث عن الأولياء والصالحين كأنه عاش بينهم، يعيد ويكرر سيرة أبي الليوث أو الأسود، ويصر على أنه راقد في مكان قريب من قريتنا يسمى «وامسلاخت»، أنصت لخرافات جدي باهتمام، تعجبي طريقته في الحكي والمبالغة وتهويل الأمور واستسهال تثقل الأولياء الصالحين بين البلدان، مشياً أو على الدواب التي لا تعب، تجدهم في عدة أماكن في نفس الوقت، وعندما أتعب من حكاياته أستمتر في الاستماع، خوفاً من غضبه الشديد، عصاه الطويلة قد تطلانا في نوبة غضبه، وقد يصرخ بشدة في وجوهنا.

- لذلك حرمكم الله من البركة لأنكم لا تحترمون الأولياء والصالحين أسياد الدنيا والآخرة.

يذهب جدي سنوياً إلى مراکش يزور رجالها السبعة، ويعود فرحاً منتشياً، كأنه عريس، يجلب البركة إلى هذه الأرض عبر ممر "تزي نتاست"، الممر الوعر بين جبال الأطلس الكبير، لكنه كان عنصرياً يحب إكرام من ويكره إسمكان. يقول دوماً: "أينما حضر الأسود فانتظر مصيبة"، وذلك حين يغضبه أحد الخماسين» أما إكرام من (الشرفاء) فلا يذكرهم إلا بقلب سيدي أو للاً.

أما أبي، أبي رجل حر، أمازيغي، سكن الجبال قروناً وقروناً، يحب الزراعة والأرض، حرفته التي يتقنها، في مجال تحكمه العادات والأعراف والتقاليد ولا يرضخ لسلطان، حين تضيق به الجبال وأرض البيضان، يرحل إلى صحراء السودان، وسرعان ما يعود إلى أرض الأجداد.

مات الأب في ريعان الشباب، ولأنني كنت صغيراً فقد نقلت تعلقي الأبوي إلى جدي، أمي لم تعد إلى بيت أبيها بعد ترملةا، بل فضّلت البقاء في البيت الكبير وفاء لأبي، فالكمل يعرف قصة حب طائشة وصلت أخبارها الدواوير المجاورة. تعلقت به وبذكراه

ورفضت أن تتزوج بعد موته، وبقيت أرملة وفية لحياته، كما كانت تعبر فهي حين تتحدث عنه تقول: «حياة بآباك الله يرحمه». ومات الجد أسفًا على أرض دمرتها آلة ضخمة من القرن العشرين بكل بساطة، أحسست هول الصدمة ووقعها على جدي، فالأرض بكل هذه الامتدادات والمعاني لم تكن بالنسبة إليه مجرد أرض، مات كمداً بعد أن أضحى من المعمرين وتجاوز سنه العشرة بعد المائة.

obeikandi.com

- تريدین عصيرًا آخر؟
- لا شكرًا، أريد أن أسمعك تتحدث، استمر!
- مقهى جميل، مؤث بطراز رفيع أصيل، أليس كذلك؟
- بلى، مقهى الزعفران، إنه رائع، تالوين ما زالت محتفظة بطابعها الخاص. ولكن تلك الزخارف الأندلسية وألوانها الطافية لا تسير مع طبيعة المكان، في الجبل أحب أن أجد المثلث.
- أتأتي إلى هنا مرارًا؟
- نعم.
- مع من؟
- مع ذكراك.
- أكنت ذكراي رشيقة ترتدي الكعب العالي؟
- هي المرأة دومًا تضع احتمال وجود أخرى، لا تحب حتى أن يكثر رجلها من استعمال المفردات المؤنثة، فقد تجعل للذكرى سيقانًا وأقدامًا وتلبسها كعبًا عاليًا.
- لا كانت تسبح في السماء كطيف أزرق.
- سأترك طيفي يواعدك إذن ويحرسك، فأنا مسافرة إلى طنجة لإجراء مقابلة معهد السياحة، وسأبقى أيامًا، فأنا أحب هذه المدينة كما تعلم.
- قررت السفر إذن، غريب! أحتاجك أكثر بقربي.
- أنت آخر شخص أودعه.

obeikandi.com

عزيزتي الغالية ماريا:

اشتقت إليك بعد أن رحلت مباشرة، أعرف أنك رتبت الأمور بطريقة تجعلني آخر من يودعك، آخر من ترين في هذه المدينة التي أجدها اليوم فارغة بدونك، كأنك سحبت الوهج الذي يضيء طرقها وأسوارها بمغادرتك.

في البداية عندما أخبرتني عن سفرك وجدته عاديًا، تقبلته، لكن في هذه اللحظات وأنت بعيدة، وربما ما تزالين على متن القطار إلى طنجة أحسست بفراغ قاتل، لذلك قررت أن أكتب لك، وأرسل رسالتي على جناح الأمل بأن تصلك في الوقت المناسب، كما يعبرون في كتب الرسائل القديمة، لقد اكتشفت حضورك في غيابك، أود الآن لو أترك كل شيء لألحق بك، وأضملك بحب زائد فوق العادة، لأتبادل معك شحنات تقيني شر الفراق والاشتياق، بدون تحفظ إذن، أحبك، أحبك كثيرًا يا ماريا، يا فتاة الحضارتين، أذكركن هذا اللقب؟ فرعونية أنت في استقامة أنفك، عجربة في تجعيد شعرك الذي يغطي كتفيك.

أعرف أنني أتعبتك بحبي وذكرياتي، ذكرياتي على الخصوص، لذلك قررت أن أكتب لك كل شيء منذ بداية المأساة، كما احتفظ بها عقلي الصغير حين كنت طفلًا، رغم أن الطفولة دائمًا تجرنا إلى أشياء لولبية، ضاربًا عصفورين بحجر واحد سأبدأ الحكي، الحجر الأول أن أتخلص منها (أعني أشياء الذاكرة) والثاني أن أونس غربتك ووجدتك -رغم أنني أشك في أنك ستبقين وحيدة- ستجدين الوقت الكافي في مدينة كطنجة لتقرئي كل شيء، أنت التي تحبين الإطلال على جذورك، طنجة هي المدينة المناسبة لك.

كنت في الحظيرة أضع العلف في المخلاة وأعلقها في عنق الحمار، عندما انتبهت إلى أن جدي انقطع عن العمل، غسل يديه من الطين العالق بهما كأنه يغسل الغضب، وتوجه إلى ساحة القرية التي يجتمع فيها «آيت ربيعين» هذا المجلس الذي يعتبر كمجلس شورى، يتباحث فيه الرجال أمور البادية من تنظيم للسقي، وحل للخلافات، وعقد المصالحات. جمعت الأدوات التي يمدربها جدي جدار إحدى الغرف، ورششت الطين المتبقي بالماء، كي يبقى مبللاً صالحاً حتى الغد والتحقت بالساحة.

منذ الستينيات كانت الدولة تبحث مخطط إقامة السد على وادي سوس، وقامت بدراسات كثيرة، تقرر إنشاء سد بالمنطقة حيث بدأ العمل فيه منذ الثمانينيات، بإحصاء ممتلكات السكان الذين سيتعرضون لنزع الملكية، وهي أقود مسطرة في القانون، صدمة أهالي الدوار والدواوير المجاورة لا توصف، فلا يطلب منك التخلي عن أملاكك فقط، بل عن تاريخك، حضارتك وماضيك.. رد الفعل كان عكسياً، ازداد السكان تعلقاً بالأرض والأشجار.

أعيد سرد هذه الأحداث، وكأني أضغط على الدمامل والبشور، وأثقبها بمسمار حاد. تحدث مقدم القرية (الذي فقد هيبته أمام الناس، منذ أن أصبح منحازاً للسلطة بعيداً عن قرارات مجلس القرية هذا) فكان كلامه قرارات مخزنية، مليئة بالتهديد والوعيد، وهذا ما أدى بالبعض إلى شتمه، لكنه واصل:

- سواء أردتم أم لا، وعلى الجميع التعاون مع موظفي التجهيز لإحصاء ممتلكاتكم وأراضيكم ومزروعاتكم وهذا في صالحكم.

- مصالحنا في البقاء على أرضنا والدفاع عنها.

- لا نريد تعويضاً، نريد البقاء في منازلنا ولتهدم فوق رؤوسنا.

بعد فورة من الغضب والسب والشتم والصراخ والمناقشة، تفرق الأهالي دون حسم الأمور.

جاء فيما بعد موظفو التجهيز، حمر الوجوه، تظهر عليهم آثار النعم، كروشهم منفوخة ومتهدلة، أقلامهم كالخناجر، حدث هذا بعد مدة طويلة، هؤلاء الموظفون أسوأ خلق الله. بدوا لي أثناءها سربًا من الخفافيش ورقًا من الغريبان.

اصطحبهم المقدم أولاً لإحصاء أشجاره وممتلكاته (المقدم أيضًا ضحية، لكن التزاماته تفرض عليه أن يبكي إلى داخله وأن يذرف الدموع إلى صدره، حسب منطقي الإنساني الساذج البسيط)، ونظرًا لفهمه العميق لحثيات الإحصاء رشى الموظف، الذي بدأ يعد أشجارًا غير موجودة، حتى الأزهار ربما اعتبرها شجرًا لكي يضخم قيمة التعويضات للمقدم، وكان يعتبر جذوع نفس الشجرة أشجارًا مستقلة.

على عكس ما حدث مع جدي، عوض تقديم الرشاوى، قدم أطباءً من الكلام القاسي، والسباب والتذمر واللعنات، واستنجد بكل الأولياء والصالحين (لم يحضر منهم أحد، مراکش بدت بعيدة وأبو الليوث أصبح نعجة) وهذا جعل الموظف يتعامى عن الكثير من الأشجار والممتلكات، وحتى منازل جدي وأعمامي الأربعة اعتبرها منزلاً واحدًا. بعض هؤلاء الموظفين أضافوا أسماء زوجاتهم للاستفادة من التعويضات ووضعوا أسماء خيالية ربطوها بحساباتهم البنكية.

في البداية استسلم الناس لهول الكارثة، وربما استمتعوا بحضور الغرباء إلى الدوار خصوصًا الفتيات، فقد وجدن في ذلك فرصة لاصطياد زوج. حتى في وقت الحرب ستظل الفتاة القروية تترصد الفرص لاصطياد زوج.

طلب منا إخلاء المكان في ظرف أسبوع، يا إلهي! إلى أين سنذهب؟ لم يكد ينتهي الأسبوع حتى جاءت الجرافات والمخول، وجاءت أيضًا قوات مسلحة، يا لظلم الوطن! أين سيسكن هؤلاء

البشر الحشرات؟ إنها أسوأ لحظات حياتي، لم أستطع حتى الآن استيعاب هول الكارثة.

كلمات رجال السلطة ذكّرت جدي بأيام الاستعمار الفرنسي، على الأقل آنذاك كان بإمكانه الدفاع عن الأرض المستلبة ضد عدو واضح المعالم، كافر كما يقول، أما اليوم، فإنه يصرخ في هستيريا كئيبة يندى لها جبين الوطن:

- اليوم قامت قيامتي، هذا التراب سأخذه معي أينما رحلت.

ثم بدأ يأكل التراب في جنون أصابني بالذعر والخوف.

أخافني جدي الذي تغيرت ملامحه، وجهه داكن حد السواد، منتفخ الودجين كحيّة، خفت آنذاك أن يموت غضبًا، كمدًا، أسفًا على تاريخه، صدقيني مارياء، كنا في عالم منعزل كأى قرية جبلية في الجنوب الغربي، تجري مياه وادي سوس وسط قرينتا لتسقيننا وتطعمنا، قرينتا كانت جزيرتنا التي نعيش فيها مكتفين بالقليل، نعيش في قناعة وبساطة إلى أن حضر مهندسو الدمار.

أرجو أن تعفيني من وصف مشاهد الدمار، لأني بدأت أفقد السيطرة على أسلوبي، خلاصة الأمر أننا هاجرنا قبل الحصول على التعويضات، جدي رفض كل تعويض، فلا يمكن للمال أن يعوضه عن الكرامة، لكن عمي لأمه كثيرًا، فالكرامة يمكن أن تباع تعويضًا عن التشرد أو الموت جوعًا وبردًا، معنى الكرامة قابل للاسترخاس في المزاد الوطني كلما ارتفع معدل الفقر والجوع.

تقيأنا الوطن في منطقة غابوية كالوحوش، اثنا عشر دوارًا في فج صغير لا يسع آلاننا، ماشيتنا أو ما تبقى منها بعنا، التحق البعض بأهاليهم في مدن وقرى أخرى، وبقي الآخرون، نحن أقمنا خيمة من البلاستيك والقش وأخشاب استطعنا تهريبها أثناء الدمار.

كأن زلزالاً ألقى على القرية، دمرها تدميرًا تامًا، لا يمكن قياس درجته إلا بمقياس غدر الأوطان، يا وطنًا قدمنا له دماءنا في مرضعة،

أُتِطَعْمَنَا سَمًا بَعْدَ أَنْ نَبَتَتْ أَنْيَابُكَ؟!

رَفَضْتَنَا الْمُنَاطِقَةَ الْجَدِيدَةَ، فَتَرَابَهَا لَا يَصْلُحُ لِلْبِنَاءِ، عِلَاوَةً عَلَى أَنَّهَا فِي مَلِكٍ أَنَاثٍ آخَرِينَ، تَقْدُمُوا بِمُلَفَاتِهِمْ ضَدَّنَا فِي الْمَحَاكِمِ وَحَكَمْتَ الْمَحْكَمَةَ لِصَالِحِهِمْ، تَحِيطُ بِنَا مَصَالِحُ الْمِيَاهِ وَالْغَابَاتِ الَّتِي اجْتَهِدَ مَدِيرُهَا فِي رَصْدِ مَعْرَازِنَا، فَكَلَّمَا هَرَبَ تَيْسٌ وَتَجَاوَزَ الْحُدُودَ نَدَفَعُ ضَرِيئَةً عَلَى ذَلِكَ، الْمَهْمُ أَنَّ الْإِدَارَاتِ وَالْوِزَارَاتِ تَكَاَلَبَتْ عَلَيْنَا كَأَنَّهَا حَشَرَاتٌ زَائِدَةٌ عَلَى أَرْضِ هَذَا الْوَطَنِ. يَا وَطَنًا يَلْتَهِمُنَا كَبَعُوضَةٍ عَلَى لِسَانِ ضَفْدَعَةٍ!

مَا أَقْبَحَكَ يَا وَطَنَ حِينَ تَتَّخِذُ شَكْلَ مَسْطَرَةٍ قَانُونِيَّةٍ يَعْتَزُّ مَوْظِفُو التَّجْهِيزِ الْجُهْلُ بِتَطْبِيقِهَا حَرْفِيًّا عَلَى أَعْنَاقِ الْفُقَرَاءِ!

obeikandi.com

ماريا حبيبتى:

لولاك، لولا عينيك، ما كنت لأنظر في أعين البشر. أحبك كثيرًا؛ تستمعين لتفاهاتي دون أن تملّي، تستحملين عقدي وضعفي ولا تشتكين أبدًا، قدرك وحظك أن تقرّئي هذه المأساة.

هدم البيوت والمنازل تم في أسبوع، أما صرف التعويضات فقد استغرق عشرات السنوات، وحتى الآن وأنا أكتب لك بعد ٢٧ سنة، هناك من لم يتوصل لدرهم واحد من مكتب الإيداع.

هل مصلحة الوطن تقتضي قطع الإنسان إربًا إربًا ورميه في كوخ بلاستيكي؟ لا يمكن لأي تعويض محو هذه الصورة من ذاكرتي، سأظل أستقبحها في وجه الوطن، ألعنه وأسبه في سري وعلايتي، لأنه تركني عرضة لبرد الشتاء تحت كوخ بلاستيكي بعد أن هدم منزلي وقطع أشجاري ورفش مزروعات بستاني الصغير.

أعرف بأنك ستقولين بأن الوطن فكرة مجردة لا علاقة لها بتصرفات إدارة قاسية، وأن الوطن هو ذلك المعنى الذي نقاتل من أجله كل الدلالات، وأن ندوس على قلوبنا فرحًا من أجله، وأن نعتر حتى بالآلما في حضرته.

أعرف هذا، لكن ماذا لو كان الوطن هو الذي يدوس قلبك؟ وهو الذي يهينك وهو الذي يجرحك، فهل يبقى فيه أمل حين ينهي ماضيك ويدفنه من أجل بحيرة ماء، سيغرق فيها مستقبلك أيضًا؟ فيا له من وطن!

ضاع المعنى وتقنع، واحتفل على لسان الحشرات بوجودك في سمائي.

معنى مقنع لا ينتمي إلى كلمة، قرر أن يهبط على ظهر نحلة تكثر

التوهان بين حقول الذرة. يلامس في بعض رموشه شيء من الخجل الذي تحتويه نظرتك السرية كأنك تنظرين من تحت وشاح قصيدة نزارية بالغت في وصفك. حط المعنى على حاشية الطريق السريع ليراقب نملة منهمة في لم ابتسامة تشبهك بعدما قررت أن الشتاء هذا العام سيتأخر وسيترك لها فرصة الرقص مع المعاني الهائمة على وجوه القصائد. طار المعنى محلّقًا فرحًا قلّقًا على حوامله يستند إلى السنين الثمانين من عمر آخر ديناصور طائر. ارتكن لجذع نخلة لينظر إلى دعسوقة تحتفي بالأحمر مثلك كزهرة رمان قررت ألا تستحيل ثمرة هذه السنة ما دام العشاق يكتفون بالزهر منظرًا ومثلاً. واستمر المعنى يبحث لنفسه عن سند كجسد يرتقي بالحيرة إلى مصاف الحكمة ويرتوي من الغسق والفجر وشمس الصباح. ويكتفي برذاذ المطر كي لا يحبط النملة. ويقضي ما تبقى من رحلته المعجمية باحثًا عن ربة تليق بعشق دعسوقة منقطة بالهوى تهوى الكاماسوترا الهندية، تلف ورقة التوت على جيدها المدعم بحكايا شهرزاد.. وحط أخيرًا على اسمك بعدما قرر أنك حاملة لمعنى الحياة في تفاصيلها إلى درجة البحث في أحاسيس نملة متمردة.

أنت المعنى وأنت الوطن.

ماريا حبيبتى:

ضعي قلبك على قلبي، ونبضك قرب نبضي، ونفسك حذاء نفسي، لنصنع موسيقى توحدنا، تحملنا، تحضننا، ترحلنا إلى حيث لا ظل للقصائد الصدئة ولا النوتات الشاردة من سمفونيات الأندلس الهاربة من جحيم التفرقة وركس الهزيمة.. دعينا نتبرم من سطور أدونيس حين يترفع، ودرويش حين يتمتع، ونزار حين يتلوع أو يتمتع، والرافعي حين يتورع أو يتخشع، دعينا نبرم صداقة مع السيّاب حين يحن، فهو الوحيد الذي يمكن أن نكتري قرب نافذته بيتًا من الريح يحملنا هنا وهناك، ونكون جيرانه الأوفياء كلما استبد الألم، دعينا نزوج رؤيتك بحلمي لنلد ملاكًا هناك قرب سنديانة وارفة الحب.. سوف لن نبحت بعيدًا عن مأوى، فنظرة جدتي وهي تعد حساء الشعير قرب الكانون الدافئ بيديها المخضبتين بحناء طازجة. نحشر حننا بين تجاعيد جبينها يتبرك بسنون الدوام.. دعينا نتمسك بتلايب جلباب جدي العائد تَوًّا من السوق الأسبوعية، يطلب قهوته اليقين المعطرة بالقرنفل المنسمة بشيخ الجبل متكئًا كأمير على وسادة محشوة بالتاريخ مادًا رجليه على حصير من الدوم. دعينا ننظر إلى عمتي فوق سطح البيت تنشر قفة من محصول التين تجففه ليعمر كموسيقانا عمرًا من الحنين. فبين حبة وحبة آلاف من حكايا النوارس الهاربة من سخط القبائل العربية. دعينا نسجل عنوانًا على خط الحرث ونحط لكفلاق متجبر على محراث خالي الخشي. دعينا ندفن حننا في جبل يحميه زلزلة اللغة ومكر الملل واحتراق الغيم على ضفاف أبي رقرق، دعينا نطمئن كبقرة تجتر في سكون برسيم الهدوء، كأنها

حكمة إفريقية عمرت ربع تاريخ أو يزيد. دعي قلبك على قلبي..
وضعي خذك على صدري وأنصتي لخطى الطبيعة ترقص داخلي.
واطمئني.

ماريا حبيتي:

تحاملت عليّ رنات الملل وترامت عليّ أيقونات التعب، فحملت
بعضني إلى «تفريت» أخوالي، أحمل عصا من القصب أهش بها على
أفكار تسلسلت مذ قرر امرؤ القيس أن القول شر لا بد منه. دون
قلم ودون مذكرة في تحدٍ صارخ لشهوة الكتابة. أجلس إلى جملي
أبعثرها. أنظر في موسم الهجران أعشاشًا ترحل تاركة بيضًا معلقًا
بين الفراغ والفراع، والعصفورة الأم تولول من هول ما جرى. ذاب
الرمل، سكت الصدف، ما عادت للبحر ملاحمه، ما عاد للدير
رهب والشيخ تكمه عمامه البيضاء. أسرق بعض الطمي من
مجرى الفن التاسع وأرسم بإصبعي شكل قلب مسهم من أحلام
مراهقتي الأولى على شجرة الجوز الوحيدة المترفقة بحالي. خطت
إذن في استسلام لشهوة أبدية وكتبت دون سابق انتظار: أحبك.
إلى اللقاء في رسالة أخرى.

كالعادة لم أرسل الرسالة، وعوض الضغط على زر الإرسال ضغطت على زر الاحتفاظ وتركتها في علبتي الإلكترونية إلى أجل غير مسمى، قرب عدد كبير من الرسائل الأخرى والمقالات وقصاصات الجرائد التي تناولت موضوع التجهيز لبناء السد الملعون. لا يمكن أن أرسلها لها، فأنا لا أريد أن تحزن وهي في غربة، لأني أحبها.

تركت الحاسوب بعد ذلك لصديقي الذي ينام قربه حتى الصباح، يقول إنه يستمتع ببعض الصور التي ترسلها بعض المواقع إلى علبته الإلكترونية، لا أدري كيف يستمتع، ولم أسأله لأني أحترم خصوصيات الناس، فلكل الحق في التمتع بالطريقة التي يراها ممتعة.

اللحظات القليلة قبل النوم تضعك في مواجهة كبرى مع جسدك، إذ لا تدري كيف تتصرف، ليس مع الذكريات ومخزون الماضي فقط، بل مع بعض شعيرات الجسد التي تدغدغك في غفلة عن نفسك، وتولد فيك إحساسًا ورغبة بمعانقة أقرب شيء إليك ولو كان مجرد وسادة خالية، وإن كان إلحاح الجسد حادًا، تخرج مرتديًا معطفك وقبعتك وتنطلق في عالم الليل.

تسير بمحاذاة رصيف خالٍ بسبب المطر والظلام، تنظر إلى أصحاب مهن الليل ومحالهم المفتوحة، المخابز، المقاهي، المطابع.. قد تصادف كناسًا يتكاسل في جر العربة والمكنسة، بعض الكلاب الضالة التي لا تنبح، خوفًا على نفسها، في الليل يستسلم العالم للسكون، اللاوعي فقط يصرخ متخذًا فم سكران يسب ويلعن ويشتم.

تتحاشى كل هذه الصور الباهتة، وتتجه إلى هدفك، امرأة ليل..
تعود من الشارع الذي لا ينام سالكاً طريقاً خلفياً أو زقاقاً جانبياً
مظلماً، تعود إلى غرفتك خالي الذهن، غيباً، وترتمي على سريرك
البارد دون أن تحس بشيء.

الجسد سكت، الرغبة ماتت، والشعيرات نامت.

- تصبح على فراغ.

- وأنت أيضاً.

تستيقظ على فراغ، تعد قهوة، بسكر أو بدونه لا يهم، تحتسيها على عجل، ترتدي ثيابك المعتادة وترحل.. لا يمكن أن تفعل أشياء أخرى، هذه عادتك، بودك لو تقرأ جريدة اليوم قبل الخروج كما في بعض الأفلام، لكن من يحضر لك الجريدة؟ تكتفي بنظرة سريعة على صفحات جريدة الأمس، بحكم العادة أيضًا تشتري الجرائد، قد لا تقرأها، لا يهم أيضًا.

- ألن تدخل سيجارة الصباح؟

- لا أدخن كثيرًا؛ ليس من عادتي.

- لن تضع مزيل العرق؟

- الجو بارد؛ لا.

- عجبًا! هذه اللقطات اليومية كيف تسقطها من مشهد يومك؟

حتى أنك لم تنظر في المرأة.

- وهل سأجد شخصًا آخر؟

- ربما هذه أمنيته أن تجد شخصًا آخر عندما تنظر في المرأة،

لماذا لم تنزل لشراء الجرائد من الكشك القريب؟

- كل شيء قريب.

- لا بد أنك شخص آخر، انظر في المرأة أرجوك.

- ما رأيك أي لن أمسح الحذاء ولن ألمعه، وسأترك بقايا الخبز

على أسناني.

- على الأقل أكلت خبزًا هذا الصباح، إنك شخص آخر، أنا

متأكدة.

- لا تقاطعيني، ولن أذهب إلى العمل حتى.

- ماذا؟! هذا مستحيل! يمكن أن تكون شخصًا آخر، لكن ضروري

أن تعمل.

- أكل ما نفعله ضروري؟!

- أعتقد ذلك.

- لا تعتقدي؛ لن يحدث شيء.

- أخبرني، ألن تسلم على صاحب الدكان في الأسفل؟

- هل هذا ضروري؟

- تفعله كل يوم.

- اليوم لا، لن أسلم عليه، سينفجر غيظًا ويتساءل عن سبب

ذلك ويسأل الببغاوات أمثاله، سيجد على الأقل حدثًا يلوكه حديثًا

هذا الصباح.

- والصبية الصغار ألن تقف لتلاعبهم؟

- لن يكون هناك صبية؟

- لماذا؟

- اليوم عطلة.

- اليوم عطلة، عطلة، عطلة.

- لماذا تكررينها على مسامعي؟ لا عمل اليوم، سأعود إلى النوم

إذن.

- تستعد للخروج إلى العمل في يوم عطلة! هذا ما أزعج ترتيبات

الصباح الروتينية.

- أزعجت حتى صديقي.

- صديقك نائم.

- وأنت، لماذا لم تنبهيني؟

- لا يمكن، فأنا نفسي، أنسى ما تنساه.

- نبهيني على الأقل يا نفسي.

- إذا نبهتك سيعذبني الضمير.

- لا تهتمي له.

- هل ستنزّل لشراء الجريدة الأسبوعية؟
- سأفعل.
- لا تنسَ تلميع الحذاء وغسل أسنانك.
- نعم، لا، نعم نعم.
- لا يمكن أن تتخلص من اليوميات أبدًا!
- فظيع، كم تملكنا الأشياء!
- استسلم لها.
- لا أدري.
- «لا تدري» أيضًا من المسلمات والكل يقول «لا يدري» وينجو.
- أدري إذن.
- لن تنجو.
- اسكتي! بدأت أحدثك بصوت مرتفع، قد لا أنجو فعلاً، اغربي عن وجهي.
- اللحظات الأولى بعد النوم أيضًا متطلبة، خصوصًا إذا استسلمت للوسادة، تتمطط أوتارك وعضلاتك، تستيقظ عكسًا منفوش الشعر، تدخل يدك في سروالك القصير، تحك، تعدل وضع أعضائك، احترامًا لصديقك، يشيرك دفء لذيذ، يرفض الجسد الانحناء، ترفعه إلى الأعلى وتضغط عليه بحزامك، إبقاءً للاحترام أيضًا، واحتياطًا كذلك، فصديقك وعلاقته الغريبة مع الصور على الإنترنت لا تسمح بتجاوز حدود اللياقة.
- وإن كنت ساخطًا على صديقك إلى درجة الحقد، فقد تعمل غريزة الانتقام، تتف يدك شعرة من جسدك لتضعها مع الجبن في قطعة خبزه، وتتلذذ بعد ذلك بمشاهدته يلتهم فضلاتك.
- لكنك لم تحقد عليه أبدًا.
- ألم تغربي عن وجهي؟ حتى لو حقدت عليه لن أفعل ذلك.
- أسفة، يجب أن أتدخل فأنا نفسك.

- أكرهك يا نفسي.
- اكرهني، لكن لا تطعمني فروة بطنك.
- أوه! سأنتقم منك الليلة، سأدخل بشرهة وأسكر أيضًا.
- ستسكر؟ افعل أرجوك، أحب ذلك، على الأقل سأحدث كما أريد.
- تسارينني في أهواء رخيصة.
- طبعًا فأنا نفسك.

نزلت إذن لشراء الجريدة، وصديقي لم يستيقظ بعد، قرأت كوارث الصفحة الأولى، تأثرت كثيرًا، أخبار الجرائم، أخبار فلسطين، الكثير من الشهداء، جامعة الدول المتفرقة تندد، الدول الديمقراطية تشجب، وقبلت صورة إحدى ملكات جمال العالم على الصفحة الأخيرة.

- لا أدري لماذا يضعون صور الحسنات على الصفحات الأخيرة؟
- ليقبلها أمثالك.
- ستزداد المبيعات بسبب هذه الصورة؟
- لكن من يشتريها لا يرى الصورة في البداية، اللهم بعض المشتركين المكبوتين.
- صحيح.
- ألن تخرج؟
- بلى، سأخرج لأتمشى، أشتري بعض الأشياء وأتناول الغداء في المطعم وأعود.
- ستتناول طبقًا كبيرًا ومتنوعًا من السمك.
- صحيح، من أخبرك بهذا؟
- أنت.

- نسيت أنني فكرت في هذا البارحة.

- ارتدّ بذلتك الرياضية المريحة ومعطفيك، فالجو بارد.

أرتدي بذلتي الرياضية المريحة ومعطفي فالجو بارد، كما أنني أريد التخلص من اللباس اليومي، وعندما أعود أتصل بمن ترافقني هذا المساء، فالمساءات كثيرًا ما يكون لها طعم الجرح القديم،

خصوصًا حين تغيب الشمس بين أشجار زيتون لها أكثر من تاريخ، تلك الحمرة التي تسبب تعاسة لا مرئية تتاب الروح، وتنبش في الأعماق دون سابق إنذار، لذلك بعد العصر مباشرة يحضر المرء لاستقبال المساء البرتقالي، ويبرمج لقاءات وصدف تقيه حر الوحدة وتعينه على الارتقاء في أحضان ليل كحيل، تراجعت عن الفكرة دون سبب.

- اتصل بها.
- لكنها مسافرة.
- غيرها.
- هذه خيانة.
- وما فعلته البارحة أليس خيانة؟ أم أنها ضرورة جسد.
- ليست خيانة، فأنا ما زلت متعلقًا بها.
- متعلق بها، معلق إلى غيرها، هذا مضحك.
- لا تسخري مني، أحبها فعلاً، لكنها غائبة.
- وهي أيضًا ستخونك وهي بعيدة.
- لن تخونني.
- لا أدري تفاهة الجسد، كيف يمكن أن تحب امرأة وتمارس الجنس مع أخرى، كأنها حركات بسيطة، حتمية وضرورية أحياناً، فارغة من كل معنى.
- أنتِ اهتمي بشؤونك الخاصة ودعي الجسد وشأنه.
- تقمعي وتغرقه في الجنس كي لا يزعجك؟
- الجنس تعويض عن كل شيء.
- والكتابة تعويض عن الجنس، بمعنى كل شيء.
- لا، هذا خطأ، الكتابة تعويض عن كل شيء إلا الجنس.
- ماتت الأحاسيس داخلك.
- أهل مكة أدرى بشعابها، أخبريني أنتِ!

- الصمت حكمة.

الجسد متطلب جدًّا، يريد الغذاء والدواء، ويريد أجسادًا أخرى، الحياة قاسية جدًّا، فأنت تتعب وتعمل، لا تدري لصالح من، تظل تلبي طلبات جسدك دون جدوى، لا يشبع، يستمر في التسول إلى أن تلين نواياك فتلبي رغباته كيفما اتفق. الرغبة هبوة يرميها الجسد على النفس فيعمي بها المنطق، يختار يوم السبت على الخصوص، يهيج، تغرقه بالبيرة والسجائر والنساء، فيخمد حتى حين، تقضي يوم الأحد في تنظيف غرفتك، تجمع قنينات البيرة الفارغة، أعقاب السجائر، وملابسك الداخلية، المنتشرة في كل مكان طيلة الأسبوع، تحت السرير، فوقه، على الأرضية، فوق الزربية، على الكنبه، تختلط بالكتب والأوراق والدفاتر.

تحمل الملابس المتسخة إلى الغسالة، الأقمصة والسراويل على الخصوص، قد يكسرون بعض الأزرار، لا بأس، لن تحتج على ذلك، لا نملك ثقافة الاحتجاج، أما ملابسك الداخلية فتضعها في الطست تحت الصنبور وتفركها بعد أن تضع عليها مسحوق الغسيل تعلقها لتجف في أي مكان، على الأرجح على النافذة، في مجرى الهواء. ستتكفل تيارات الهواء بتنشيفها.

- لماذا تكتب هذا؟

- للتاريخ.

-ومن يهتم لملابسك الداخلية المتسخة والمقرزة، عرق ومذي ووذى ومني.

- أنت دائماً غبية، قد يأتي قوم آخرون للعيش على هذه الأرض وسيهتمون بالبحث عن طريقتنا في العيش والحياة.

- سيهتمون مثلاً بالمكان الذي تعلق في سروالك؟

- ولم لا؟ فأنا الآن بي فضول لمعرفة كيف يتغوط الفرعون المصري، وأين بالضبط، وبماذا يمسح مؤخرته، فلم يكن هناك

ورق صحي، أم أنه يستعمل ورق البردي، وكليوباترا كيف تحيض،
ودم حيضها ماذا تضع له.

يستيقظ صديقي فجأة، يزعج حوارى مع نفسى، منتفخ العينين
من شدة السهر، نظر إليّ بازدياء كأنه يكرهني، لم يقل صباح
الخير، دلف إلى الحمام، عاد منه فقال:
- صباح الخير.
- أهلاً.

عجيب! كيف ينعش الماء الجسد الكسلان؟ فالكسل يوجد فعلاً
تحت كل شعرة أم أن كل شيء وهم؟ صديقي يعيش وهمًا، تكفيه
ساعات أمام الحاسوب أو شاشة التلفاز ليجد معنى، هو يذكرني
دائمًا بديوجين اليوناني أمام الملاء. صديقي لا يفعل إلا أمام نفسه.
صدع كبير بيني وبينه كأننا من أجيال متباعدة رغم أنه لا يكبرني
إلا بسنتين.

- لست أفضل منه.
- طبعًا، فالفضيلة دفنت مع الأنبياء.
- قادتك الرغبة والشهوة إلى الخروج، وهو قاداته إلى الحاسوب.
- من منا استمتع أكثر؟ هذا هو السؤال.
- كلاكما أستمتع أكثر كل حسب منطقته، السؤال هو: من أنتج
أكثر؟

- من أنتج أكثر! من أنتج أكثر؟
- لا أحد، حيواناتكم لم تنم ولم تكبر، لقد ضاعت فقط.
- لكنه مريض بالوهم.
- وأنت أيضًا مريض بالوهم.
- الوهم هو السبيل الوحيد للعيش وإدراك وجودنا، وإلا فنحن

غير موجودين.

- والفكر؟

- وهم.

- وهذه الأشياء، الاقتصاد، السياسة، السلطة، الموت، الحياة.

- أوهام، أوهام، صدقيني كل هذه الأشياء وهم، لو قدمت لك شيئاً في كأس من فضة، وقدمت نفس الشاي في كأس من اللدائن، فستجدين الأول الذ من الثاني وهذه ليست حقيقة، ليست حتى واقعاً.

- حواسنا تخدعنا.

- هذه حكمة قديمة، نحن مخدوعون من رؤوسنا حتى أخص أقدامنا، تقدم لنا النماذج جاهزة ونحاول بلوغها، نتعب نضيع وقتنا، وعندما نصل إلى النموذج نجد أنه ظل، خيال، صورة قديمة، صبغته مخيلتنا بالأوهام المترسبة عندنا.

- لا أحب هذه الأفكار.

- لأنها تؤلمك، فأنت الآن تعتقدين أن سيارة فخمة يمكن أن تسعدك، لكن عندما تحصلين عليها، ستبحثين عن أحسن أنواع السيارات، وستتوقين إلى طائرة، يخت.. وتتابع الأوهام هكذا إلى نهاية لا تسر.

- وصديقك هل هو وهم أيضاً؟

- ربما هو وهم خلقته لأنتقد تصرفاته الغريبة، حتى أني سأسميه ديوجين من الآن فصاعداً، وبذلك أكون قد تجاوزت حقيقة كونه أنيس المؤنس، وأصبح ديوجين الوهم.

- ديوجين بدل أنيس؟!

- هو أيضاً يوهم جسده ويمتعه بالأوهام والصور، أصبحت حياة الناس كلها صوراً عن الأشياء وليست أشياء.

- هذه حكمة قديمة أيضاً.

- لكنها صحيحة، فأنا مثلاً أنتظر عالمًا حقيقيًا أعيش فيه، لحد الآن لست مقتنعًا بما يحدث، فما يحدث غريب، الناس يموتون بدون سبب، الحروب كثيرة، الأموال كثيرة ولا فائدة منها، العدالة لم تتحقق، بعض الكتب تقول لنا أن نتزوج ونكوّن أسرة ونعاشر زوجاتنا فقط، ولكن ما هو موجود أننا نتزوج ونعاشر غير زوجاتنا، وربما الحيوانات والصور والأفلام، فنحن لسنا صادقين، نحن واهمون.

الناس مُسرّعون، مندهشون، منبهرون بكل شيء، الناس فارغون، مغبونون، ويعجبهم كل شيء، والعجب من عجبهم أكبر، الناس يتفرجون، يشترون، يستهلكون كل شيء، الناس يتهافتون، يتنافسون، تافهون، الناس إطارات فارغة، إنهم ليسوا حتى إطارات، هائمون، يتناسلون ويتكاثرون، وبين هذا وذاك يثرثرون، يقولون كل شيء ولا شيء.

إنها المظاهر الزائفة، وحتى عكسها زائف، الإنسان فقد جوهره، لم يعد إنسانًا، أصبح مجرد رقم في شركة الاتصالات، التأمينات، زبون في متجر، ربما الزبون الأوفى، لكن سيكون رقم واحد كما قد يكون رقم المليون.. من قال إن إنسان العصر الحجري ليس سعيدًا، ستقولون إنه لم يكن يعرف الكثير من الأمور، إنه يعرف ما يكفي ليبقى على قيد الحياة، والإنسان الآن يعرف ما يكفي ليبقى قيد الموت. الإنسان مغرق في التفاهة، كلما عرف شيئًا يكتشف أنه لا يعرف أشياء، كلما ارتدى ثوبًا -مهما كان ثمنه- سيخلعه يومًا وستبقى قيمته في حدود ثوبه، مهما قتل عضلاته ستترهل يومًا، وستبقى قيمته في حدود عضلاته المترهلة، مهما كسب من مال ستبقى قيمته في حدود ثروته.. فلم التشبث بالأثواب الباهظة الثمن، والأشكال المحددة؟ مهما عاش من حياة ستبقى حياته في حدود أيامه، هناك إذن حدود.

رجل يعد الملايين والآخر يعد الدريهمات، بنفس الطريقة، رجل يرتدي الحرير والآخر يرتدي الخيش، يستران نفس العورة، رجل يركب سيارة والآخر دراجة، والعجلات تدور بنفس المبدأ.. في كل شيء يشبعان نفس اللذة.

- هل تناولت فطورك؟

- نعم (ديوجين).

- أترين كيف أنافقه؟ فأنا لا أعيش معه الحقيقة أقول: نعم

بصوت مسموع وديوجين في صمت.

- لا يهم، أفضل ألا تجرحه فهو لطيف، انتبه إنه يحدثك.

- ما هو برنامجك اليوم؟ ستخرج مع ماريا؟

- لا فهي غير حاضرة، إنها في طنجة، ما هي الأفلام التي شاهدها

البارحة (ديوجين)؟

- يا لك من خبيث! تسأله عن الأفلام، لن يجيبك بصراحة،

كدت تقول ديوجين، انتبه.

- لم أشاهد أي أفلام، أنهيت أوراق المشروع وهو الآن في صيغته

النهائية، اطلع عليه فربما تكون لديك ملاحظات.

- لا أنا لا خبرة لي بالمشاريع، لست سوى...

- لقد قمت بعمل أسبوع كامل ليلة البارحة، انظر هذه واجهة

المبنى و...

- أترين؟ إما أنه يكذب وإما أنا واهم، هو لا يكذب فعمله

واضح ومؤرخ، أعني أنيس لم يشاهد فيلمًا أو مسرحية، أنا فقط

صغت هذا العالم في ذهني، فسواء كان يكذب وكنت على حق

أو أنني أتخيل، فالكذب والخيال ضروب من الوهم، إنه يتحدث،

دعيني أستمع.

- ولا تنسَ بعيدًا عن أعين السلطات، سأعرض في هذا المركز

السينمائي أفلامًا للشباب، تعرف ماذا أقصد، أفلام من النوع

الذي... أنت تعرف، وستكون المداخل مهمة.
- أوهام، أوهام، أوهام يا نفسي أكاد أنشط نصفين، أين الحقيقة؟

- لم أنت ساكت، لا تتفق معي، عندما تهطل عليّ الأموال كالأمطار ستنتفخ جيداً. ستتكلمش مبادؤك وتضمحل ينابيع الشرف التي ترويك ولن يبقى لك إلا أثارة من ذكريات بعيدة لا تستطيع مسكها لتطعم منها أهلك وولدك.

obeikandi.com

اسكت ديوجين، لا تذكر الأمطار، فأنت لا تدري معنى هطول الأمطار، وتلك السمفونية التي تعرفها قطرات المطر على سقف الخيمة البلاستيكية، فأنت حين تعيش انكسارًا عبثيًا ترتبط لديك الأشياء بمعانٍ من الذل والخوف، فتصبح قطرة المطر حتى بعد خمسين سنة رصاصة تنغرز في عمق الألم، إن كلام ديوجين يضرب في العمق ليس فقط لأنه شريكي في السكن بل لأن الفترة التي جمعتنا صنعت منا ذاكرة واحدة من قوة التكرار والحي، كلكم تافهون، وتلك المرأة تقول إن طيفها سحرسني، وإذا كانت الأطياف تحرس، لماذا لم تمنع الأعداء من مهاجمة قريتي؟ وتالوين ليست جميلة، تألفت فقط لاستقبالك ذلك اليوم، يحدث أن تكون الأماكن عنصرية الطبع.

ذات زمن سارت بنا الأيام إلى هناك، حيث أخوالي، للإقامة عندهم إلى حين بناء منزل جديد في دوار المهجرين، الدوار الذي أصبح فجأة عنوانًا لرواية من الروايات الحزينة من نوع «رجال تحت الشمس» لغسان كنفاني، «عودة الطائر إلى البحر» لحليم بركات و«كوابيس بيروت» لغادة السمان، و«المبعدون» لا أدري لمن، لم تكن إقامتنا عند الأخوال مريحة، الواجب يفرض عليهم استقبالنا، الواجب فقط. هذا الواجب أيضًا كان وهمًا، سرعان ما عدنا إلى الدوار الجديد، غرفة واحدة مغطاة بالخشب والدوم أحفظ لكرامتنا من المكوث عند الآخرين مهما كانوا مقربين، ومهما سعوا لإرضائك أو بالغوا في الترحيب بك.

الإلحاح في الترحيب يشعرك بوضعك الاستثنائي بينهم، وبلزوم المغادرة في أقرب فرصة.

الأرض الجديدة أيّصًا ترفضنا، فقد كانت تثبت العقارب والشعابين أكثر مما تثبت الزرع، تربتها لا تصلح للزراعة ولا للبناء، واضطر الجميع للبناء بالحجر والأسمنت، وهذه فضيحة أخرى.. من يحمل عنا بعض أوزار الوطن دعونا نكبر في سلام ونغني الأناشيد الوطنية كجميع أطفال العالم، تكالبت علينا الأقوام والأحجار.

في البداية سكنا مع بعض الجيران، كل الجيران في شبه بيت واحد، به غرف منفصلة من البلاستيك والقصدير والقصب، نحن الأطفال كنا ملتصقين، عندما يبول أحدها تلتصق التهمة بالآخرين. في غرفة واحدة، تراقبنا أمي لأنها الأرملة الوحيدة، هنا بدأت خبرتنا في الاحتكاك بالآخرين. فبعضهم بلغ الثانية عشر من العمر، وهي لم تكن طفولة في الوسط الجبلي، بل أكبر من ذلك بقليل، المهم أن السردين في علب التصبير التخلييل أفضل حالاً منا.

والحدث الذي احمرت له الأوجه وتعالّت بوخزه الضحكات وانكملت الأعين بالغمزات وأفيضت الهمسات والنكت، هو حين رفضت جارتنا رقية مناداة زوجها للفراش، كانت المسكينة منهارة، منهكة بالعمل طوال النهار في جلب الحجارة والمياه للبناء، تحمل ضعف وزنها ثلاث مرات فصبت جام غضبها على زوجها بصوت مسموع.

- ابتعد عني، تريدني حمالة أثقال بالنهار وبالليل.

وفي دواخلي حزنت للاثنين، رغم أنني اعتقدت -ساذجًا- أن الإنسان المقهور لا يفكر في أمور الجنس، إلا أنني انتبهت إلى أن الجنون كان أقرب إلينا من حبل الوريد، ولا سبيل إلى دفعه إلا بالحب، بين عواصف القهر ولجج الظلم وآلام الجوع وقساوة البرد، تحتاج الرجولة محطة تجريب ليس إلا، على الأقل للتأكد من دافع للحياة، من مؤشر على الاستمرار، وهذا الرجل كأى ذكر، حين يحل الظلام يحتاج إلى ثقب يفرغ فيه ألمه، لا عشقه، فالنساء لم تكن جميلات، عضلاتهن تضاهي عضلات الرجال، وبنيتهن مماثلة لهم، ولا يخفى على بني إنسان من لحم وأعضاء أنه حين تصبح الأنوثة في منتصف الطريق إلى الرجولة، لا نتحدث حينها عن الجمال والحب، وإنما عن قتل الرغبة ودفنها علّها تخبو مدة من الزمن، قتلها بحركات سريعة وعنيفة، مؤلمة ولذيذة أحيانًا. أما الرجولة حينها فتعلو أكثر فأكثر وتسمو سموًا يصعب معه القول إن الذي حافظ على حياة أولاده ليس سوى رجل.

الرجال في المخيم عضلاتهم صغيرة وقوية بعروق بارزة جدًا وكثيرة. عظام وجوههم ناتئة وأعينهم غارقة في حفرة.

في مخيمنا هذا تحول الجميع إلى حيوانات ضروس في محاولة عيش، مؤثر الإنسانية انخفض رغم أن الجميع تلاحم وتعاون، إلا أن هذا التعاون سببه الحاجة إلى الآخر، واستحالة الخلاص الشخصي.

المرأة التي تمارس عمل البغال نهارًا كيف لها أن تتحول حورية جبل ليلاً.

لا أعاتبها، لكن الرجل الملحاح في الليلة الموالية جعلها -غدرًا- تستسلم له، تحت ضغط الرجولة، لا يمكنها أن تنسحب من لعبة الجسد، القدر عاقبهما فيما بعد بحمل غير متوقع، وهذا سبب تخوفها منذ البداية، فانشغالها بحساب عدد حبات القمح أنساها حساب دورتها الشهرية.

لا يمكن الاحتفاء بالحياة في مكان مُعدّ للموت، أنجبت الطفلة أو تبرزتها، قذفتها بعنف، سيان، أرضعتها، نظرت إليها بحب شديد فهي أم، عصرت ثديها بقوة، لكن لا شيء، ثديان كالفلفل المشوي كانتا.. نظرت إليها مرة أخرى بحنان زائد تعوض به خيبة أملها في حليب الرضاعة، انكسار أم هو ألا تجد حليبًا يسمن وليدها، أرضعتها حليب العنزة الذي أحضرته أمي، رفضته الطفلة. فتحت عينها نظرت إلى الجميع في ذهول واستسلام، خافت من الوجوه المتجهمة المترقبة، وأسلمت روحها، جاءت غدرًا وخطأً ورحلت كذلك. فعلت صوابًا.

سميتها «تودا» آنذاك بيني وبين نفسي، وجعلتها أسطورة ورمزًا للا مبالاة بالحياة، هي لم تبك كثيرًا، كانت هادئة ومستسلمة، شبه مبتسمة، شهيدة المخيم، هي ستعود حتمًا، إطلاقتها القصيرة دليل على أنها ستعود، صمتها، صبرها، نظرتها كجميع الأساطير ستعود، ستظهر يومًا ما، في زمن آخر غير زماننا، في مكان آخر ليس هنا، «تودا» استخفت بأسلوب وجودنا فرحلت قائلة: كفى، وداعًا. «أم حياة تمد الردى بالدموع؟».

لا أدري، لا أدري، حقيقة لا أدري، كل شيء أكبر من فهمي، لا يسع حزني إلا شعر شاكر السياب، ف«تودا» تظل تردد في داخلي بذلك الصدى الكئيب والاستهتار العام بالوجود:

«نزع ولا موت

نطق ولا صوت

طلق ولا ميلاد».

أي زمن هذا؟! إذا رغب رجل بزوجته تحدث المأساة، تستيقظ

الأساطير القديمة تلفه تحبك ضده الأقدار، تخرج مسرحية..
كوميديا بداية تضحك أطفال المخيم وشبابه، ثم تراجيديا تنطبع
في ذاكرته إلى الأبد، كل هذا من أجل قطرات تلح على الخروج
في لحظة معينة، جعلها الزمن الغادر لحظة شؤم، لو فطن
الأب المتعب إلى هذا السيناريو السخيف قبل الإخراج، وارتقى في
أحضان أول نسمة نوم أو غفلة، وقتل الجسد العفيف في حضن
آخر لضحك بلؤم على هذا الزمان.

حارس الغابة كرهنا مجاًناً، لا ندرى سبب ذلك، لباسه شبه العسكري يخيفنا، متعجرف، اعتدنا وجوده في الغابة المحيطة بنا، لا يحرسها تماماً، فشاحنات محملة بخشب العرعار والأركان وحيوانات الغابة تمر أمامه ولا يمنعها، القانون الذي يحمي أشجار العرعار لا يسري على كبار التجار الناهبين للملك الغابوي، معامل نجارة ضخمة تحت تراب أولوز لا يعلم أحد بوجودها تصدر ديكورات وتذكارات السياح بمدينة الصويرة، وأثرياء الولايات المتحدة الذين يستمتعون بصيد الحيوانات البرية من حجل وأرانب وغزلان، من أجل دفع الاكتئاب الذي يعانون منه بسبب التهمة الشحمية، وعذاب الضمير. يمنع فقط جدة تحمل حزمة الحطب على ظهرها، يخرج من بين الأشجار كالجن، يجعل المرأة العجوز تتوسل إليه وتقبل يديه ليسمح لها بالاحتفاظ بحزمة الحطب، (الحطب ليس إلا من شجر الأركان وأشواك الحلفاء)، وعدم الزج بها في السجن، تقدم له ورقة نقدية من فئة عشرين درهماً، يرفضها بحجة أن غرامة الاعتداء على الملك الغابوي باهظة الثمن، تدفع له عشرين درهماً أخرى وهكذا. الفقر المدقع يمنع الناس من شراء قنينات الغاز، وحارس الغابة يمنع عنهم الحطب، هذا يعني أن الوطن يريدنا متوحشين، نأكل الطعام النيء. تكالبت علينا الأقوام.

قبل مغادرته المنطقة، أقبل حارس الغابة على دفع التقارير لمصلحة استخلاص الغرامات، فتوالت الغرامات كاللعنات على الأهالي، واحداً تلو الآخر، لم يسلم حتى من هربت دجاجته وتجاوزت الملك الغابوي، كانت هذه آخر طعنة من هذا الرجل القاسي، الغريب في قسوته، فقد كانت ينتظر منه التعاطف مع

المهجرين ومساعدتهم ، لولا مغادرته في أسرع وقت لما استطاعوا جمع أشلائه من فوق نبات الصبار، فقد توعدّه الكثيرون واتفقوا على قلته، رسموا خطة لذلك. هذه نتائج التوحش الذي زرعه بينهم، خصوصًا عندما حاول الاختلاء ببعض الأطفال في الغابة. لقد هممت بكتابة رواية عاطفية ولم أرد لمثل هذه الشخصية المقززة الدخول إلى صفحاتها ولكن القلم يكتب بصدق لا يحيد. كان شخصًا لا يوصف بكلمات اللغة بل بصرخات من الشارع وأقبح كلام قد تصل إليه عبقرية المشردين في إنتاج الشتائم والسباب. كان كلبًا أجرب، كان أحمر الوجه من أثر البيرة وأنواع النبيذ كالخزير في حظيرة المستعمرين، كما يصفه الناس الذين عاشوا فترة الاستعمار.

كياني يصر على لقاءك، هل تحتاجيني أم أحثاك؟ هاتفك عدة مرات لكني لم أجرؤ على إزعاجك أو أطلب منك العودة، كانت بيننا تلك الرغبة العميقة في اللقاء، ولأننا لا نريده عاديًا بقي مؤجلًا مدة طويلة، ترى متى سيكون لقاءنا القادم، من سيتحدث أكثر؟ بلد لست فيه لا حاجة لي بجنسيته.. أنا متسول حب.. غجري الهوى.. أنتِ انتمائي.

أكيد سنلتقي لكن قد لن نقول شيئًا، وسنظل ننظر إلى بعضنا بعض، فالبعد خطير يخلق بين العاشقين غربة كالهواية، ويصنع من رواسب الشوق حاجزًا كلسيًا بينهما، لكن تكفي ذكرى واحدة لكسر زجاج الصمت، لا لسنا من هذا النوع، سنلتقي ونبدأ الثثرة منذ اللحظة الأولى، وبعدها نعيد ترتيب الأشياء، فأنا وأنت لدينا تلك القدرة العجيبة على التحدث في أربعة مواضيع دفعة واحدة، دون أن ننسى التفاصيل، إنها مهمة جدًا يا حبيبتي.

تحتاج إلى هذا الحب، هذا النوع بالضبط.

الذي يجعلك تحدث الكواكب والمجرات، تخبرها بلوعته، الحب. الذي يجعلك تشعل عيدان الثقاب واحدًا تلو الآخر في فصل الثلج لا لتدفي نفسك كأمير الثلج، ولكن فقط لتستمتع بنور وجهه لحظة زمن قصيرة بعد أن أشعلك العشق نارًا متوهجة، الحب. الذي لا يثقلك ككوايبس منتصف الليل، بل يداعب فؤادك كحلم يقضة ممزوج بالزعفران، الحب.

الذي يمنحك فرصة التعبير، الوجود، الامتداد، ويجعلك تتوقف في محطات معينة تعالج فيها سيارتك لتتطرق من جديد في دروب

حياتك، دون أن تقف مطولاً.
نحتاج إلى هذه الحوارات، إلى اختبار الذكريات.

استيقظت في حالة مزرية، وجب أن أنظر في اليومية لأعرف اسم اليوم وموقعه من الشهر، احتجت خمسة عشر دقيقة للقيام عن السرير، أحسست وأنا قائم بشيء صلب لمس قدمي، إنها رواية دخلت فراشي الليلة، قرأت منها ثلاث صفحات، بداية قصة حب وغيره بين صديقين وامرأة، أنا أعشق الحب الذي يصهر أكثر من جسدين حيث أضلاع المثلث المتحولة تطول وتقصر حسب درجة حرارة الحوار. بتلك الزوايا التي ستتكمّل لتعطي رقمًا واحدًا لا أكثر، حيث المرأة تسوس الحبيين وتزن بالذرة مثقال العشق، تخطئ المرأة دائمًا -أو لنقل غالبًا- حين تدخل بين صديقين وتعتقد أنها ستفوز بهما معًا.

تذكرت قصتي، كل تلك الحوارات انتهت بعد أن رحلت، النهايات التعيسة للحب أو فترات الفتور الباردة تجعلك تستمتع بلذة أشياء أخرى خلقت كتعويض، فقبلها لم أكن أستمع إلى محمد الحياتي وهو يغني «راحلة».

«تري ترحلين، في لهفاتي ولحني الحزين».

الرحيل أبيض، المناديل والوداع وآخر قطعة سكر في الفجنان الأبيض غير القابل للتكهن، فقهوته بقيت مرة كالحنظل رغم التركيز المبالغ فيه على حلاوة الكلمات الأخيرة، برودة رخام المطارات تسللت للذوات، يمكن أن تضمن وفاء الذاكرة للحنين ولكن كيف تضمن وفاء الجسد للجسد؟ الوجوه الغريبة كل الوجوه غريبة. الوداع احتياط ضد الخيانة. الطائرة تنفث دخان الفراق في الساعات الأولى.

انسابت الألحان من الراديو كما ينساب شعرها، تحب أن تجمعها

إلى الأمام على كتفها الأيسر، تمسده بيديها الناعمتين، هل يمكن أن يحدث هذا فعلاً؟ لكم أحببتك ماريا! ما كان عليك أن ترحلي، حتى أتوه أكثر مما فعلت بين خصلات شعرك، أعترف متأخراً بأنني أحببت وجودك المبهر دون احتمال غيابك، كان يجب أن أفعل أشياء كثيرة بعينيك.

غبت إذن.

تركتني في مواجهة المدينة.. تارودانت.. ها أنا ذا يا مقبرة الأحلام، احضيني بأسوارك البنية الدافئة، أدخليني برجاً من أبراجك، قصبة من قصباتك، فما أحوجني إلى حضن مدينة بدفئك وغموضك وقلقك، حضن مدينة في صورة أثني يسع غيابها. أكتشف ضعفي حين أحتاج مدينة تحضني بدل امرأة.

بدأت أتعاطى مخدرات لا تستهويني، فأنا عبد الكلمات، وأنت عبدة اللون والإضاءة والتاريخ والعمارة والأثاث، تحويلين العشرات من القصبات والأبراج إلى فنادق، اختصاصية ديكور، تحويلين كل ركن إلى فضاء شاسع، حولي ذاكرتي المثقلة بالهموم إلى ركن من أركان حبك، واقبلي قلبي قنديلاً مشتعلاً بوقود دمي، ما دام الأحمر الآجوري لون الجدران المفضل لديك، ها هي تارودانت ستلهمك، اجعليني غرفة أمازيغية، لكن استقري فيها ولا ترحلي.

في تارودانت فقط تحس بالوجود. السور دافئ وندى، زخات مطر حنونة وجولة من المحطة إلى البيت على الأقدام تعيد إليك روحك الفرحة. رائحة السور المبلل بماء المطر تدلك. السماء تبللك. وصديق كنت تنتظر رؤيته في المحطة وإذا به يعتذر من تحت غطائه الثقيل. صديقك الشاعر كان ليجعل جولتي أجمل لو حضر ليلقي على مسامعي قصيدة درويش.. الجميلات هن زخات المطر.

«لمن سأغني».

بقيت طول اليوم في غرفتي، أستمع إلى الموسيقى، يونس ميكري،
إزنزارن، ناس الغيوان، سيلين ديون، وموسيقى هندية ويابانية
أطرب لها بعيداً عن المعنى، رقصت أيضاً، أخطأ من قال إن
الإنسان لا يحتاج إلى الرقص، رقصت كقائد قبيلة إفريقية في أعماق
الأدغال، رقصت ببداية؛ جعلني الحزن والملل كالقرد. دخت،
شربت، وكتبت كثيراً، يا لها من طقوس تخلقها الوحدة والجدران
الأربعة وباب مقفل بإحكام! فقد يرميني ديوجين بالحمق.
حبك إذن جعلني أرقص كحيوان استوائي في موسم التزاوج،
كحشرات الربيع لا همّ لي سوى الأكل والرقص والنوم.
وكان لي في تلك الليلة حلم جميل.

أجلس قرب العين، أنتظر بشغف حضورها، ماء العين بارد،
عذب، كأنه نابع من جنة، حصى صغيرة ملونة تتلألأ في القاع،
بعض الأسماك الصغيرة التي لا أعرف نوعها ولكنها نهرية لم ترَ
البحر قبلاً وكبرت في ماء عذب زلال، تسبح حين يخفت الضجيج
حول العين، وتختبئ بسرعة بين الصخور عندما تستشعر وجود
أحدهم.

أجلس في صمت أراقب الأسماك في تماوجاتها، حلازين الماء
تلتصق بالصخور.. أنتظر.

نسيت الانتظار أمام هذه المشاهد الخلابة في جزء صغير لا
يتعدى مترين مربعين، آلاف الأشياء تحدث، هدوء المكان واستكانة
الأسماك جعلاني أنساها. أصبح كالأسماك في دنيا التأمل المريح،
تأمل أشعري بعشية الانتظار، فلتحضري أو تغيبني، لم يعد يهمني،
حتى أنني لست من ذلك النوع الذي ينتظر بفارغ الصبر دون أن

يستمتع بالحياة المتدفقة من هذا النبع المائي، كلما رأيته أخلع ملابسي كأني مقبل على مغامرة جنسية، داعبتني المياه من جديد، لاعتبني، أوقعبني، قدت قميصي من دبر ومن قبل، السباحة تحت ضوء القمر طقس لذيذ، أخيراً منحني الوطن سويعة هدوء وجمال.

خرجت سمكة من قاع النبع وقدمت لي ورقة مكتوب عليها «اللحظة التي تعتقدها أقل أهمية هي التي ستحدد مسار حياتك، انتبه لهذه اللحظة الخطيرة لأنها تأتي وأنت غائب عن نفسك، لا تقبل التفاحة».

تذكرت قولة صديقي: «إذا قدم لك الوطن تفاحة فاحترس فقد يخرجك من الجنة».

انتهى الحلم.

يا له من وطن لا يحب إلا في جنح الأحلام!

نمت جيداً ولساعات طويلة، أخذت مذكرتي وقرأت ما سطرته البارحة «الفكرة التي تعتقدها تافهة وبسيطة تسيطر عليك أحياناً إلى أن تعدو لحجم الكون، والكون حين تفكر فيه ببساطة يصبح مجرد فكرة قابلة للتغيير بسهولة، احذر القلق فإنه فكرة مسيطرة، اقض عليه بحبة دواء واحدة، أثق كثيراً بفكر الإنسان، لقد استطاع حصر أهوال القلق في حبة واحدة كالقمحة».

تناولت قرصاً منوماً إذن، لا أستغرب نومي الطويل، لكنه كان حلمًا جميلًا، أين التفاحة؟

- آلو، ماري، كيف أنتِ؟

- بخير، صوتك غريب.

- إنه النوم.. لا تناولت قرصاً منوماً فقط.

- اعتقدت أنك تخلصت من هذه الحبوب.

- لم أستطع النوم، غنيت، رقصت، شربت، كتبت، ولم أستطع

النوم. أين أنتِ؟

- أنا في الجنوب.

- ماذا تعنين، في الجنوب؟

- في تارودانت.

- سنلتقي إذن.

- طبعًا.

obeikandi.com

عدتِ إذن.

اشتقت إليك أو I miss you، هذا ما سأقوله عندما ألتقي بك مباشرة، أي اشتقتك، فرحت بلقائك، هذه أيضًا جملة استقبال، لكن قد أقول غير ذلك وأفاجئك بجملة أكبر من معجمي الخاص وأقول: أحزنني غيابك، ولو فكرت قليلاً وتذكرت كرهك لمعاجم الحزن لقلت: غبت طويلاً، قد تفهمين أنني نسيتك، لذلك قررت أن أسكت وأترك لك الكلمة الأولى.

ظهرت إذن.

تلبسين الكعب العالي، وفي مشيتك شيء من الارتباك أو زائد من الأناقة، تحملين رائحة البحر الأبيض المتوسط في عينيك، شيء من طنجة يسبقك، شعرك مرفوع إلى الأعلى، تسريحة جديدة، خسارة، أقصر من الأولى.

اقتربت إذن.

أحمر الشفاه لم يعد أحمر (ماكياج ما بعد حداثي) شيء من البني والنحاسي، وأيضاً على العينين، ارتعشت أهدابك، ماسكارا ثقيلة شديدة السواد (أو الزرقة)، أين عيناك؟ وأخيراً بعد طول انتظار، ابتسامتك الأولى.

جلست إذن.

دون انحناءتك الأميرية، دون أن تنتظري وقوفي لجر الكرسي، رميت قبلة خاطفة على خدي الأيمن وجلست، قميصك الأزرق المخطط يمنع كل شيء، فلا مدى ولا امتداد، تحملين تحت إبطك الأيمن ملفات كثيرة، تغيرت، أينك أنت، عرفت غيري، نسيت حي.

تكلمت إذن.

«أنير طال فراقنا» فهمت أنك نسيتني، أنا الذي صمت حذرًا من زلة لسان، رميتني بآخر احتمال، وكما لألتقط عقيق الكبرياء المبعثر قلت مجيبًا «طال غيابك»، الكلمات القليلة الأولى بعد الفراق أخطر من أن تفهم أو تقال بعفوية.

كل هذا المكياج لتقولي انتهى كل شيء؟

قولها مباشرة سيدتي الجميلة.

لا تخافي، ما عاد في القلب شيء قابل للانكسار، وضعت اللمسات الأخيرة، مرحى لك، أنا أنية فخار، ابحي لي عن زاوية نصف مضاءة كي لا تقلقك نظراتي.

قولها مباشرة سيدتي الجميلة.

أصبحت تتأبطين المشاريع وتدعين أمر الماكياج والتسريحات للصالونات، ليرتبوك ويرسموك كما أراد هو، لا وقت لديك تضيعينه على التفاصيل المؤتثة الأخرى.

- ماذا تشربين سيدتي؟ قال النادل.

- قهوة سوداء.

- وأنت سيدي؟

ماذا يشرب رجل أحلام أمام امرأة أعمال حطمت مشروعه

العاطفي، وباعت أسهمه الحميمة؟

- كوب ماء من فضلك.

صديقي.. أرجو أن تحضر الآن لتقرأ الفناجين ورموز الألوان، لترى سواد القهوة وصفاء الماء، لو كنت مكاني لطلبت حليبًا في موقف كهذا، موقف يتطلب السير عكس اتجاه الحواس، لكنك تعرف أنني أحب التزام الحياء عند النهايات، كنت فتى دون مشاعر الشفقة دون أحلام المراهقة، لم أصرخ لحظة التهجير، لم أبك موت الجد، لا انفعل كثيرًا، لا أطلب الكثير، أعمل فقط، أعمل وأدرس، أعمل وأقرأ كثيرًا، لم أزعج أحدًا طيلة حياتي، أتنازل دومًا عن

حقي مقابل السكينة والهدوء والصمت، ما أجمل الصمت! لا أحب غناء العصفير ولا هديل الحمام، أحب الصمت المحايد الذي يجعلك تنظر داخلك وتسمع كائنات عالم آخر، كبرت معي هذه الكائنات، لاعتبني منذ الصغر، وحدثني في عالم موازٍ لهذا العالم، عالم الروايات.

سيدتي كوني صريحة، قولي كل شيء، استلهمي الصفاء من كوب الماء ليكن القدوة، وأبعدي عن عينيك سواد القهوة. جلست إلى اليمين وبقيت أنا إلى اليسار، لا أحد مقابل الآخر وجدار مقهى «ندى» المطلي حديثًا يستغرب طريقتنا الجديدة في الجلوس، لا تستغرب يا جدار الخديعة، أنت أيضًا غيّرت ملامحك. لا تخافي سيدتي الجميلة، ارتكبت صوابًا.

«أين عيناك؟

غارتا في قرار؟

وابتسامتك إلى احتضار».

فشلت، لا لأني فارقتك، بل لأني لم أضع في الحساب احتمال فراقك، فالحب يقاس بما تبقى منه، وأنا أضعت لحظاتي معك ولم أختزن في قلبي ذكريات تسليني في حالة فقدان.

غريب أني لا أتذكر جملك، أكانت عادية إلى درجة نسيانها؟ صحيح أني لا أحب في الأنثى لغتها بقدر ما أحب حركاتها، همسها، وتلك التفاصيل الأخرى التي تتقنها النساء ولو من قبيل إصلاح وضع حقيبة اليد.

كان عليك أن تتحدثي بلغة أجمل تصلح لرواية، حتى أستطيع في غيابك مغازلة كلماتك على ورقة بدلاً عنك.

لم تدمني أساليب الحكي مثلي؛ سأفشل حتمًا في إحاطتك بالعبارات.

كان عليك أن تتقني فن الكلام حتى أستطيع في غيابك أو تخليك

عني أن أكتب رواية أهدىها لذكراك.
صحيح أنه بفرقة أناملك الرقيقة توحين بألف قصة، لكني لم أفكر بالقلم في حضورك، فلأستمتع إذن بخساراتي الأدبية، أكتب احتمالات شعر لم تقوله أو حتى إمكانيات نشر، أنشره في ثيايا قصة قصيرة جدًا أفترض لها عنوانًا من قبيل «نوستالجيا الحب» كما قال هرمان هس «ليس لدينا من يوجهنا، قائدنا الوحيد هو حنيننا».

الحنين ذلك السفر عبر الأمكنة، من مقهى بكراسٍ غير خاضعة للجاذبية تمنحك لمسات بنفسجية وقبلات هوائية، مقهى بلون التراب يحمل عبق التاريخ وقلق الشعراء، إلى نفس المقهى بطلاء حديث، بكراسٍ حديدية ثقيلة، سوداء، تثبتك إلى واقع أكثر سوادًا، على زليج أبيض أملس تنزلق عليه الأحاسيس وترتمي خارج القلب. لا تستطيع أن تطير في مكان لا يصلح إلا للزحف. مكان بارد لحب بارد.

وطلباتنا أصبحت على رأس اللائحة، قهوة سوداء في فنجان أبيض، صرخة حادة تتبع من هذا التناقض القاتل، إنه الغباء، نص صيني مكتوب بحروف عربية، قد لا تقرأه أبدًا، قصد الاعتدال تطلب كوب ماء بدل عصير الليمون الحامض. كنت تتلذذ بخلط مذاقين، حموضة الليمون وحلاوة السكر، والآن تكفي باللا مذاق، وهي أيضًا تنكّرت لعصير الفواكه الملون، كل شيء واضح الآن، الحب وحده كانت له ألوان.

الآن.. حتى النادل أصبح يرتدي بذلة سوداء على قميص أبيض، وربطة عنق، فراشة سوداء، كل شيء بالغ الأناقة من أجل نهاية متوقعة تحضرت لها ديكورات المقهى ودهانها، النادل الأنيق والفناجين الجديدة، إنها النهاية المنتظرة، كل شيء حزين وجميل. كالموت كانت نهاية حبنا، استقبلناها بالأبيض والأسود، العالم كله يرتدي الأبيض أو الأسود حداثًا. وأنا أشرب كوب الماء، بقيت عاريًا من الألوان، ذلك أني لا أحب أن أحزن على غرار الآخرين. فضلت كوب الماء لأفكر في طريقة أرحم، أسعد، أجمل، أنهى بها حي لها.

لم أستطع ذلك، فأنا إنسان، على غرار الآخرين، حاولت ذلك عندما عدت إلى غرفتي، خلعت ملابسني، كل ملابسني، لم أرغب في ارتداء أي لون لكن دون وعي مني، أخذت قلمًا أسود وكتبت على ورقة بيضاء، الأبيض هو الحل، إنه لون الطفولة والياسمين، وحليب الأم وحليب عزائتنا، ولون أوراق التنازلات وكفن جدي والصغيرة تودا، لقد ربحت يا أبيض المصير، لكن لا تخدع نفسك فالصفحة مهما اتسعت لا بد لها من سطور سوداء، إني أكتب عليك أيها الأبيض الحقير بالأسود، منذ الحرف الأول حتى الحرف الأخير.

زهرة التوليب:

جاء محتضنًا باقة زهر أحمر بري، لأنه يكره ورود البيوت البلاستيكية، تعبيرًا عن حبه الطبيعي لها، جلس ينتظرها، طلب قهوة سوداء بدون سكر، انتظر، انتظر مرة أخرى، كانت أمامه زهرة توليب بلاستيكية تزين طاولة المقهى، تحدث إليها مطولاً، أخبرها لواعجه، مواجهه، تأكد أنها تسمعه جيدًا فقد كانت تنحني إلى الأمام فرحًا، وحزنًا تنحني إلى الوراء. نسي انتظاره، أخذ زهرة التوليب الاصطناعية ووضع مكانها الورد البري، قرر أن يحدثها كلما أحس بالوجع.

زهرة اللوتس:

«وأنا كأنا على مرمى نظر. أعاتب استقالة الفرح من الحياة، وأنظر صوب الوجود بنكهة الترقب والصمت، أضم بعضي إليّ في حالة أشبه بالوحدة، وأنام ملء الأرق أدواي ذكرياتي الجريحة، أضع الشاش لصورة انكسار القلب على مرايا الزمن بُعيد ظهور الحقيقة بقليل، أضغط على البثور المنتفخة خديعة، وأقشر بقايا حب مهزوم كي لا تتكاثر فيه طفيليات التكرار. أسوار قلبي منيعة،

كشجرة نبتت من هواء فلا جذور ولا أوراق تعانق الفضاء، زمن بارد
من الأوراق الصفراء والخريف، رؤى سراوية الأبعاد تؤدلج كالتاريخ
أعماقي وتفضح انتظاري مطر الجسد وهطول حبات السفر الأثيق».
يا زهرة اللوتس أجيبي دعوة الحنين، أحبيه.

obeikandi.com

الفصل الثاني أوراق الورد الحزينة

obeikandi.com

فليس الحنين ذكرى
بل هو ما يُنتقى من متحف الذاكرة
الحنين انتقائي كبستاني ماهر
وهو تكرر للذكرى وقد صُفِّيت من الشوائب
وللحنين أعراض جانبية منها
إدمان الخيال النظر إلى الوراء
والحرج من رفع الكلفة مع الممكن
والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماضٍ
حتى في الحب

الشاعر محمود درويش

obeikandi.com

في القرية..

لا شقائق نعمان ولا أقحوان، رحلات قهر وطنية تعترم الاحتفال
قسراً بربيع مزيف مصنوع من الورود البلاستيكية الفلبينية، الصمت
بالصمت، وشعب بدون حنجرة يصفق بمرارة مع توالي الخيبات.
وطن ملتوٍ كشبابيك الرياض الرومانية القديمة وأزقتها الضيقة
المظلمة. كواليس وجود بطعم حارق يتمسرح فيه بوعزيزي كل
يوم في صمت أقرب للموت، يحترق مجازاً بلا نار وينتج دخاناً
من الآلام. تاجر يبيع الوهم مخلوطاً ببعض الحقيقة التاريخية
المزخرفة بالعسكر. لك الويل؛ كيف تصنع من خبز الفقراء مهرجان
فرحك المزور، ومن كبد تلاميذك وجبات؟

باب المقبرة قصيدة يعلوها الصدا، أزيز قافيته بحرف الراء،
ذبحني كشاة قاصية عثر عليها مجرم في غابة الألم، قبر جدي
مسوى بالأرض كما طلب دائماً، تمتت فرد الصدى صوت أحزاني،
يا لهدوء المقابر!

أرواح تهمس في أذني: لو كان أهل المنابر، قطاع طرق الوطن،
سارقو أعطية زلزال الحسيمة، مدمرو القرى والمداشر، يزورون
المقابر لحد بطشهم، إن وجودهم المتواصل في القصور يجعلهم
يستخفون بالموت. فلتأتوا يا أصدقاء الموت إلى هذه القبور،
افتحوا صدوركم لنسيم الأماكن الغامضة! عليها تلين.

لم أبك يوم مات جدي، تلك كانت بداية مسيرتي، اقتنعت بلا
جدوى البكاء، فأصبح للموت عندي معنى أكبر، لم أكرث للحياة؟
تأملت طويلاً جثمانه، ماذا أبكي؟ موته أم رحيله وفقدانه؟
لم أبك، حين نبكي شخصاً مات، نبكي فقداننا إياه وابتعاده عنا،

نبكي أنفسنا، أما إذا بكينا موته فكأننا نسيء الظن به، افترضت أن
جدي صالح؛ فرحت له في داخلي، هكذا قاومت حزني.
لغة الدموع عميقة.. هناك دموع ضربات الباعوض الطبيعية،
كرد فعل بيولوجي، وهناك دموع فرح بمذاقها الحلو تكون قليلة
وتزين الخدود وتير الوجه.
وهناك دموع الحزن ثقيلة كثيرة متقطعة ومؤلمة وغالبًا تأخذ من
الروح ومن أعماق الحضور.

وهناك دمعتان سخيستان بلوريتان ماسيتان تسقطان دون سابق
إنذار دون سابق اعتذار، تختزلان ألمًا صغيرًا لحظيًا، لكنه عمودي
كماسور مركب شرعي. إنهما دمعتا الرغبة العميقة في فعل شيء
غير مقدور عليه، دمعتا الإعاقة والصمت.
أنا اخترت اللا دمع.

لحظة الفراق هي الأصعب، لا الفراق ذاته.
سرعان ما ننسى، نحن منافقون.
أوراق الورد حزينة وصفراء كتعبنا القديم المولود قبلنا بسنة
رملية، حين كان رمل البحر يستنجد من شدة مله برمل الصحراء
ليبادل قصص البحارة الغرقى بسرود البدو الضائعين. الموت
يحيط كل الحكايا ويفرض منطق البداية من أجل النهاية. ونحن
بيادق الوجود نضرب موعدًا مع الصمت في عمق المحيط ونشعل
الماء نارا ونحيل عظامنا غبارًا.

حين تهديك المقبرة هدوءًا وسكينة، أزعج نفسك برصد توازنات
الحياة البائسة؟ انطلق إذن إلى أشياء أخرى ولا تبحث في ثايا
اللحظات عن السعادة، اذهب إلى المقبرة فقد يكون ما تبحث
عنه متعلق بالنهاية.

قبر جدي لا رخام ولا زليج ولا بناء عليه، متخفف من كل

ما يثقل موت الآخرين، كما ترفع في حياته عن بطاقات أعضاء المقاومة رافضاً أن يهين وطنه بأخذ ثمن نضاله، لكن الوطن أهانه، حين ساوى بين المناضلين الشرفاء والمحربين وراقصات الفنون الشعبية، حين أصبح يمنح للجميع المزايا ذاتها ويعلق على صدورهم نفس الأوسمة، وكأنه بذلك يقول: إن تحريك البنادق لقتل الأعداء، كتحريرك الأرداف، وساوى بين المقاتلين والفنانات، إن الوطن لا يخجل، لا وجه له.

لماذا نزين القبور بالشواهد الرخامية، أليس لنقنع أنفسنا بالوفاء لهؤلاء الموتي، وما أدراهم إن كان فوق عظامهم صلصال أو رخام؟ نخدع أنفسنا، نصنع التواييت الأنيقة والشواهد الجميلة لطرد الآلام.

تصالحت منذ القدم مع الموت. ارتكبت صواباً.

طلب جدي أن نسوي رسمه بالأرض، علاقته المتينة بالتراب قبل موته ظلت بنفس المتانة بعد موته، تراب دافع عنه ضد الاستعمار الفرنسي، ضد السرقة الداخلية، ولكن عندما لم يستطع حمايته ضد سد ملعون وضد لهيب ماء حارق، (الماء يحرق التاريخ ويرمي أوراق الحضور بالغياب)، مات كمداً، التراب احتضنه بعد وفاته اعترافاً بالجميل، احتضنه في قبر صغير مسوى بالأرض، الجثث التي باعت الوطن وحدها يرفضها التراب.

كلما عدت إلى هذه القرية أبدأ زيارتي بالأموات قبل الأحياء، أتوجه إلى المقبرة إنها حديثه العهد، فيها قبور قليلة، فبعد ترحيل السكان من الدواوير التي غطتها مياه السد الملعون، اجتمعوا وحجزوا -كأول إجراء- مكاناً للمقبرة. وقد كانت مشكلة حقيقية حين لم يجدوا مكاناً لدفن الأموات، انتظروا إلى أن حضر أحد المتبرعين الصالحين المحسنين ليجعل أرضه وقفاً على المقبرة.

obeikandi.com

كان الناس يتخوفون من موت أحدهم ، بقي الجميع متمسكًا بالحياة إلى أن افتتحت المقبرة بجثمان الطفلة «تودا» الذي تم نقله إلى المقبرة، الطفلة التي عاشت أسبوعًا واحدًا وكان لها جنازتان، كأن القدر أراد لها الاستمتاع بالموت ما دامت فرص الحياة شحيحة. قبرها صغير جدًا تحيط به الحجارة، يقع في أقصى اليسار، معلنًا رفض الحياة، «تودا» التي كان ميلادها رمزًا يحمل اللا معنى، أصبح لموتها معنى أنجب الكثير من الدلالات على الأقل بالنسبة لي، لقد جاءت خطأ، وحتى عندما فضّلت الرحيل لم تجد مكانًا تغادر إليه، لم تسلم من مأزق الحياة، فلا ظروف الحياة كانت موالية لميلادها ولا ظروف الموت مُعدّة لاستقبالها، ولدت في شبه مخيم، وماتت في شبه مقبرة، وأخيرًا عندما وجدوا لرفاتها مكانًا أزعجوا استكانتها وذكروها بالحياة في جنازة أخرى. لن أنسى أبدًا نظراتها الأخيرة.

«تودا».. لا تحزني في قبرك، يا حمامة بيضاء تحلق في العلياء، فلتهنئي ولتسعدي لأنك لم تحملي هول اللحظات الأخيرة والذكريات الأليمة.

جنازتك الجديدة وطن نكفنه من جديد، ونقبره خارج قلوبنا، في عالم من الأثرية والدمار هو الوطن لا يستحق حتى جنازة جديدة مثلك.

يسعدني أنك وجدت مكانًا يأويك، عنوانك الأخير، على الأقل لك عنوان، أنت التي ليس لك اسم أو شهادة ميلاد يعرفك الجميع بشهادة وفاة ونظرة مستحيلة.

في وطن التناوب وزمن المؤقت والمؤجل لا يسلم حتى الموق

من الترحال من قبر إلى قبر، إنه شيء يجعل الآخرة أيضًا مستهترة، فهل يجبر الملكان على إعادة طرح الأسئلة؟ لا، ذلك ليس زمن الأسئلة المؤجلة.

إذن، «تودا» افرحي بقبرك الصغير الجديد، في زمن لا يجد فيه المرء مكانًا يموت فيه، زمن المقابر الجماعية، الجثث المحروقة، والأجساد المحشوة في الأكياس، وفي أحسن حال، إذا حدث ومِت في مصحة راقية يسرقون بعض أعضائك مباشرة قبل موتك. افرحي بقبرك الانفرادي. ارتكبت صوابًا.

إنه زمن لا يحترم خصوصيات الموتى ولا يراعي الحشمة والوقار، يتابعهم حتى بعد دفنهم بالتنكيل والسفر. حاصرني الوطن حتى زرت المقابر. يا لعنف المساطر!

«تودا».. إلى اللقاء، ابقِي على انتظار، سأعود إليك يومًا لأحمل لك أجمل الأخبار، سأقول لك مثلاً إن الوطن شفي من مرضه المزمن والتاريخي وعاد ليحضننا بقوة، إن حدث هذا فذاك، وإلا فسأعود حاملاً قصصاً قصيرة حزينة مليئة بالخراب، أسميها «نوستالجيا الدمار» أثبتها حواراتنا أنا وأنت، وقد أجعلها قبرًا من المقابر أدفن فيه الأمل وأرحل.

أرحل إلى مكان بعيد جدًّا، في زمان آخر، ولن تريني بعدها، إلا عندما يحضرونني مضطراً، إلى جانبك لأجيب بدوري على الأسئلة غير المؤجلة.

يجب أن نخدع القدر باتخاذ قرارات مضادة لمسارات الحياة العادية، عندما تتخلّى عنك امرأة، افرح من شدة حزنك لأنك ستعيش تجربة جديدة لن تتاح لك الفرصة أبدًا لتعيشها لو لم تتخل عنك تلك المرأة.

افعل الأشياء التي لا تبدو منطقية، تخلّ عن مبادئك واحدًا بعد الآخر، ستخسر كثيرًا باحتفاظك الغبي بأشياء محنطة، متحجرة، من قبيل مبدأ، خلق، عادة.. يا لكرهي للتحنيط! لقد خدع الفراغة أنفسهم بتحنيط الموتى، لا لشيء إلا لجعلوهم يعيشون موتًا على صورتهم في الحياة.

لذلك عدت إلى القرية.

عدت لأرتاح، لأفكر، ماريا التي أحببتها مذ وعيت الحب، تتخلّى عني في برود صقيعي قاتل، يجب أن أنسى وأن أحترم قرارها، فلتعش على طريقته الجديدة ولتكن لي حياة الذكريات الجميلة. القرية منعزلة، كأنها خارج الزمان، لها إيقاعها الخاص البطيء حدّ الجمود.

باقترابي من مدخل القرية، تنهافت الذكريات إلى روحي، نعم، شيء متصل بالروح لا بالعقل والقلب، هي الروح تشمم وتتواصل مع الماضي عبر هذه الأمكنة الغابرة، إنه الحنين، إحساس يتولد صورة بعد صورة، الأحداث لم تعد ترتبط بالزمان، بل بمورفولوجيا الأمكنة، أحن إلى المنازل الطينية القديمة المترامية الأطراف، لا يحدها سور أو جدار، الحضائر متصلة بالمنازل والمنازل بالبيادر، والبيادر تعانق الحقول والجبال، الآن بالضبط يتولد الحنين، حين أمد نظري، حين أصطدم بالمنازل الجديدة، علب كبريت مترامية،

أمامي جمع من العجائز يعملون على استخراج زيت الأركان، يدقون ويعصرون ثماره، خارج البيوت الضيقة، إنهن يرفضن هذه الحياة، يتشبن بعاداتهن القديمة مهما حصل.

أحن للسمع والرسائل، هذا الزمان ليس لنا، هذه الموسيقى تنتهي قبل أن أعتدل لأسمعها، هذه الأخبار تصنع الحدث ولا تنتظر حدوثه، كل شيء سريع، سريع حد البطء، حتى المشاعر تشتعل وتطفئ في حينها، كل شيء أصبح قابلاً للقياس، الحب يقاس بالكيلولايك. الحنين مسحوق تصبين لدى الروائيين، الفوضى محط اندهاش، البحر ما عاد يمتص الانكسارات العاطفية والقمر لا يلهم الشعراء، والمرأة القضية أصبحت خميرة انتخابية، وأشياء أخرى تخلت عن موقعها الدلالي وسافرت إلى أضدها، أحن إلى زمن اللا كهرباء واللا إنترنت، حيث كل شيء معد على نار هادئة.. أحن للسمع والريشة والدواة.

الحنين يدفع إلى التذكر وفي أحيان كثيرة إلى الاعتذار. تلك الأشياء اللطيفة التي حاولت فعلها فانقلبت إلى مأساة. الفراخ التي قتلتها في أعشاشها أثناء محاولتي إطعامها. النباتات التي بالغت في سقيها حتى جرفها الماء وتكسرت سيقانها. النملة الصغيرة التي ساعدتها على جر غصن أكبر منها فتركته وهربت.

ودودة الأرض التي أخرجناها من الطمي خوفاً عليها من الاختناق فعصرناها.

ولوحة المسيد التي بالغنا في تنظيفها فكسرها الفقيه على رؤوسنا. وحتى حجر الصلصال الذي انفلت من يدي وأصاب عين الفقيه، وكان سبب فلقتي الأولى.. وسورة البينة وحزب عمر.

وجميع الفتيات اللواتي أحببتهن وتخلت عنهن من شدة ولهي

بهن.

والكثير من الأشياء الأخرى.

الخواطر والقصائد التي كتبتها ورميته أو أحرقتها.

أعذر عن هذه الأشياء كلها.

دون أن أنسى المشاكسات التي كانت ضحيتها معلمتنا التي أحببتنا وتبنت قضيتنا كمهجرين، كأطفال في حاجة إلى الحنان قبل العلم. ذات نوستالجيا حين كنت بعمر الفرح، أجري بين أشجار الزيتون أقطف نبتة «طيرطا» ذات الرائحة الكريهة وأمسخ بها وجوه فتيات الدوار، ذلك أني أعشق مشاكستهن بلا استحياء. وكان خالي وقتها يعطينهن أهمية أكبر ويحدثهن تحت أشجار النبق المزيف ويكره أن أكون سخيًّا مع تلك المخلوقات اللطيفة.. لكن من جهتي أجده يبالغ في التصاقه بهن خصوصًا في فترة ما قبل غروب الشمس. حيث تبدو الوجوه شاحبة فلا يميز المار إلا ظلال الأجساد. أنا الآن معجب بخالي الذي دوخ فتيات القرية. وأكره نفسي أن لطخت وجوههن بنبتة كريهة الرائحة.

لا أدري متى أصبحت سجين ذكريات إلى هذا الحد، أسير وتسير بمحاذاتي أحداث الأزمنة الغابرة، صور ونسخ محفورة في الذاكرة. أحيانًا نكابر حتى نسقط تعثرًا بالمجازات. نسافر سرًّا إلى الحدود الإقليمية لبلاد الحزاني، نستشرف أحلامًا هلامية ونرتع في مرتفعات تدوخ من بؤسها الطيور. ثم نعود أدراجنا حاملين تجربة وقطعة من الوقت الضائع الذي لا بدل له، لأن لعبة الحياة لا تؤمن بالتعادل ولا بالأشواط الزائدة. أحتاج سكونًا بقلب هادئ، سكون عجوز يداعب مسبحته في انتظار صلاة العشاء، سكون جدة تفتل حبيبات السميد فوق السطوح، أريد أن أهدأ وأصنع من الوقت أمنيات أجمل.

سجين يبحث عن التحرر لا الحرية.

obeikandi.com

لست حزينًا على فراقها، بل حزين لأني لن أحب امرأة بقدر ما أحببتها، لكن من يدري؟ فقد يكون الحب أكبر مما نظن. رسائل مصنوعة من فتيت اللغة، ترتوي من هدوء القبور الرخامية لكبار الأغنياء، هل حقًا نحتاج تلك المنمنمات اللفظية لنشيد إمبراطورية النفاق والوداع، لتقول انتهى كل شيء تحدث ببساطة تراب المقابر الشعبية لفقراء الدرب المهجور التي لا تحتوي غير شاهد خشبي مهترئ. قولي وداعًا فقط.

- يا نفسي، هل ستشتاقين إليها يومًا؟

- طبعًا فأنا أرتاح لمجرد تذكرك إياها، تلك الطمأنينة التي تحيط بالكيان كله حين تستعيد حواراتكما وتعيد تذوقها، كان الحب يكبر ويتكون في تلك اللقاءات والمواعيد، إن الاستعداد للموعد تنسيق ألوان الثياب، وضع العطر مهما كان رخيصًا، الحيرة المزججة بين إغلاق زر أو اثنين من القميص، هز الكتفين أمام المرأة لقياس مقدار الرجولة، نفخ القفص الصدري وحتى الخطوات التي تسير بك إلى لقاءها تجعل الحب ينمو ليصير شجرة زيتون أو شجرة جوز كبيرة. ضلالها وارفة حتى في فصل الصيف القاحل.

- والآن حبنا شجرة صبار شائكة، لا يكثر لها أحد لأنها تقع في أقصى الحقول، لم يرغب أحد في ثمارها، إلى أن تعفنت، وسال العفن على الأشواك الحادة.

- يا لها من صورة مقرفة! لكنها الحقيقة، ثمار بمذاق العسل، بعيدة، مغبرة، منسية، يلهو الأطفال برميها بمقالعهم الخشبية.

- ربما أفكر الآن في العودة إليك يا نفسي الحبيبة، سأهتم بك.

- يا لرد فعلك الحزوني! كلما أحسست بخطر تنكمش عليّ.

- إنها قصة خيانة.

- لا إنها رواية تخلّ.

- الرواية حنين.

- ستظل الذكريات تملكك، متى تستطيع أن تعيش اللحظة الحاضرة؟

تحول كل حادث إلى ذكرى، ككل كتاب تقرأه، تضع عليه تعليقات أحدهما في الصفحة الأولى تبثه انتظاراتك، وآخر في الصفحة الأخيرة تشكر فيه الكاتب لأنه أجاب عن بعض أسئلتك، ثم تتركه داخل خزانة.

- نعم هي كذلك الذكريات، مجموعة كتب مرتبة في رفوف ذاكرتنا، مكتبة كبيرة لموظفين أكفاء كلما وطأت قدمك مكانًا مررت منه أو شخص عرفته أو فكرة لامستها تجد أن كتابًا قد انفتح أمامك تقرأ منه ما يشبه اللحظة في زمن منسي، مع إحساس ثقيل بالفقدان وشيء من الضيق لعدم القدرة على إرجاع الزمان إلى الوراء. لا تستطيع أن تمسك بعقارب الساعة وتديرها عكسيًا، لذلك أحب الأمكنة فهي بين يديك دومًا، أما الزمان فقد قتلتني، لا بد أن أقتله يومًا انتقامًا، لكنه منفلت دومًا من قبضتي، عقارب الساعة تظل تدور ولو انتهت البطاريات، هناك عدد لا متناهٍ من الساعات، سأقتل الزمن والتاريخ وسأحتفل بوجودي في مكان خارج الزمان.

- لا تخف «فقصص الحب الكبرى تنتهي بتقلصها إلى ذكريات هزيلة» كما قال ميلان كونديرا.

- لا أقلص الحب، فماريا ليست سوى موضوع لهذا الحب، فالحب تجربة فردية، سأحب حتمًا امرأة توجد قربي أو تقاطعت حياتي مع حياتها في منعطف من منعطفات الحياة، وقد تكون ماريا أو غيرها، لا أريد أن أتذكر، أريد أن أفهم، والسؤال المحير: لماذا ينتهي الحب فجأة؟ كأنه سال من ثقب كبير في عمق برميل

المشاعر، لماذا لم ينقص قطرة قطرة كأنه يتبخّر؟ على الأقل كنا لتلذذ ببقايا الندم على تسرعنا.

- الجواب سهل: لأن الزمن موجود.

- لذلك أحتفي بالمكان، فأن تكون في مدينة سريعة الوثيرة كطوكيو تخبب فيها الأبقار صناعيًا ثم تنتقل إلى قرية مغربية في الأطلس حيث ما زال الناس يحتفلون بميلاد عجل عملوا على تقريب أمه من ثور بعقد مبرم مع صاحب الثور بمنحه كيس شعير، وبعد انفضاح العلاقة الجنسية بين ذكر وأنثى، واحمرار وجوه الفتيات اللواتي التقين بالجدة تجر الثور وتقدم له بقرتها العروس، وصيحات الشباب تفرغًا لمكبوتاتهم من قوة مشهد التخصيب هذا. هروب المعلمة وهي تصرخ، معتقدة أن زلزالًا قد وقع، فركض الثور وراء عروسه في الحظيرة الملتصقة ببيتها سبب لها الذعر، كل هذا يجعلك تدرك أن الزمان ينتهي بالانتقال من مكان إلى آخر. أما السفر فهو قاتل مأجور يمكن استغلاله لاغتيال الأيام، وأتذكر نص القراءة الذي بقي مقررًا إلى أن توارثته الأجيال في المغرب، كان عنوانه «أسبوع بلا جمعة» فسفر الكاتب ألغى يوم الجمعة من أسبوعه الشخصي. هكذا تموت الأيام.

- هذه ذكرى باهتة أيضًا يبدو أن موظفي مكتبتك مهرة.

- نعم إن عمال الذاكرة يعملون ضد الزمن.

- المكتبات والأرشيفات هي احتياطات المكان ضد غدر الزمان.

- نعم كما الرواية هي احتياط الإنسان ضد الحب والنسيان.

obeikandi.com

عدت إلى القرية إذن لأخوض تجربة انعزال أو عزلة، غرفتي كما هي، أثاثها القديم، صندوق خشبي، مكتب صغير (المكتب الوحيد في القرية) سقف الغرفة مغطى بالخشب والقصب والطين وصبغ بماء الجير، أما الجدران فقد بنيت بالحجارة والأسمنت ذلك أنه زمن اللا اكتمال، غرفتي كمجموعي دخلت مرحلة الانتقال ولم تخرج منها بعد، بعض موادها تقليدي وقديم وبعضها الآخر حديث. وكومة كبيرة من الجرائد، مقال قصصته وعلقته جانباً ما زال على الحائط، بهتت ألوانه، ولكن لأن ذلك الصحفي قد قضى أياماً يجمع المعلومات ويتأكد من صحتها، احتفظت بمقاله بين أوراقى.

«المقال»

سد أولوز، من منشأة وطنية إلى قضية إنسانية: جذورها في أولوز وأغصانها في دهاليز الإدارات والمحاكم. منشأة إستراتيجية، تدبير الثروة المائية، تهجير السكان، استيلاء على الأراضي، حقوق الإنسان، الفقر والتفكير، نضال وقمع ومحاكمات، ثغرات قانونية، معاناة مستمرة.. كل هذه العناوين تهم قضية واحدة هي سد أولوز، وكل يستثمر العنوان الذي يناسبه، أين الحقيقة؟ بيد السكان وجمعيات المجتمع أم وزارة التجهيز أو وزارة الداخلية، أم المستثمرين الخواص؟ كل ما هنالك أن سكاناً هجروا، منشأة وطنية في إطار سياسة بناء السدود، حدثت الأخطاء فكانت الضحية هي الساكنة التي لم تعد تطالب بمقاربة حقوقية أو سياسية في وطن الشح الحقوقى، بقدر ما تطالب بمقاربة تنمية تخرجها من الفقر والبطالة والعزلة والجوع، فبناء السد اعتبره

السكان حرمانًا لهم من ثرواتهم المشروعة تاريخيًا، فهم أصحاب الأرض منذ قرون خلت خصوصًا أنهم متخوفون هذه الأيام من أن يحدث المكروه، وهو بناء الساقية التي ستنقل الماء إلى ضيعات سبت الكردان، لتقريب الصورة من الرأي العام، اتصلنا بجمعيات السكان المتضررين وإدارة التجهيز وبعض متبعي الملف، فأنجزنا التحقيق الآتي:

موقف السكان: في سنة 1987 كانت أول دراسة لمشروع سد أولوز حيث تم تصوير موقع السد وبدأ إحصاء الأراضي والأشجار والممتلكات قصد تحديد التعويضات المالية، ولسوء الحظ تعرضت المنطقة لفيضان وادي سوس في نفس السنة وأعادت وزارة التجهيز تصوير الموقع من جديد، واعتبرت المناطق التي اجتاحتها الفيضان خارج الإحصاء ما دامت في حساب مجرى الوادي الرئيسي، رغم أنها مشجرة ومزروعة من طرف السكان.

إدارة التجهيز:

دراسة السد كانت قبل 1987 بعشرات السنوات، إلا أنه في هذه السنة تم تحين الدراسة، أما الهدف من السد فهو تطعيم الفرشة المائية لسهل سوس والتحكم في مياه وادي سوس خدمة للصالح العام.

موقف السكان:

أثناء إعادة الإحصاء قصد التعويض استفاد بعض السكان (حسب أقوال أحد رؤساء الجمعيات المؤطرة لسكان المنطقة) باستعمال الخريطة الأولى أي لقبل 1987، والبعض الآخر تم تعويضه بالخريطة الحالية، أما التعويضات فكانت هزيلة جدًا قدرت بـ3,50 درهم للأرض المسقية و2,50 درهم للأراضي الحجرية، أما الأشجار المثمرة فتم تعويضها بـ350 درهمًا، لكن طريقة إحصاء الأشجار حسب نفس المصدر شابها التمييز والمحسوبية والرشوة،

فالبعض تحسب له جذوع الشجرة مجتمعة شجرة واحدة والبعض الآخر تحسب له جذعًا جذعًا أي بتعويض مضاعف، هذا وقد تم تعويض البعض عن الأشجار المثمرة وغير المثمرة، وقد لاحظ سكان المنطقة أن بعض الأسماء الخيالية قد استفادت (صنعتها أيادٍ خفية) رغم أن لا علاقة لها بالمنطقة.

إدارة التجهيز:

وزارة التجهيز لا تحدد التعويضات، بل هناك لجنة مكونة من عدة جهات منها التجهيز والسلطة المحلية، ويتم التعويض عن أنواع الأراضي والأشجار المثمرة والمنازل بدليل وطني يحدد قيمة التعويضات عبر تراب المملكة، ولا دخل لذاتية أي إنسان، بل هناك لجنة موضوعية تقوم بالدراسة.

مواقف إنسانية:

عندما تم تهجير السكان إلى الدواوير الجديدة تم هدم المنازل دون إعطاء المهلة الكافية لبناء منازل أخرى أو حتى جمع مواد البناء والأخشاب القديمة لإعادة استعمالها، وجدوا تراب المنطقة التي رحلوا إليها لا يصلح للبناء التقليدي، الشيء الذي أجبر البعض على استعمال الخيام والبلاستيك في انتظار مساعدات العائلة والأقارب، ومنهم من فضل الهجرة دون عودة، خصوصًا أن قد طلب منهم الرحيل قبل الحصول على التعويضات وذلك سنة 1992. المنطقة الغابوية التي منحت لهم هي في ملك سكان آخرين يستغلونها في الفلاحة البورية، الشيء الذي خلق نزاعًا بين السكان المهجرين وأصحاب الأراضي الذين يطالبونهم أمام المحاكم بالإفراغ والجهات الرسمية لم تمنحهم لحد الآن أي وثيقة رسمية للاستقرار. هذه المنطقة محاطة بالمجال الغابوي، فلو حدث وهربت شاة أو وجدت الجدة والأم تجمع الحطب يتم تغريمها.

إدارة التجهيز:

مهما تم تعويض السكان فلن يرضوا بهذا التعويض، لأنك تقوم بحرمانهم من مكان كان فيه تاريخهم ومستقبلهم. السؤال المطروح الآن، بأي إستراتيجية تعمل الدولة قصد تنمية المناطق التي توجد فيها مثل هذه الأخطاء والثغرات، متى ستخرج وزارة التجهيز من تقنوقراطيتها لتلامس الإنسان في جوهر وجوده وتاريخه وثقافته، بل وإنسانيته. إن السكان المهجرين والمنزوعي الملكية أحسوا بإهانة كبرى بسبب عدم تصحيح هذه الأخطاء رغم أنهم تأطروا بجمعيات وحدت كلمتها، اعترضت ونددت وتظاهرت في مسيرات ملونة، اعتصمت وأضربت وراسلت هيئات سياسية وحقوقية عديدة وديوان المظالم، وما زال نضالها مستمرًا من أجل الحياة الكريمة.

فلا أحد يذكر كون التعويضات هزيلة، فلنأخذ كمثال حي الأطر بأولوز، فقد تم تحديد تعويض الأرض بـ 10 دراهم للمتر، وعند اعتراض السكان أمام المحاكم رفع محامي التجهيز مقالاً للمحكمة على مبلغ درهم واحد، فأصدرت المحكمة حكمها بالتعويض بـ 8 دراهم، الشيء الذي اعتبره سكان حي الأطر تضليلاً للمحكمة، وفي نفس الموقع رفع أحد منزوعي الملكية في قضية خاصة اعتراضه فحكمت له المحكمة بـ 25 درهماً للمتر وهو رئيس جماعة أولوز، فكل ما في الأمر هو نباهة المحامي لا قيمة الأرض الحقيقية.

من السكان من غلبه كبرياؤه فرفض كل أنواع التعويضات خصوصًا بعد أن تأخرت، ومنهم من لم يستطع بسبب الفقر الوصول إلى الرباط لأن الإجراءات معقدة وتتطلب سفرًا متكررًا. الحل هو العمل على تنمية المنطقة باستغلال ما تتوفر عليه من إمكانات طبيعية (فلاحة وغابوية)، وخلق فرص شغل بعد أن سدت في وجوههم الزراعة وتربية الماشية، ومساعدة الجمعيات

المحلية على تطوير عملها ومداخيلها للقيام بدورها الكبير في
الحفاظ على التوازن الاجتماعي والنفسي للسكان وتنمية المنطقة
المتضررة.

انتهى المقال
جريدة ملفات الوطنية

obeikandi.com

أبحث عن شيء لا أرغب تمامًا في الحصول عليه.
تكفي ستة أيام، ففيها خلق الله الكون.

لكن، هذا الشيء الذي أبحث عنه لا بد أن أسميه كي أستطيع توجيه بحثي. المشكلة أنني لا أرغب في ذلك تمامًا، لكنني سأواصل البحث، قد أسميه «ذاكرة هاربة»، يبدو أن لكل شيء ذاكرة، القلب له ذاكرة، القلم كذلك، الأرقام، الحروف، الملابس، الأماكن، الشوارع، المدن، الماء، الرمل، الصدف.. كل شيء، فهل أبحث عن كل شيء، وفي كل شيء؟ مجنون إذن!

الناس يقولون ذلك، دعهم فهم سيثرون على كل حال.
يمارسون أدوارهم دون أن يكونوا هم حقيقة، سيظلون كذلك إلى آخر حياتهم يلعبون شبه حياة دون أن يتوحدوا مع جواهرهم، ويرقوا إلى مستوى الوعي بذواتهم، الأصدقاء يقولون ذلك، دعهم فهم سيحسدونك على كل حال.

لأنك أصبحت أفضل منهم أو على الأقل مثلهم، لن يتعاونوا معك إلا بقدر خوفهم من أن تتجاوزهم، لذا سيصادقونك ليقوا إلى جانبك ويعرفوا أخبارك، وقد يصفقون لك أيضًا، وفي دواخلهم يحسدونك، وقد تنفلت الأمور في لحظة ما، حين تمتلئ قلوبهم، دون شعور أو وعي سيكرهونك علنًا، ستكون حربًا مفتوحة ضدك، هؤلاء هم الأصدقاء، لن يغفروا لك أن تكون أفضل منهم.

نعم مجنون. خرج من عام الجنون في اليوم السابع فبدأت الحكاية من جديد، بدأت بالجلوس في مقهى قرب القرية فقط ليتذكر من جديد، إنها رواية التذكر.

أجلس في المقهى لأول مرة منذ سنوات، على الطريق الوطني

المارة قرب القرية كراسي بيضاء (كانت بيضاء في الأصل) متناثرة هنا وهناك، النادل لن يسألك طلباتك حتى لو جلست ساعة تنتظره، الناس يتحركون على مهل، لا يستعجلون شيئاً، هناك وقت للقيام بكل شيء. فالزمن هو الوحيد المتوفر، جثة الزمن المتعفنة، لقد نجحوا في قتله، اغتالوه؟ لا لم يغتالوه فجأة، وضعوا له سماً فمات تدريجياً، لا يشوّس عليهم الانتظار ولا حرق المواعيد. منذ الصباح الباكر وأنا أحاول حجب نور الشمس كي لا يوقظ هواجسي، فحين يبكي الصباح فلا فائدة من شروق الغيم. تراوغ لتبقى شامخاً كسنديانة لبنانية، ولكنه ظل مرتبكاً يداعب عيوني التي ارتدت حزناً على غير مقاسها. قطعة صاحب المطعم مغمضة العينين تتأمل دوماً مقولات نيتشه عن الأسرة والمرأة ولكنها لا تعتقدها. فالحب عندها تيممة ملائكية معلقة على جبين البحر يتزين بها كلما أحس باليتم القديم، ليجلب لنفسه حظاً أكبر في عشقه للقمر. القطعة الفيلسوفة خمنت قبلاً أن السنونو لن يعود هذا العام، فقد سحرته فتاة من إقليم الألزاس أحبت ساحتها البنية فاحتفظت به كقناع احتفالي إفريقي. والمساء أيضاً كان باكياً ينوح داخل المقهى، فقد رآه يدخل متخفياً يلتقط ما تبقى على الطاولات من طعام وفتات وتفاعلات مقضومة وكسرات خبز منسية عافتها القطعة السمينة المنشغلة بأفكار نيتشه التي كتبها وهو يكوي ملابسه الداخلية. يلتقطها في عجل قبل أن ينظفها النادل الذي تغاضى عنه وتباطأ في حركاته حتى يشبع المتشرد من اللقط.

طلبت شايًا -لا يوجد بن أو حليب- وحلوى، أي حلوى؟ حلويات مادلين المصنعة في تارودانت، طالما كرهتها، لا يوجد غيرها الآن، مذاقها حلو جدًا، لذلك أكرهها.

إذا مر أحد زوار المقهى بقربك تشم فيه رائحة سجائر «كازا»

ورائحة العرق، أو في أحسن الحالات يتعطر أحدهم بـRêve d'Or ريف دور القوي الرائحة يحضر منه بعض المهاجرين لترات كل صيف عندما يأتون لقضاء عطلة الصيف مع أسرهم. (أعني بالأسر الزوجة والأولاد، فالمهاجر يأتي في العطلة محاولاً جعل زوجته تحمل لتلهي بحملها إلى أن يعود في العام المقبل، هذا إن لم يُنب عنه أحدهم خلال غيابه الطويل).

لا أستطيع فهم عقلية المهاجر، يتزوج ويترك زوجته في القرية ويرحل طول السنة إلى أوروبا، إنه تواطؤ سريّ داخل الزواج، يقتضي أن تكون المرأة مصنع أولاد فقط، يجدهم الحاج قريبه حين يتقاعد من عمله بالمهجر. هل حقاً يعتقد أن زوجته ستبقى وفيّة له في الخريف والربيع والشتاء، وتنتظر قدومه في الصيف؟! إنه يفتح الموسم فقط ويتركها تمارس في سرية نزواتها الشهوية مع مراهقي الدوار أو زوج الجارة، وفي أحسن الحالات مع المعلم القابع وحيداً في سكنية المدرسة، يوفر لها الأكل والشرب وبعض البقرات الحلوب لتتسلى بها، كيلوجرامات كبيرة من البن والشاي والسكر، مصروف شهري معقول، ويرحل وهو يعلم تماماً أنها تخونه، وهو في الجهة المقابلة وراء البحر يستمتع بشقراوات أوروبا، أو ربما يتزوج امرأة أخرى.

obeikandi.com

قررت الامتناع عن التدخين فتذكرت أولى السجائر. كنا ثلاثة شبان، محمد وسعيد وأنا. دعونا مراد لشرب سيجارته الأولى وقد كان أصغر سنًا منا، لم نكن مدخنين شرهين أو مدمنين، بل نحاول دائمًا أن نخوض التجارب، نكبر ونعبر بصراحة التجارب كما يقول محمد، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فأن تتحدث عن السجائر شيء وأن تدخن شيء آخر، واستمررنا في التدخين، أحيانًا نتشارك في سيجارة واحدة نحن الثلاثة ونتشي بها، فالأمر لا يتعلق بشرب السجائر بل بطقوس التدخين التي تستلزم أن نكون مخلصين أولاً بعضها لبعض، فلا يفضح أحدا الآخر، ولا يدخن أحدا خفية عن الآخرين حين يكون موسرًا ولديه مال لشراء «ماركيز».

قبل مراد دعوتنا، فأخذ نفسًا أولاً، أداره في فمه فقط وبخه في وجهها، نفس آخر أخرجه -بتشجيع منا- من أنفه فكاد يختنق، وبعدها حاول أن يسقي رثته لأول مرة.

منذ ذلك الوقت وهو يلعبنا كلما تذكر أننا سبب إقباله على رفيقة حياته الآنسة «سيجارة».

في أيام «الزلط» كانت الآنسة تحمل اسم مدينة كبيرة بيضاء مدخنة هي أيضًا «كازا»، وفي بداية حصولنا على المنح الدراسية كانت تغير لقبها إلى لقب رجل من مستوى وطبقة أرقى، «ماركيز»، «مارلبورو» أو حتى «كنت» مستورد قليل النيكوتين، لكنه كان ألد وله طعم خاص ورائحته لا تزعج البنات.

والحشيش.. ألا يستحق التجربة؟

كان سؤال محمد نقطة تحوّل فعلية.

كرهنا بعضها فيما بعد وافترقنا لأسباب غامضة، كالدخان

الذي جمعنا تلاشت علاقتنا رغم قوتها لكننا لن ننسى أن جاذبية السجائر أغرت الفتيات بالوقوع في غرامنا، فقد كن مثلنا يعتقدن أن حمل سيجارة قرب سور الثانوية وقت الاستراحة، تحدي يدعو إلى الفخر والاعتزاز ولنقل إعلان عن الانتماء إلى عالم الكبار والحرية والرجولة. رائحة السجائر لها ذاكرة خصوصًا إذا امتزجت برائحة العطر والشوينقوم وحتى أوراق النعناع التي نمضغها قبل الدخول إلى البيت والتي اعتقدنا أنها تمحو آثار التدخين. (الناس ينظرون إليّ ويحدقون في أنفي الذي يتحرك يمنة ويسرة يلتقط إشارات ذاكرة الروائح).

السيجارة عشيقتنا التي نكرهها، سادية أغرتنا بحبها وبدأت تعذبنا بعد أن أوثقت عقالنا.

الأصدقاء، مع مرور الوقت يفصلنا عنهم حائط سميكة كأنه الغربة، لا نجد المعاول ولا الفؤوس لهدمه حتى في مخازن الذاكرة القديمة، استحضار الماضي لا يشفع دومًا، وعندما تنظر إلى الصور التي جمعتكم مبتسمين يتمزق كيائك، وتحس بالحزن العميق (إننا نبتسم في جميع الصور، فأخذ صورة فوتوغرافية آنذاك لهو شيء يدعو -في حد ذاته- إلى الفرح والضحك).

في مراهقتنا الأولى، كانت شفاهنا تنادي بصوت مُلحّ، اعتقدنا أنها ترغب سيجارة، فدخلنا كأننا نمارس طقسًا جنسيًا، خفية عن الآخرين، غالبًا ما يكون الأمر ليلاً، في زوايا جانبية من الدوار تلتقت «كازا» قبلتنا الأولى، فهي حبنا الأول الذي لم ننسَه، رغم تيقننا أننا على خطأ وأن الصوت الملح ينادي شيئًا آخر من جنسه، شفاهًا أخرى.

كان صديقًا من نوع خاص.

الأمر الخطيرة يتقبلها بلا مبالاة تقتلني، اللا مبالاة كانت سلاحه الدفاعي الأول ضد الصدمات، يخفي بها مشاعره الحقيقية

وضعفه، فهو لا يحب ردود الأفعال الأولية (الغبية واللامعقولة) آنذاك يسخر من كل شيء بداية، حتى المصائب الكبيرة. برودة دمه ودعوته الروتينية إلى مناقشة الأمور بموضوعية توترني.

مع مرور الوقت أفئعني دون مجهود بأن الموقف يجب أن نتخذه بعد تفكير طويل ومعالجة، وألا يبقى رد فعل باهت يتحول إلى تفاهة، تحول صاحبه إلى إنسان تافه أيضًا لا مواقف له.

تتنصب السيجارة بدءًا بين أيدينا نشعلها نارًا، ننفخ فيها، كلما نفخنا ازدادت اشتعالًا، نمصها، نشربها، نلعقها، إلى أن تحترق، تتلاشى، تتراخى، فنشعر بالراحة، نرميها في المنفضة وحتى عملية الرمي هذه فيها الكثير من الضغط والتدوير، وقطرات الماء على المنفضة الحرفية بشكلها الغائر المغري لدليل على هواجس وأحلام وحركات ومشاهد تتعلق بالوعي واللاوعي وتشكل أخيرًا طريقة في الوجود، بقوانين لا مشرع لها وقيم لا منتج لها، سوى الحنين والذاكرة.

السجائر كانت أول المنوعات والأسقف التي كسرناها وطربنا بأجنحة التحدي مع الدخان الرمادي، لذلك كانت لها حكايا وحنين كأوجاع الحب الأولى، بخلاف الحشيش والخمر الذي كان مجرد شراب منعش، والنارجيلة التي كانت تمثيلًا وتقليدًا لرجال المسلسلات المصرية التي غزت القناة الوطنية آنذاك، حين اعتقدنا أن الأدب والمسرح والغناء والسينما لا يوجد إلا في القاهرة. أحببنا السيجارة الأولى الرخيصة، التي كان لها اسم مدينة عشنا فيها أعواما (الدار البيضاء) ولأن طعمها بدا مغربيًا أحببنا مذاقها كرضيع يتلذذ بحليب أمه، كنا (وطنيين) حتى في اختيار السرطان الأنسب. الموت الأنسب.

التقيت صديقي فيما بعد، كان حزينًا جدًا لدرجة لا يمكن أن أنام دون أن أكتب عنه قصة قصيرة، بلحية مبعثرة على وجهه

تصل عينيه، بأسنان خربة كأن حربًا وقعت في فمه، بعظام ناتئة
حتى من بطنه، أنا الذي ابتعدت عنه لأنه غاب دون وداع أجده في
أمس الحاجة إليّ، بل أكثر بكثير من حاجتي إليه.
حين تبلغ بك الحياة درجة من التشنج، عليك أن تمارس اليوجا
الغبية وتتغابي ما أمكن كي لا تفهم كل ما يدور حولك.

الموت هو ما يجعلنا قلقين، فلو كنا سرمديين ما أقلقنا وجودنا، ولكن الأكثر إرباكًا حين نسمع أننا أموات أصلاً، ونحن الآن في غفلة فقط، لحظة موت وسكر سنعود بعدها إلى الحياة الأبدية، هذا المعطى غير المبرر يزيد من قلقنا. يمكن أن نخوض في كل نقاش عدا موضوع الموت، لأنه كما قال دريدا «شيء لا يوصف أو لا يمكن وصفه» فهل نحن أحياء أم أموات؟

أطلق إمام المسجد في الدوار إشاعة مفادها أن الشياطين قد تلبستني وأن خلوتي ستة أيام ليست إيمانية بل شيطانية من قبيل «عباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان».

ليقل ما شاء، فربما هنا سيعزز مكانته ويجلب له شعيراً أكثر، أما حالي فليست متناقضة تهتك بروحي، أحكام وملفوظات، أشياء وأزمنة، جمل، جمل طويلة جداً لا رابط بين أسانيدھا ومسانيدھا، أو أنها كلمات، كلمة واحدة بالمفرد، نعم كلمة واحدة غامضة، مزعجة، مجهولة: الإنسان.

يا إمام، بي نازلة لم ترد في كتب الفقهاء ولا سير البلغاء، لا حد لها على أعتاب الفهارس، ولا مثل لها في الهوامش، أفطني في سبعة نوارس وموج ينساب عبر حروفي يحطمها فتيت لغة محكومة بالحياة حصراً على أنقاض طليطلة وعلى قوافي طليلات امرئ القيس، موج يهرسني كبندقة وقعت بين فكي سنجاب متكبر يكسرھا كي لا تثبت في عشه سلالة الوله، ويصورني كبوم محكوم بالحزن المؤبد أحكي للمارين قصتها هي وهو وهي وهو وهو وهو.. ساعة من كل دقيقة تمر، ولأن اليوم بضع وعشرون ألفاً من الساعات فأنا أحصي إرباً

ثقيلاً من النكسات. فأفتني يا إمام في سقف يبوح بحبه للباحة
وحائط يهوى الساحة وسطيحة تنوح من هول ما سيحدث. أفتني
يا إمام، لا قياس ولا اجتهد، كومة من الخراب وسؤال يضيق من
فرط ما رأى، فأنا كلغتي مهووس بعلامات الترقيع المعلقة في الفراغ
من شدة الفزع.

أفتني في سبع سنبلات زرق هجرهن الحَب والحُب، تركهن القمح
وراح يلهو رفقة شقائق النعمان، ونخلات في زاكورة يرميننا بالفقر
لا بالتمر، أفتني في تسع أرامل لفظهن الوطن تحت قنطرة وهن
يودعن أزواجهن الشهداء دون مراسم دفن، أفتني في خمس نخلات
يعفن حبوب اللقاح، بخلاً يخزنّ الغسل ويصنعن العفن، أفتني
في غجرية تصوم الدهر وقروية ترقص في الحانات، أفتني أتوسل
إليك أفتني في شهر يار يحيي خوفاً من شهرزاد.

قال أحدهم "الحنين هو الاتصال بزمنين" ضيق أفق، انحسار.
وجمود الحنين هو الاتصال بأزمنة عديدة متشابهة ومختلفة،
حزينة على العموم.

قد أكون مخطئاً؛ ما أبحث عنه لا يوجد حولي، سواء انفتحت
على العالم أو انعزلت في القرية، لا يتغير شيء سواء توقف الزمان
أو سار إلى الأمام أو عاد إلى الوراء يظل ذلك الشيء غائباً، ما أبحث
عنه موجود في داخلي، سأكتشف بنفسي، إنه السر، إنها الروح، إنها
الكلمة، إنه الوعد، شيء من هذا القبيل لا طبيعة له، سأغلق عيني
وأنظر إلى هذا الظلام الدامس المحيط بي، ليس ظلاماً دامساً،
فبعض الاحمرار ينقش أمامي، إنه دم أجفاني، سأنتظر الليل وأنزل
إلى الكهف في الوادي السحيق، هناك يمكن أن أفتح عيني إن شئت
دون أن أرى شيئاً غير السواد، هناك أستطيع التفكير دون حواس،
لن أكون ذلك الشيء المقيد بالجسد، لن أكون ذلك العصفور

المسجون في القفص، لن أكون تلك السمكة التي لا تغادر الماء، سأكون فقط.

كائن شفاف، أدخن سيجارة فيختلط دخانها بي، أدخن نفسي فأختلط بدخان سجائري، أشعل سيجارة أخرى في الكهف المظلم، تكون السيجارة ولا أكون. أنقلب ذات اليسار، خدعة زمن، أنقلب ذات اليمين، بسكرة وطن، انتهت السيجارة من تدخينني وارتمت في هوة سحيقة ولم يعد لها أثر، اشتعلت وانطفأت، انفعلت وفعلت، حلت وارتحلت.. تركتني وحيداً، شفافاً. أغلق عيني، أفتحهما، سيان، إنه الوجود بالقوة، أنا غير مرئي، ما دمت لا أرى نفسي، إني أعيش داخلي، أنظر إلى ذاتي بغير الأعين، أجرب حياة الكهف قبل أن أستيقظ وأحل ضيقاً على جسدي والمدينة.

obeikandi.com

المكان الأول من عام الجنون.

حدثني صمتي عني فقال إن هناك في جوفي سنديانة مثقلة بالمراشي، جذعها مرآة منسية في درج مخفي تحت طاولة متروكة في بيت مهجور ببادية خربة ببلاد خاوية على عمرانها، فارغة على امتلائها، فاحشة على استحيائها، سنديانة مهملة كسنبلة منخورة حملتها الرياح إلى حقل القرع فظلت هناك حتى دقت طبول البوح، النهر يشعر بالظماً والسماء تشتكي ظلم الغسق، والغروب يحسد بزوغ القمر، وأشياء أخرى تحدث داخلي. كهطول أسراب من الأمنيات من سماء المستحيل، فكيف بالحب لا يريح قلوب العاشقين؟ وكيف بالمنارة تضيع سفن المهاجرين؟ وكيف بالشعر يضيق برؤى المظلومين؟ وكيف بي أحدث صمتي وي لهفة لأقتل صمتي وأمضي في خطى البؤساء الثرثارين؟ فقال صمتي: فلتقل قصيداً أو لتصمت، وعَنَى بها أو لتمت. فقلت: لعل ما أكتبه صمت مغلف بالكلام، وهمُّ مطرّز باللذة أو لعله فرح مغدور بالآهات، هو حتماً دم منسكب يتغى قبره ليموت موتة الموميאות محنطاً بخليط من الأعشاب والملح والجرح والكسر المترف ورشة قديمة من الصداقة المدية وخميرة النسيان.

القضايا نفسها يناقشها ذهني، سدّدت الحفر التي أحدثتها الفئران في غرفتي، مستعملاً قطع الزجاج والجبس كي لا يستطيع أي جرد حفرها من جديد لأنه من أعند الحيوانات، أقرب ما يكون إلى إنسان، تخلصت أيضاً من الجرائد القديمة وكومة الدفاتر التي نخرتها الحشرات.

الدفاتر القديمة.

لم أكن أبدًا أحرق دفاتري المدرسية، يحز في نفسي أن أفارقها وقد رافقتني طول السنة الدراسية، أكتب عليها صباح مساء، كأنها جزء مني، طرف من أطرافي، لذلك يصعب عليّ رميها في القمامة آخر السنة، اعترافًا مني بجميلها. لم أكن أدري أن علاقتي بجميع الأشياء من حولي ستكون كذلك، فأنا أرتبط وجدانيًا بجميع ملابسني؛ أحتفظ بها طويلاً، أقلامي الفارغة، الكتب التي أشتريها خصوصًا الروايات، أحملها معي إلى كل مكان، حتى ماكينات الحلاقة تبقى مكدسة إلى أن يعلوها الصدأ، علب الهدايا، البطاقات البريدية، أحتفظ بكل شيء، وأخاف أن أفقده فلا يعود بمقدوري التعرف على ذاتي، أبالغ في حفظ الأشياء التافهة -كما يراها الآخرون- إلى درجة الإزعاج، وأحيانًا أتمنى لو أتى عليها حريق مهول ليخلصني منها. بدل رؤيتها تعذبني دون أن أملك لنفسي حق وضعها رهن إشارة شاحات القمامة، فأنا مغرم بالمجموعات ومتيم بحشد التذكارات والذكريات، أرتبها، أصنفها وأضعها في علب كرتونية أحشرها تحت سريري أو داخل دولا ب ملابسي.

أردت عزلة أختلي فيها بنفسي فإذا بي أنعزل في مكان أغرقني فيه يوميات الحياة التافهة، قضيت اليوم في إعداد المكان، رتبت أمور المأكل، الاستحمام والنوم. جئت لأستعد للموت فإذا بي أنخرط في الحياة العادية البسيطة، يبدو أن العزلة ليست كما صورتها، فمن أهم شروطها أن يتوفر لديك كل شيء، ألا تحتاج إلى شيء يتعلق باليومي والروتيني؟ أنذاك يمكنك أن تنطلق في دنيا التأمل، أو أن تتوقف عن التأمل باستعمال اليوجا مثلاً. لا، ذهن نشيط كذهني، ينتقل من جملة إلى أخرى، ونفس مغمورة في الحماقات، أيستطيع الجسد أن يستمتع معهما بفضائل اليوجا؟ أكيد سيعتبرها حركات غبية.

كذلك، قررت أن اليوجا حركات فارغة لا معنى لها، لكن، أليس هذا ما أحتاحه هذه اللحظات، أن أجد اللا معنى وأتواصل معه وأعترف له بالنصر.

يجب أن أهدأ وأترك الأمور تسير على حالها، سأجيب على طرق الباب، وأبتسم في وجه الجيران، وشباب القرية، لاحظت أنهم يبدون أصغر سنًا مني، رغم أننا ولدنا في نفس العام، إنهم لا يهتمون بأي شأن يُقصر العمر في حين أنني قد أنفق أيامًا في تأمل شيء، لوحة مثلاً، ويعتبرونها هم لطخات من الصباغة ولا تأخذ من وقتهم إلا دقائق أو ابتسامة ساخرة. إن جسدًا كجسدي محملًا بأشكال متعددة من الوجود لا بد أن يشيخ قبل الأوان، يستعجل الخلاص، ينظر بتأمل واستغراب لكل أمر.

صندوق البيرة الذي أحضرته وعلب السجائر وكل الروايات التي اخترتها بعناية لتعيش معي تجربة العزلة أصبحت موضع تساؤل، ما فائدتها؟

"عالم بلا خرائط" تبدو متألقة في لونها الأبيض كعروس، لكنها مهولة ترمي بك على بعد قلق، و"عابر سرير" الرواية الحزينة، الجثث الباردة وقصص الحب والموت تتقل بك من المهد إلى سرير الموت في المستشفى، إن كنت محظوظًا فقدرك أن تتقل من سرير إلى آخر على التوالي، بالتتابع العادي الطبيعي، أما إن أخطأت زمنك فالأمكنة ستحتضنك بعشوائية العبث، ربما من بطن الأم إلى المقبرة مباشرة، قد تمهلك الحياة دقائق كالصغيرة "تودا"، لتحملك من المهد إلى القبر، وتكون بذلك قد اختزلت الوجود وقفزت على الأسرة، وكسرت السرد -المهد، سرير الطفولة، وسائد المراهقة، أسرة العاهرات المزدحمة، أرائك العشيقات، سرير الزوجية، سرير المرض- وانتقلت إلى سريرك الأخير سرير الخلود والحقيقة.

”كوايبس بيروت“ والمرأة المحاصرة، ”الذئب الأسود“ والرجال المعسكرون في الغابة، ”الغريب“ والرجل التي يتصرف بعفوية فاتهموه بالقتل، ”أوراق“ إدريس الذي فشل في إقناع الآخرين فأقنع نفسه بالعزلة.

وكل الأبطال الآخرين والروايات الأخرى، هؤلاء هم أصدقاء الآن، أعرف أنهم يراقبونني من داخل الأغلفة والأوراق، وينتظرون أن أصبح بطلاً لرواية فشل لأنضم إليهم، ها أنا ذا على الطريق إليكم: أنا الغريب الذي يحمل أوراقه من مكان إلى آخر بسبب الكوايبس المرعبة لأتخلص من عالم مليء بالذئاب السود، انتظروني ريثما أكتب نفسي لألحق بكم، فأنا أحب عالمكم المكان الوحيد الذي لا خريطة له.

الباب يترك.

- من؟

- محمد.

- أهلاً، ماذا تريد؟

- أحضرت لك البيض والحليب.

لا يمكن أن أتوقف عن التمازج والتواصل مع الناس، فقد أموت جوعاً.

- تفضل.. أشكرك.

- هل تحتاج شيئاً آخر؟

أحتاج أشياء كثيرة يا ابن العم، لكن لن تجدها في السوق أو في الحظيرة، لا تسألني فأنا رجل الهوامش أقتات من مخلفات التاريخ والأزمنة الغابرة، وبقياء قصص حب قصيرة مفتوحة النهايات على جراح مؤلمة.

- لا، أشكرك، لقد أتعبتك، سامحني!

- أنت لم تتعبني والله العظيم، أنا في الخدمة، دائماً.

قبل أن يرحل ابن العم، امتد بصره إلى أنحاء الغرفة، استوقفه صندوق البيرة، سيكون حديث القرية لأسابيع عديدة، هم لا يخلون من مناقشة حيوات الآخرين، يحاكمونك دون دفاع، ويعدمونك رميًا باللسان.

obeikandi.com

المكان الثاني من عام الجنون.

بلا استحياء تقبلت غزلي، قرأت أشعاري ودست بلا ندم على قلبي من أجل رجل آخر غيري.

جعلت حي جسرًا تعبرين عليه بأقدام الغدر والخيانة، وترقصين رقصة الأفعى الهوارية على حسن نيتي وسذاجتي. آه! لَمْ أتذكرك؟! يجب أن أنساك.

وحين يعلن الماء كدره وتفتت اللحظات وتمطر السماء رنيًا من هيام السنين أعلن أيضًا انسحابي منك، انسحابك مني، ليس كالخيوط المسرودة اللا معقودة، بل كانبلاج الروح من الجسد.. أعتقد أنني سأمطر رحيلاً من إرث الوجع حبل به غمام معتق داخل براميل نسيها الواندال بعدما قرروا أن الحب مجافٍ للفروسية. منافٍ للأخلاق السامة.

أكره أن تكوني في مخيلتي، كيف أتخلص منك؟ كيف أتخلص من هذا الإدمان؟

أعرف كيف أفعل ذلك، لفافة أخرى من الحشيش وينتهي كل شيء، تصبحين بقدر ذبابة، وتصبح الذبابة أجمل منك، أحدثها وتحديثي ترقص أمامي، عفواً تراقصني فأنا لست شقيقاً. أقبلها حتى كي.. أن.. إذن...

هل أخطأت في قرار العزلة هذا؟ إنها اللعنة، أوصاني جدي يومًا بقوله «النجاة ليست في أن تأوي إلى الجبل بل في أن تركب السفينة». أنا فعلت العكس، آويت إلى الجبل وتركت السفينة تبهر، تركت الحياة تمضي بكل ما تحمله من أزواج، حزن وفرح، راحة وعذاب، إخلاص وخيانة، حرب وسلم، خير وشر.. هذا ما كانت تحمله

السفينة. لكن التاريخ لا يعيد نفسه دائماً، انتظرت طويلاً كي أولد من جديد وأغيّر حياتي ونمط عيشي دون جدوى، كل يوم يشبه الآخر، لكنه لا يعود، يختلف عنه، في التاريخ نفق ما، هذا غير معقول. إنه ضعف في الزمن، يتقدم دائماً إلى الأمام كثور إسباني جائع، هائج، (متى سيتخلى الإسبان عن عاداتهم السيئة هذه؟!) لذلك آويت إلى الجبل وتراجع الطوفان.

تراجعت قوات العسكر، وتقدمت المسيرة الحمراء التي طالبت بالأرض والماء واللغة والهوية والكرامة.. تقدمت كثيراً لكن جرعات زائدة من الخيانة والجبن أفشلت كل شيء، وبدأت المحاكمات وانتهينا في السجون.

الطوفان الآن في ذهني فقط، وهو أعتى من أي طوفان، يغرقني كل يوم مائة مرة، تسونامي أتى على خليج قارتي النفسية وأغرق كل السفن والبواخر والمراكب وجرف مقاهي شواطئ سكينتي، وسقاني عصير الخوف من الماضي والحاضر والآتي. أليس طوفاناً أن تواجه جيشاً من الذكريات، مدججاً لا بالأسلحة بل بالاحتمالات، أليس إعصاراً أن تواجه جيشاً من الجمل الطويلة والحزينة، تدعوك لكتابتها أو بمعنى آخر لتقتل نفسك من أجلها.

لا، لم أخطئ في قرار العزلة، لقد ابتعدت عن ماريا لكنها ما زالت تقرق باب ذاكرتي، إنها لا تضغط بحنان على زر الجرس الرنان الذي يهمس بصوت العصفور كأني أنثى من الماضي، أحببتها وتفارقتما بسبب ظروف معينة لم تكن في صالح حبكما، إنها تدق ناقوس الغدر والخيانة والجبن والضعف، لكني لست هنا بسببها فقط، بل من أجل أن أختلي بنفسى وأعيد ترتيب حياتي على نحو عقلائي، هذا ما خططت له في البدء، وما زلت مُصرّاً على خلوقي الجنونية هذه، أليس الجنون هو السبيل إلى الشفاء من عالم كله جنون، آمنت دوماً بأن المجانين عباقرة زمانهم اكتشفوا مباحج

التعامل مع عالم آخر من الأشباح والأطياف والأفكار بدل عالمهم المليء بالتفاهات والحقاقت، وتخلصوا بسهولة من الضغط اللا معقول الذي واجههم، استرخصوا الوجود العادي وصنعوا لأنفسهم محمية جنون.

ابتعدت عن تارودانت، لكن سورها ما زال يضايقني، ويحاصرني كأني لست خارجه، إنه يمد أصابعه البنية نحو الأعلى كأنه يحاول تخليص نفسه من نفسه هو أيضاً.

ابتعدت عن الناس لكنهم ما زالوا يبحثون عن سبب انعزالي، اتركوني، أريد أن أموت جوعاً في هذه الغرفة، أريد أن تخرج الفئران والسحليات والعناكب والنمل والبراغيث لتقتات على جسدي، على الأقل سأكون مفيداً هذه المرة.

أينما رحلت بجسدي ترافقني التعاسة، الحل إذن هو أن أرحل عن هذا الجسد، هل أعود لرواية «سجين الهوامش» أختار منها طريقة للابتعاد عن هذا السند المتعب، إنه محمل بالذكريات والقلق والشهوة والألم، وبعد هذا وذلك ينتظره موت محقق، ماذا أختار إذن كي أتخلص منه؟

أبحث عن «الحال» كما تصوره المتصوفة بعيداً عن الزمان والمكان، أم أبحث عن «حفرة» كناية وأنادي أسياد الإنس والجان، أشمهاروش، أشمهاروش، آسيدي بوالسبع، آسيدي بوالقنادل، آسيدي عثمان، آسيدي موسى الحمري، آسيدي عبد الله العروي، آلا كريستيفا، أمولاي رولان بارت، آسيدي جاك دريدا.. أهذي، صحيح أهذي، إنه مفعول «الشوكولا المبخر»! الآن فهمت روحانيات جدي التي كانت تبدو لي طقوساً بدائية، سأفعل مثله تماماً، أرحل كل سنة لأزور الأولياء السبعة، أبحث عن أحوال وجودية خارج التصنيف، أشرب مياهاً حارة، أمسك الجمر بيدي وأغرز السكاكين في بطني، وعندما أستيقظ أجد أنني لم أمت ولم

أحترق، وأن نيتي صافية تجاه الأسياء والملوك.
فعلت ذلك يومًا في موسم عيساوة، أمضيت ثلاثة أيام أزيل
أشواك الصبار وألعن مع كل شوكة همجية قومي، حين أحببت
رقية ورفضت حبي، انتظرت رققت وحضرت، فرغت في الموسم
كل ألمي، أكلت ثمار الصبار بأشواكها، ارتيمت فوق أشواك السدر،
كنت مهتاجًا أنادي، لا بسم الأولياء بل بسم الحبيبة رقية التي
كانت وسط الجمهور النسائي تبكي حالي، وتنتظر أن أكل أكثر حتى
تتأكد من مقدار حبي، إنه الحب المستحيل بمعنى الكلمة، الذي
يقايضك بجلدة جسمك وغشاء معدتك. لكن الحب لم يكن كافيًا
لأرتقي سلم الأحوال، فلم أجرو على الاقتراب من الجمر أو شرب
الماء الساخن الحار.

لكني تخلصت منها، في تلك الليلة اجتثت حبها من قلبي وكياني،
وكلفني الأمر التهام الأشواك ونبات الصبار.
هل كان نقصًا في الشجاعة أني لم أقرب الجمر؟ هذا ما قاله
جدي الذي خاب ظنه بحفيده الذي انتظر منه أن يرث جينات
عيساوة فإذا به يأكل الصبار من أجل رقية، ولأنها لا تستحق أكثر
من ذلك تراجع عن التوحد مع النار والماء.

«ورأيت في عينيك الماء والنار
لم تجرؤ على الاقتراب فتحترق
ولا على الابتعاد فتظمأ».
على حد قول الشاعر الأمازيغي.

المكان الثالث من عام الجنون.

فوضى عارمة من الألوان والمساحيق والأصباغ، يغيب فيها كل شيء وتحضر الفوضى لوحة تشكيلية تُقرئنا الغياب، كذلك حياتي، تغيب فيها أشياء وتحضر أشياء (لا بد أن يكتب أحدنا) تحضر حفلات أحواش، ليس بالموسيقى والحركات، بل بما تخلق حولها من جمال ومتعة، حنين إلى الطفولة أم إلى البساطة؟ البيت القديم أبوابه الثقيلة، المسامير الغليظة التي تزينه، إلحاح ابنة الخال عليّ للإسراع بإحضار تالونت قبل أن يتحرك موكب الفتيات اللاتي سيرقصن، يداها مخضبتان بالحناء، تمضع قشرة تمره الجوز التي تترك في فمها وعلى شفثيها ذلك اللون البرتقالي المائل إلى الحمرة كلحظة غروب، وضعت على عينيها كحللاً خفيفاً، ما دام الكحل ممنوعاً على الفتيات قبل الزواج، وتنورتها الطويلة الفضفاضة ورسوم الطواويس عليها، شربلها الأحمر المطرز بأقراص الموزونة، خفة حركتها وصفاء روحها، الجمال المطلق، يرتسم في الذاكرة كلوحة تخاطب الروح لا الجسد، فقد كنت صغيراً، بريئاً لا أرى إلا الجمال والخير والحب والسعادة، وعندما أصبح لجسدي معنى فقدت هذه الرؤية التي لا ألأمسها إلا وأنا أستدعي أماكن روحية كـ«أسايس» و«دو توريتيت» و«أساكا» و«أفنسو» على ورق أبيض من أجل رواية الماضي، ما أثقل الذاكرة بالوجع؟ الجمال وجع، الوادي وجع، الجبال وجع، البيوت القديمة وجع.

قال لي صديقي يوماً: بالنسبة لي أقفلت على هذه المسائل في قلبي وتابعت قدرتي. أنا لم أستطع أن أجد فعلاً بمستوى «أقفلت» فتابعني أقداري، أجبرتني على حمل القلم، فقد كان على أحدنا

أن يكتب، أن يكتب على الأقل قصصًا قصيرة جدًا، بعد أن غاب
الجمال وحضر الدمار والألم في لوحة شكّلتها يد الوطن.

كان على أحدها أن يكتب

كنت أنا قريبًا لهذا الإجبار

يا إله الماء والنار

الجمال إلى موت

الجمال إلى احتضار

يا إله البحر

ارحم الذاكرة بالنسيان

اقرئنا السلام.

وأنا ماذا أفعل بأجزائي؟ أين أخزن أثاثي القديم؟ تلك النكسة
هناك وتلك المكنسة، تلك الخسارة المتوسطة وكؤوس الغدر
المصفوفة قرب جارور الصداقة، والحب المعلق كالثرثرا لا ينزل
أبدًا لينير جسدي، ألملم بعضي وأضعه في علبة رحيل وأحكم
إغلاق الصناديق حتى لا تتحرك في الطريق، فقد تخرج ذكرى متعنتة
وترقص رقصة الألم الحر وتوقظ كل مشاعر السخرية المرة التي
زينت بيتي الداخلي ذات يوم، حين كنت أرتمي كجورب متسخ
قرب سطول الحزن والفقر، وأختبئ في دولاب مظلم تعشش فيه
كل الجنيات الشريرات، وحين أكمل جمع أثاثي أرحل دون أن أنظر
إلى الورا، فقط أرحل وحدي دون ذكرياتي لأني سأسير في الاتجاه
المعاكس لانطلاق سيارة الماضي.

المكان الرابع من عام الجنون المنطق والعاصفة

أن تشعر بأن الأشياء تتمزق داخلك، وأن الذكريات تتزاحم في قلبك، ولا تستطيع لمها، فهذا ما أسميه بالوحدة، إحساسك برغبة عميقة في الكتابة دون أن تعرف بالضبط ما الذي ستكتبه، ولا آفاق هذه الرغبة، تريد أن تكتب بكلمات عادية أشياء غير عادية، لكن هذا يجعلك غريبًا في مجتمع يهوى فعل الرغبات غير العادية، لا أحس بأني غريب فأنا منسجم مع عالمي، هناك أشخاص غرباء، يسمون أنفسهم أصدقاء، يحاولون فهمي وهذا يزعجني، لأنهم غريبو الأطوار، يقومون بأشياء تافهة، كأن يتسموا في وجهي أو ييكوا إذا كانوا شديدي الحساسية، معتقدين أنهم سيسعدوني بحركاتهم، كل ما أريد هو أن يتركوني وعالمي.

لهذا رحلت إلى هذه القرية التي تبعد 196 كلم عن تارودانت، أردت أن أتخلص من الذكريات التي تقض مضجعي، أو ربما أردت أن أتذكر كل شيء كي أنتهي منه.

«التذكر شكل من أشكال اللقاء

النسيان شكل من أشكال الحرية».

هذا ما قاله صاحب «النبى» نعم، وقال أيضًا إن «بين الخيال والإنسان وإدراكه مسافة لا يجتازها سوى حينه».

الحنين، الحنين، الحنين، إن ما يكون الإنسان هو حينه، فإن كنت لا تحس بالحنين فأنت إنسان فارغ، قابل لأن يشحن كالبطارية ببطاقات فانية، أما الحنين فيجعلك كالشمس طاقة متجددة، أحب أن أكون شمسًا، لم أر الشمس منذ ثلاثة أيام،

ذلك أنها تجعل الأحاسيس يابسة، وأنا أردت أن يبقى كل شيء طرياً حتى أستطيع عجنه وصنعه ونحته كما أشتهي.

جاءت عجوز تدق باب بيتي، قالت إنها خالة أُمي، متكئة على عكاز، لم يبق في فمها سوى ضرسين أو ثلاثة، جاءت هي أيضاً لتحكي، جاءت لتعاتبني على عدم زيارتي لها. في أول يوم لحضوري إلى القرية، تقول إن إرثي ما زال محفوظاً وعليّ الاهتمام به كما اهتم به أجدادي، الأشجار والبساتين وحصتي في ماء العين.

- أي إرث أيتها الجدة العزيزة؟

- أرضك وترابك، هل صدقت أن الماء قد غمرها؟ إنهم يكذبون، لا يوجد سد ولا هم يحزنون، لا تثق في أبناء العم هكذا هم الـ... يريدون الاستيلاء على كل شبر من الأرض، وكل قطرة من الماء، وكل حبة من ثمار الأركان.

- أنا لا أريد شيئاً، المهم أن يهتموا بالأرض.

- صحيح، ولكن يقال إن الجميع باع أرضه ورحل إلى المدينة.

لم أستطع سماع المزيد من كلام العجوز الخرفة، هي تحكي خارج زمانها، سايرتها في حديثها عن الأرض والماء ومكائد أبناء الأعمام، ورؤوس الماشية وحصص الماء، إلى أن أتت حفيدتها وأعادتها إلى البيت، حفيدة لا يتجاوز عمرها ثلاثة عشر سنة ولكن مثلي، تهدي باسم الحكايا القديمة، ألف عجوز تسكنني، وأنا أتذكر، أقراني تابعوا حياتهم العادية كأن شيئاً لم يحدث، في البداية نظمنا الاحتجاجات، انخرطنا في الأحزاب والجهات للدفاع عن حقوقنا، مع مرور الوقت بدأت هذه التنظيمات تنهار وبدأ الاستسلام يتسلل إلى النفوس، وانتهى كل شيء وبدأنا نأكل أنفسنا، يتهم بعضنا بعضاً بالتواطؤ مع السلطة وجاءت الانتخابات وأفاضت الكأس. وكان لصوت الجهل وزن أثقل من صوت العلم، لا يمكن أن تنفلت من قبضة الوطن، إنه جبار عنيد.

إن الزمن كفيل بكل شيء، لذلك أكرهه. أصبح الشباب يلتقون في أماكن معينة في الدوار، يثرثرون قليلاً، يستعملون لغة الاحتجاج واليسار القديمة، رغم أن بعضهم انكمش وأطلق العنان للحيته، يفرغون ما في جعبتهم، والغريب أن ما في جعبتهم لا يبرح المكان، كأنهم يلفظون أشياء تثقل كواهلهم، يتخلصون منها في اجتماعات كهذه.

إنهم فاشلون، مجموعة من البشر كانوا يوماً ما مناضلين في صفوف يسارية، منهم من تكلس وبقي وفياً -رغم أن الأمر لا يتعلق بالوفاء- لطروحات قومية أكد التاريخ خواءها وبعضهم يغيّر قمصانه حسب مصلحته الخاصة وتقلبات السوق السياسية، ومنهم من واصل ما يسميه نضالاً في هيئات نقابية تطالب بخفض ثمن الزيت والخبز ومنهم.. ومنهم.

أصبحوا كالمستحاثات، متحجرين على أفكار تجاوزها الدهر في أشكال خطابية بالية، أحياناً تبدو كلمات كالحماس، الجماهير الشعبية، الفقراء، البروليتاريا، النضال.. كراكيز سيئة التصميم والخيطة، وحتى لو كان مصممها بارعاً فإنها تعرض في مسارح غير مناسبة كالمقاهي والحانات.

مضى ذلك العهد، حين كان إصدار بيان من صفحة واحدة يلهب حماس الناس ويحرك المسيرات والمظاهرات ويقض مضجع السلطة، الآن أصبحت الأصوات من داخل السلطة تطالب بإصلاح الأحزاب والنقابات علناً نجد التوازن.

إنه وطن مشوّه الملامح، لا شيء فيه حقيقي، أناسه أنفسهم مزورون كاذبون.

obeikandi.com

المكان الخامس من عام الجنون

ليلة بيضاء منذورة للأحلام المزورة بعينين مفتوحتين على الأرق الداكن، الذي يرقد بجانب قطعة القرية الحامل، وهي متعبة من البحث عن دفء تضع فيه صغارها، ونسمات صباح متأخر يجر وراءه عربة جارنا، الخضار الذي يُعد صناديق التعب، وبومة تستعد للنوم مثلي مضادة لقوانين الفرح. طائفة تحلق بعيداً يظهر منها مصباح أحمر يُنذر بالبعد والحنين وأشياء أخرى تنفلت من الذاكرة وتحيا قرب حشرات الليل وهي تعود إلى غيرانها وأنا أحمل رموشي المرهقة وأنسحب إلى الشعر، أقرأ ما تبقى من عوالق نجيب سرور والريف المصري وأسلم على أول المستيقظين.

لا أحتاج أن أكون شيئاً آخر غير نفسي، هذا قرار اتخذته بأفكار عادية وليس باندفاعات أنية، لكن تنفيذه رابع المستحيلات، فيجب أن أكون متيقناً من أن قلبي لن يخونني. وحدتي هي مسلك عزلة وفاعل هو أنا. لماذا أقول إنه رابع المستحيلات؟ إني أقضي على مخططي وأحكم عليه بالفشل، لذلك أصبح كابوساً يطاردني كل ليلة ألا أحتاج قناعاً أخفي فيه وجهي، أو بمعنى أصح أخفي وراءه، لا، أريد أن يكون لي وجه واحد غير مصطنع أتعامل به حتى مع نفسي، سأكون قاسياً ولن أسمح لأي شبه جملة أن تحطمني، ولا لأي جملة اعتراضية أن تعترض طريقي بدعوى التخصيص أو الشرح.

راقبتها جيداً، كانت عصبية قليلاً، لم تتحمل هول ما ستفعله بقلبي، لم تصدق ما يحدث حولها، كانت تفكر بعقلانية وحزم وأيضاً بكل جرأة، لكنني لاحظت بساطة تفكيرها، تنبأت بكل ما

ستقوله، ولم أكلف قلبي جهد الاحتفاظ بحق الرد، أو حتى تنظيفه مما علق به من أحوال، أجبته بصدق، وهذا شيء آخر، اعتقدت أن الحب هو ذلك الطائر المغرد الذي يحلق فوق رؤوسنا ونحن تبادل تلك النظرات المليئة بالحنان، وتلك القبلات المسروقة من بحر الأوجاع، في شاطئ تمارغت، تغازوت، أماديل.. في تلك اللحظات المفعمة بالأمل، لم أندم على حبي لها، فقد أحببتها لدرجة أصبح معها الحب طاقة تحيط بي، وربما هي كانت موضوعاً مفارقاً. لا علاقة لها بكل الانفعالات الدخيلة، وجملتها الاعتراضية التي حوّلت مجرى النهر هي: أنير طال فراقنا؟! جملة استفهامية وتعجبية، سؤال وجواب، إنهاء تحصيل حاصل، وربما كانت أمنية أو قراراً استسلمت بعدها، قواي الإقناعية تراجعت، في اليوم الذي عرفت فيه معنى اللا جدوى من الكلام، لذلك لم أجادلها، ولم أناقش تسريحتها الجديدة، وماكياها الحداثي.

تركته تقول كل شيء بإشاراتها، المدة التي قضيناها معاً خلقت بيننا لغة مشتركة لا يفهمها غيرنا، وشفرات لا يحفظها غير قلبينا، لا نحتاج إلى كلام كثير لنقول انتهى كل شيء، يكفي أن يدخل أحدهما كود النهاية، والبحث عن السبب من باب العبث، فالفراق سبب ونتيجة، مشكلة وحل، بل نقطة بداية ونهاية في نفس الوقت.

هناك أناس آخرون يحبونني ولا أكثر لهم، وهذا خطأ فادح، فقلبي يستطيع أن يعطي الكثير من الحب. بالانفتاح على الآخرين أستطيع أن أعيش محاطاً بالمشاعر الإيجابية والأحاسيس العادية النقية التي لا يمتلكها إلا الناس البسطاء، ذلك النوع من التواصل والارتياح الذي ينساب إلى دواخل المرء حين يتعامل مع الآخرين، أما الانغلاق على الذات والانكماش فهو من شيم الحلازين، قوقعة الحلزون لا تُظهر ما بداخلها إلا عندما تنكسر. فالحلزون هو ذلك الجار البخيل الذي لا يعرف أحد شكل منزله وليس لديه

غرفة ضيوف.

أليس جميلاً أن تقول لك امرأة بكل أناقتها انتهى كل شيء وإن لها مخططات أخرى مختلفة عن مساراتك، وإنها اكتشفت بزيارة قصيرة إلى طنجة، أنها تعيش وهم الحب معك، والأمر من هذا أن يكون لها مشاريع مغايرة؟ ماذا تفعل في موقف كهذا؟ ألن تكون صرار أقبية تخالط حشرات مجاري المياه العادمة؟ ألن تكون جملة تستعصي على الإغراب؟ ألن تكون خنزيراً تنثا في حظيرة المستعمرين، وستكون أيضاً رجلاً خائته المواقف؟ هل تجرؤ على طرح سؤال لماذا؟ أكيد ستخونك الأسئلة أيضاً، فحين تحالف ضدك المواقف والأسئلة تكون أبكم أصم غير قادر على الانفعال، تبقى جامداً وتتقبل دون شعور بالغثيان قرار لجنة الحب ورسائل طنجة التي لم يأت بها حمام زاجل، بل جاءت على جسد امرأة. امرأة كالإدارة ترتدي الأزرق وتتأبط المشاريع في ملفات خضراء بمساقات رفيعة الذوق، هي التي تصمم كل شيء من الشعار إلى شكل الأقلام إلى نوع الأوراق، هي السكرتيرة الدقيقة العمل التي تهتم بكل تفاصيل العمل وبعض خصوصيات سيد العمل، هي إذن بنظارات سمكة تزيد جمالها جمال المرأة العملية التي تحس بمسؤولية كبيرة وتأنب ضمير إن هي لم تستطع اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ليرضى عنها المدير. هي إذن بحركات محسوبة على قدر تنورتها المستقيمة المخططة، وحذائها الأسود اللامع، كل مواعيدها مضبوطة، كل ملفاتها جاهزة، كل دراسات المشاريع مكتملة. هي المرأة التي تزيد فوق كل هذا الضبط والحضور ابتسامة رقيقة، تنهي بها ملحمة المرأة العملية. ستة أيام في غرفة قديمة، ملأى بالذكريات الحزينة، دخلت أعناق المضاء والمظلمة.

obeikandi.com

بعد أن كانت القرية مستقلة في حضان الجبل أصبحت مرمية بين جبلين في فج ضيق لا يسع أحزانها ولا أعراسها، انشغل الكل بالبناء وإعداد المساكن بالطوب والحجر وكل ما توفر من مواد محلية لا طاقة لهم بجلب الأسمت والحديد، هكذا هي الأوطان تنهض من تحت الركام والتراب لتبني نفسها من جديد، هي كالجمرة لا تنطفئ تمامًا، بل تنتظر فرصة الاشتعال.

ابن العم يا ابن العم.. ماذا هناك؟

نفس السيارة السوداء الفخمة تأتي على الأقل مرتين كل أسبوع، لا يعيرها الناس اهتمامًا فقد ألفوا هذا النوع من السيارات منذ أصبحت القرية بؤرة حمراء أو بقعة سوداء في نظرهم، البعض يجري بحثًا عن زيت الأركان والبعض الآخر يأتي ليأخذ شهادة نضاله المزورة وهو يلتقط صورًا مع بقايا الدمار ويجري أحاديث مع العجائز، صحيح أنهم يتأثرون بحكايات النسوة عن أعوام الترحيل لكن أحاسيسهم رخيصة محدودة باللحظة. وكل المناضلات ينسون بعد عودتهن لفيلاتهن الفارهة ما شاهدنه ذلك اليوم بل وقد يستعينون بطبيب نفسي أو مدرب يوجا ليعيدوا عنهم تلك الحكايا المؤلمة والمضجرة، وليهربوا من هول الصور التي تتفوه بها الكادحات من بنات الدور وكل عذاباتهن مع العمل داخل الضيعات المجاورة وهجرتهن إلى الدار البيضاء كخادمات في البيوت. جاء ابن العم ليخبرني عن السيارة، سرحت بذهني قليلًا، هذا القليل بالنسبة لي قد يمتد ساعة زمن كالعادة، علاقتي به كانت لا تُناقش، هو ابن عمي، أخي وصديقي، وكل شيء في القرية مرتبط به؛ هو عيني على القرية بعد أن رحلت من أجل الدراسة. بقي هو

مثالاً لذلك الرجل البدوي الذي درس إلى المتوسط واكتفى بذلك المستوى ولكن درجة وعيه بالواقع السياسي أكبر من مستوى دراسته، هو يقول إن ذلك بسبب معاشرته لي طوال مكوثي في القرية وأنا أقول إن أزمة السد الملعون جعلت الناس في احتكاك مباشر مع الوعي النضالي دون حاجة لمعلم.

هو ملجئي من غدر الأصدقاء داخل أو خارج القرية، فهو الشخص الذي يجري في دمه بعض من دمي ولم يكن يخطر بباله يومًا ما أن يغدر بي أو يطعنني سواء في القضايا الكبرى أو في شؤون بنات القرية وشبكة العلاقات التي كان يديرها باحترافية كبيرة، وكيف لا هو الشهم الذي يمتلك أخلاق أهل البادية وأخلاق المتعلمين في المدينة؟

يا ابن العم عادت السيارة من جديد وبها امرأة جميلة تصلح لـ..

أعرف لكن دعني فأنا أتذكر.

غدر الأصدقاء يجعلك تحس بالألم في المعدة، يستمر الألم لأيام وينتهي تاركًا أثرًا لجرح عميق أثر في المعدة والذاكرة، يذكرك بأن معارفك الجدد الذين يسعون ليكونوا أصدقاء طيبين أو تسعى أنت لتكون صديقًا مخلصًا لهم قد ينتهون أثرًا لجرح قديم، فلا تستعجل تصنيفهم في عمق قلبك، كلما كانوا في مكان أعمق كان الجرح أعمق وكان الأثر أبرز وكان الألم أشد.

ولكن غدر الحبيب يجعلك تعكف على شعر المتنبي خصوصًا مع شرح الواحدي، ليأخذك بعيدًا في دنيا اللغة والفلسفة. هذا ما فعلته بالضبط، انكبت على شعر المتنبي. وأتذكر..

حين كنت مراهقًا في الثانوية ارتبطت عندي كل فتاة بشاعر، سكينه بدرويش ونعيمة بنزار. فبعد كل أزمة قلبية أبحث عن قصائد أدفن

فيها حزني وخيبة أمني، وأحيانًا أدفن فيها الأنثى ككل وأرحل.
وأُتذكر..

حب، تسع برتقالات وسلّة مهملات، وصبية يلعبون «دينيفري»
وسط الحومة مقابل الفران تمامًا، وفتيات منفوشات الشعر يركضن
في لعبة «السقيطات» ويلتقطن سدادات القنينات الحمراء. لم يكبرن
في عيني إلا بعد أن دخل الحلبة شباب الحومات المجاورة. أي معنى
للمعنى صحبة أجساد بلا شهوة. كن أكبر سنًا وأكثر جرأة. وأنا لا
أدري حينها ما حدث وما لم يحدث، انتهى الأمر فقط بـ: لا تخبر
أحدًا وإلا...
وأُتذكر..

أن كل بنات الثانوية كن جميلات تكفيهن قصيدة واحدة من
سطين لينظرن في أمرك، ولأنه تم استنفاد أغلب قصائد نزار
قررت الرجوع إلى زمن الفروسية، الشعر الجاهلي والأموي مبتعدًا
عن حسية الشعر الأندلسي، أغير من الوزن والقافية حتى يستقيم
المعنى معاصرًا حديثًا، وكم أسعد حين أجد اسم نفس الفتاة في
القصيدة! فلا أحتاج أو أضطر إلى الاعتداء على القريض، فأقول
لهند يا هند ولسلمى يا سلمى.
وأُتذكر..

أو لأتوقف عن التذكر.

obeikandi.com

السيارة السوداء نفسها تعود من جديد، تنزل منها امرأة، ترتدي بنطلونًا جينزًا أسود، جاكيتة سوداء مزخرفة بخرزات ملونة براقّة، حين تسقط عليها أشعة الشمس تظهر لك المرأة نجمة من النجوم أو قطعة بلور ملون، حذاء أحمر يُدّكر بسندريلا الأحلام البنفسجية، امرأة خرجت للتو من حكايا ألف ليلة وليلة، ليست حكايا الرعب الأنثوي بل الأميري الحالم. تنزل بخفة من السيارة في حركة تذكر بنزول أنجلينا جولي عن الدرج في فيلم «مستر آند مسز سميث». في لقطة أبهرت هوليوود وأربكت براد بيت الذي تزوجها بعد ذلك مباشرة ربما، هل هذا ممكن؟ يالتفاصيل النساء! حركة محسوبة المقاس، الابتسامة بين الإغراء والاحتفاء، أصابع اليد في وضعية مقصودة ترفعها إلى الأعلى كراقصة تايلاندية تجيد الدوران وفق زمن بطيء، كأنها ريشة يديرها الهواء تارة وتديره تارة أخرى. يهرول الرجل السائق ليعين المرأة على النزول ممسكًا يدها، تلك الأصابع إذن كانت تناديني، تضع بسرعة النظارات الشمسية باليد اليسرى، نظارات عريضة من دولتشي تغطي معظم الوجه، إنها لا تغطيه بل تضع له إطارًا يجعل نظرك يركز على الفم والشعر المنسدل بدل العينين، وهي حيلة نسائية تلجأ إليها المرأة المتوسطة الجمال لتخفي عينيها وتجعل الناظر يسرح بين الشفتين بدل العينين.

إنها هي..

ماريا..

تحركت مياه السد استنكارًا غضبًا لا احتفاء، السد تحول بركانًا، اشتعل في ثانية، عيناى استحالتا قطعنا زجاج، في حلقي غصة لن

يذبيها ماء النار لو شربته، وسأشربه في لحظة كهذه، أحشائي المتوترة تغرغر في عنف، تحاول لفظ شيء ما، ربما هو آخر جذر للحب يُجتث من قلبي، أو هو آخر بيت شعر يُمحي من ذاكرتي، بل شجرة الحب كلها تنقلع والشعر كله يتفجر في محيط الظلمات، قوافٍ وقُبَل مبعثرة ولكن متواترة كالمصائب. هل أصرخ؟ لا، لا تصرخ؛ هي لن تسمعك؛ هي بعيدة في الأعلى في قمة الجبل وأنت تحت في فج بين جبلين مع تلة من الأصدقاء قرب المسجد تتحدثون في أمر الماء الصالح للشرب. هي لن تسمعك؛ لسانك متصلب وحروفك ليست إنسانية، اللغة المعتادة هجرتك، اليوم لن تسحب عينيها بنظراتك ولن تستجلب سمعها بهمسائك، إنها تضع نظارات دولتشي وأذانها ورقية الصنع، لا تصرخ، الصراخ-يا ضبع- لن يفيدك، إن أهدابها لا ترف كما في السابق، انظر إليها إنها تحملق في الجبال حملة دمية بلاستيكية صينية الصنع.

ذلك وأنه حين تصادفني صدمة كهربائية كهذه خصوصًا وهي تجلب معها ذكريات حقيقية أتجه بطلي إلى الشعر؛ إنه الوحيد الذي يبدو أحسن عليّ من السرد، فليعذرني قارئ الكريم على انقطاع السرد وليأخذ بعين الاعتبار قوة الصدمة الموازية لحركة عاطفية مرتبطة بالرواية والواقع الحقيقي.

وفي غياب الأصدقاء الذين سبق أن حكيت لكم غدرهم بي، ولانشغال ابن العم بأمور الرعي والماشية وحصص الماء.

وفي ازدحام الأصوات التي تنادي بقرب النهاية، أتوقف.

وأقول لكم الريشة انكسرت والدواة فرغت.

لن تصدقوني، إذن لنقل إن الملامس وذاكرة الحاسوب تعطلت.

أو لنقل مع شاعرنا المعاصر شهاب غانم:

«إنني أدنو من الخط الأخير

أنا في الصهوة مكتوف الذراعين.. وشهبائي تطير

وبوجهي تعصف الريح

وللريح صفير».

كنت أدري أن الشعر منطلق وموصلي، كنت أدري أن فن التسوق من دكان الكلام الموزون واللا موزون هواية أحستها منذ الثانوية، فهو الذي ينتشلي بحنان من براثن القسوة والظلم، ولكن لم أكن أدري أن ماريا مهندسة الديكور قد تبعني وتبيع قضيتي. ليس حي الذي مات، فقد دفته منذ زمن في مقبرة النسيان، ولكن اليوم جينات ومستقبلات الحب تسرطن، فلا طبيب عشق يداويها ولا أشعة فوق جمالية الإنسان قد تحد تسرطنها، إنها تستمر في التكاثر، في النمو، ولا يحدها لغو صديق ولا حي جده ولا ثقة ابن العم. سقطت أقنعة السرد وظهرت الحقيقة.

ماريا تكسرت فتيت زجاج تساقط كأوراق الخريف، كالكلمات المهجورة في القواميس.

obeikandi.com

أنا لك بالمرصاد، فوطني أغلى منك ألف مرة ومرتين، خذي
حزنك وارحلي فأنا أدرى منك بنفسك ماريًا، ومشروعك فاشل لا
محالة إلا على جثتي.

هذا ما قلته في نفسي حينها وتصرفت بقوة أملاها منطق الدفاع
عن قريتي. الدفاع. إن فكرة النضال توسع شراييني وتستحث قوى
الحماس في جسدي، أحسن كتلة من الصخر والحجر مستعدة
للتدحرج، للفتك بقوى الذل والاستغلال، أحسن شمسًا من القيم
تعمي مدارات الظلام، من أين لي كل هذا النبل؟ أمن الظلم
المقبل على القرية كغراب، أم من رائحة الجبال المحيطة بها؟ أملاً
رثي ببخور سري يقدمه لي الجبل الأقرب إلي الآن، هو تواطؤ مخفي
واتفاق بيني وبينه. كما يشتم البعض رائحة البحر وطحالبه أشم
أنا رائحة الجبال بنباتات الشيح التي تغلفه، أحبس في صدري كتلة
هائلة من الهواء كاحتياط أعود إليه في غربتي وابتعادي، لكن الجبل
دائمًا في قلبي. أحب طيور الحجل البنية، تشبه الدجاج في بنيتها
وريشها، انتبهت أخيرًا إلى فصول الاختلاف بيننا، هي كانت تحب
النوارس والبجع وأنا أحب الحجل والحمام والدوري الصغير.

كانت رحلة قنص الحجل من أمتع طقوس القرية. نخرج في جمع
من الشبان بعد منتصف الليل حين تكون الحجلة نائمة محتضنة
صغارها بحنان في عشها الأرضي، الجميع يحمل كشاف ضوء في
يده، فالضوء يعميها ويمنعها من رؤية الأشياء ليلاً. كان القنص
بعضي خشبية تضرب بها الحجلة عن قرب بعد تسليط الضوء
عليها مباشرة بقوة وبخفة، يجب على القناص الاقتراب من العش
في صمت جنائزي كي لا تحس به، يهوي عليها ضربًا بالعصا. مقتنعًا

أن عشاء الغد قد ضمن وأن الحجلة من قبيلة الدجاج ستطعم الأسرة الجائعة.

من أمتع طقوس الشباب، لكن المهووس بالأسئلة مثلي المحروم من نعمة التغاضي عن الأمور، ما كان ليستمع في صمت، كنت أبحث عن صغار الحجلة، هي تفرقهم في آخر لحظة في حركة أسرع من البرق وتجعلهم يختفون عن الأنظار. كانت تعرف أن اجتماعهم في وقت الحرب مهلك لهم، كأنها تقول لهم ادخلوا من أبواب متفرقة كي لا يقتلكم بنو البشر الجائعين، القنص لم يكن ترفاً، بل كان ضرورة، الطبيعة تفرض نفسها علينا.

- لن تجدهم أبداً. (قال ابن العم).

- لونهم كلون التراب وسكونهم كسكون الموت، لن يتحركوا ما دام الضجيج حولهم.

- عجيب أمر الحجلة، تدافع عن صغارها حتى آخر لحظة.

- إنها أم.

- أنير هل نقطع عن قنص الحجل ربما هذا يؤلمك.

قالها السعيد في لؤم واضح وأتبع كلامه بضحكة مجلجلة، لم يضحك غيره لكنه استمر في كلامه.

- أنير لم تصطد أي طائر اليوم، ربما عسيمة الذرة غذاء جيد لرهافة الحس.

يوجه كشاف الضوء نحوي ليتأكد من تعابير وجهي، ولكني كنت كالصنم لا يُقرأ شيء في ملامحي، أضع هذا القناع حين لا أحب التعليق على سخرية أحدهم وحين أرفض الدخول في جدال كلامي مع الشباب. توجيه كشاف ضوء في وجه أحدهم في القرية خصوصاً إن كان ذلك أمام جمع من الناس، فتلك وقاحة غير مقبولة بين الشباب، خصوصاً أنهم يستغلون بقع الظلام لسحب

نفحات الحشيش، وأغراض أخرى. ولذلك تجد أن الكبار -الآباء على الخصوص- تتقوى لديهم حاسة السمع، فهي التي تعينهم على تحديد مكان أبنائهم أثناء البحث عنهم ليلاً.

- أنير لن يكون قروياً جلفاً مثلك يا السعيد، تنتظره المدارس الكبرى، سيكون من الحكمة أن تتدرب أنت على اقتناص الحجل، فربما لن تجد شيئاً تأكله ما لم تخرج ليلاً كقط البراري وكثعلب الجبال الهزيل.

رد عليه ابن العم الذي تحركت فيه دماء العائلة كالعادة ونصّب نفسه مدافعاً عني، كثيراً ما يفعل ذلك، بل دائماً. لذلك ربما كانت له تلك المكانة المتميزة في قلبي. تركتهما يتجادلان في عنف ويتضحكان في سخرية، يقهقهان أحياناً كأن مسرحية هزلية تعرض أمامهما في هذا الليل الحالك. من قال إننا لا نحتاج إلى نظام القبيلة؟ أليست هي التي تحتضن الفرد في حنان وتمنع عنه طغيان الآخر؟

جمعت حفنة صغيرة من الحصى والأعشاب اليابسة ونثرتها عليهما فازدادا ضحكاً، حتى أمسك السعيد بطنه الضامرة من شدة الضحك.

- هل قلت ثعلب الجبل الجائع؟
- الله يجازيك يا السعيد! وأنت قلت إني كلب الجيران الذي يخرج أحمر الشفاه من بين رجليه.

تعالى صوتهما في سكون الليل المطبق والقرية هناك قرب الجبل تنام في عمق، أتخيل كل منزل فيها كيف يعيش أهله، أين ينامون، ومتى سيسيقظون بالضبط.

- اقترب يا أنير وخذ لك نَقَسًا، لا تبالي بالحجلة التي ضاعت منا، غداً نمسك بها، على الأقل عرفنا أين تضع أعشاشها.

- لا رغبة لي بالسجائر، بالصحة والراحة.

- لكنها ليست سجائر عادية إنها سجائر منتصف الليل.

بدءاً موجة جديدة من الضحك والصراخ انخرطت فيها أنا أيضاً، كأنها عدوى انتشرت بيننا. عدوى الضحك والثرثرة والسجائر، حتى كاد النوم يغلبنا وسط الغابة. تنهأ إلى سمعنا صوت فقيه القرية يستعد لأذان الفجر بقراءة أدعية وأوراد في بوق المسجد، بعدها انقطع صوته برهة من الزمن فانطلق من جديد بأذان الصبح بصوت قوي.

- الصلاة خير من النوم.

هكذا تمر ليالي القنص بين نوم ثقيل وسيجارة وإغفاءة وثرثرة وضحك مدوّ حتى الفجر، لا ينبهنا إلا صوت الفقيه الذي تخيله غاضباً منا، ينظر إلينا بنظرة الأسدية، وإلا كيف نفسّر وصول صوته إلينا ونحن في وسط الغاب بعيداً عن الدوار؟ ربما بسبب ارتفاع القرية والمئذنة ينتشر الصوت في الأرجاء، ولكن الأكيد أن السبب مخزون العقاب الذي ارتبط لدينا بالفقيه فأصبحنا نسمع صوته في حلنا وترحالنا، يقظتنا ومنامنا، كنا نخاف منه ونحبه في نفس الوقت، أنا عن نفسي ما زلت أقبّل يده بحب لا مجاملة فيه. هو سيد مهرجانات حفظ القرآن وحفلات العقيقة والأعراس، وحتى الجنائز والقبور هو سيدها. يستغل كل لحظة تجمّع للدعوة إلى الله، خصوصاً عند دفن ميت، تلك كانت لحظته الأبرز، كأنه يقول أليس هذا ما تبتهكم إليه، يكون حينها سيد الموقف وملك الكلمات التي تتبع من صدره لتدخل صدور الحاضرين الخائفين من حضرة الموت. تلك كانت حفلة وأوجّ انشراحه، لا أدري لماذا يكون الفقيه قوياً رفقة الموت!

يا إمام، بي نازلة لم ترد في كتب الفقهاء ولا سير البلغاء، لا حد لها على أعتاب الفهارس، ولا مثل لها في الهوامش، أفطني في

سبع نوارس وموج ينساب عبر حروفي يحطمها فتيت لغة محكمة
بالحياة حصراً على أنقاض طليطلة وعلى قوافي طليلات امرئ
القيس، موج يهرسني كبندقة وقعت بين في سنجاب متكبر
يكسرها كي لا تُثبت في عشه سلالة الوله، ويصورني كبوم محكوم
بالحزن المؤبد أحكي للمارين قصتها، هي وهو، وهي وهو، وهو
وهو.. ساعة من كل دقيقة تمر، ولأن اليوم بضع وعشرون ألفاً
من الساعات فأنا أحصي إرثاً ثقيلاً من النكسات. أفأفني يا إمام
في سقف ييوح بحبه للباحة وحائط يهوى الساحة وسطيحة تنوح
من هول ما سيحدث. أفأفني يا إمام، لا قياس ولا اجتهد، كومة
من الخراب وسؤال يضيق من فرط ما رأى، فأنا كلغتي مهووس
بعلامات الترقيع المعلقة في الفراغ من شدة الفزع.

أفأفني في سبع سنبلات زرق هجرهن الحُب والحَب، تركهن القمح
وراح يلهو رفقة شقائق النعمان، ونخلات في زاكورة يرميننا بالفقر
لا بالتمر، أفأفني في تسع أرامل لفظهن الوطن تحت قنطرة وهن
يودعن أزواجهن الشهداء دون مراسم دفن، أفأفني في خمس نخلات
يعفن حبوب اللقاح، بخلاً يخزّن العسل ويصنعن العفن، أفأفني
في غجرية تصوم الدهر وقرؤية ترقص في الحانات، أفأفني أتوسل
إليك أفأفني في شهريار يحيي خوفاً من شهرزاد.

obeikandi.com

كل هذا التاريخ يملأ شراييني ويدفعني للدفاع حتى الموت عن
قريتنا، هذا التاريخ هو ما يملأ حناجرنا بالشعارات في المظاهرات،
ويملاً أخيلتنا في المعتقلات، ويقوي عزمنا أمام المحققين الذين
يمتهنون شراء الذمم بعد أن يفشل مخطط التعذيب والجلد.
أتجه صوب الجبل، إذن أستم رائحته، ينظر نحوي ابن العم في
خوف وترقب.

- أعرف هذه النظرات، أنت تستعد لحرب، من تكون تلك المرأة
أنير؟

أنير أيها الجبل، أنير أيها الباب الخشبي الثقيل ذا المسامير
الغليظة، تتبع منك رائحة العرعار تلمع في عينيك أوراق أشجار
الجوز ومياه العين. تبرق في عينيك معاني النضال المقدس وتحترق
في داخلك جوازات السفر، أنت تستعد لكل وجهة ومعبر.
- أعرف هذه النظرات ونحن معك. يكفي أن تعزف سمفونيتك
لتجد جنودك مصطفين أمامك يا جنرال.

هي ربما قضيتي وحدي يا ابن العم، هنا اختلط الحب بالدم،
هنا مدارات الشرف والماء. هل أعزف سمفونية ساحة الوغى أم
ترانيم العشق الهارب من وراء الجدران.

قبل سطور اكتشفت ثوري وزلزلة الصفحة المرافقة لها.
قبل سطور عرفت أي رجل القلم الذي تراءى لجدي رفقة
سكرات الموت.

ها أنا ذا إذن قلبي للوطن، قلبي لتراب الوطن. حساسية مفرطة
ضد انحناء الكرامة وركوع العزة.

ما زلت أحفظ شعر أيوب مديان عن ظهر قلب، الشاعر الذي

كان يكتب كأنه ينحت، كان ينجح دومًا في التعبير عما أريده بجمل
قوية كالأسمنت المسلح بالمجاز.

يقول:

والضوء يثقب ليل بلادي

بيننا محارٌّ

وحيتان البحر الراقصة

على مسرح الأطلسي

تشبث بعروق اليابسة

تشبث بليل بلادي

أخضر..

كشجرات الأركان العابسة

بيننا صوت المدى

سحيقًا في هوائنا الملغوم

كالردى أو كنار الله الموقدة

أوقدوا لنا النجوم

أوقدوا لنا سراج بلادنا

أخضر أبدى كالربيع

ولا توجعوا جسد الرضيع

لا ترموا النار في الهزيع

فإن الفجر بعيني

لا ولن ينام.

يا ابن الجسر المنيع

باسم السراب الممتد في حلمنا

أقول بيننا سراب الماضي الميت

ووجع القادم الباهت

كسحابة العدم

لا تمطر غير الألم
وبدمٍ فصيح اللون
ترسم جدارية الكون ملحميةً
من زمن الإلياذة
تخلد بطولاتها الكاذبة
إلى زمن الياسمين
والجدة التي نذبت حظ
حفيدها من الرصاص.
فالبلاد بلادي
يا زمن القصاص.

ثورتي أيضًا ضدك أنت، ترى هل أحببتك حقًا حينها؟ ويعود
السؤال من جديد: هل كان حبًا ما حدث بيننا؟ أحببتك.. أكيد
فعلت، ولكن لم يقف غروري الآن في وجه الاعتراف. هل أنا متشبت
بالمقولة القديمة التي تعتبر الاعتراف بالحب تذللًا ومهانة؟ أليس
التذل للحبية قمة العطاء الذي بدونه لا حب يتذوق طعمه؟
كذاكرة رمل الشاطئ أحتزن لحظات منك أثناء وصالك وألامسها
حينًا أثناء جزرك. ترمقينني بالصدفة وأنا أقبل الصدف لأشم فيه
عينيك. وأسمع منه حكايات حوريات البحر البرازيليات يرقصن
السامبا على أعتاب انتظاري. وحكايات أخرى يرويها الغليون من
فم سيد قبيلة من الهنود الحمر. يحدثهم عني. وأسمع أيضًا
قارعي طبول الطايكو اليابانيين يقلدون دقات قلبي. وأنت تمدين
رجليك فوق جراحاتي كفضيعة قريتنا حين ينهي قراءة سورة الكهف
ليلة الجمعة. لا هم لك سوى اللعب بقنافذ البحر الذين يرمونك
بجمل غزل من لغة الجراد النزق. أحترق غيرة ولكني سأنتظر
توقيت مدك لأبلل معتقداتي بجمالية العشق تحت سلطان لا

مبالاتك.

كانت لقياك من نوع الموج، تجعل أضلعي كصدف الشاطئ
يتمايل مع مدك وجزرك، صدف احتضن لأولوة من النوع النادر
المستعصي على الاحتضان، خطأ في النشرة الجوية، ونحن على
جبل الأطلس غمامتين مكهربتين تبتعد كل واحدة عن الأخرى.

لأن الله فرض التداوي تناولت مسكن العشق، على شكل حقنة
عدم اكتراث، تنغرز في القلب مباشرة مع ضرورة الحجامة لإزالة
الدم الفاسد في ثيايا الذاكرة.

أحتاج أنا ووطني إلى عملية جراحية، المبضع والمشرط والملاقط،
نحتاج عملية قلب مفتوح على احتمالات ثورة وثورة مضادة وقمع
وقناصة وموت ودم ونار ودخان ورماد.

على بعد أميال من ثورتي الصغيرة، مغتبطاً حد الانتشاء بثورة
أكبر، أنظر في أمر ثورة على مسميات الزهور. وأفرح أفرح لشعوب
طيبة انعتقت من تاريخ ليس تاريخها ومن جغرافيا ربطت شطآنها
بحدود المزابل وحاويات القمامة.

أسياد يراهنون على شعوب من قش صنعوها بالخوف والدم.
اشتعلت النيران وكان القش الاحتمال الأهزل، وعنوان الضعف الأبرز
الذي ينتشر كالنار في الهشيم حارقاً جزيئات مادة كانت بالأمس
غير قابلة للاشتعال، وها هي اليوم كجسد محموم بالحب تحت
كل شعرة منه ثورة.

انتبه.. فالإنسان مادة قابلة للاشتعال، يترك بعيداً عن تناول
الفاستين.

منارة البحارة الضائعين:

المركب القديم يصارع البحر، تتقاذفه أمواج عاتية، تحن عليه المنارة وتضيء له الطريق، لا فائدة فالبهار ليس الرجل العجوز من رواية «همنغواي». تصرخ المنارة كما لم تفعل من قبل. كان نور عيونها كافيًا لإرشاد المراكب الضائعة، لكن هذا المركب البائس أثار غريزة الأمر فيها فصرخت. انتبهت السفن المجاورة للمركب الصغير، اقتربت منه أكثر مما يلزم فأغرقت بالقدائف. السور والمدينة:

قَبْل السور المدينة وقال لها كلامًا غير محتشم (بلغة الأطفال)، ثم فاها عانقها عناقًا خفيًا، احترامًا للقصات المنيع، مر طفل صغير بالعليهما، عجوز رفع جلبابه وأفرغ معيه الغليظ قريهما، انتفضت المدينة من بين يديه مستنكرة سكوته المخزي، قال لها كلامًا قاسيًا غير محتشم (بلغة الكبار)، نظرت إليه في بغض وتركته ورحلت إلى حضنه، فسموها الراحلة.

حديث سنبلة:

كلما رآته رفقتها يحتفل جرحها بعيد ميلاده، استباح مساحة كبيرة من حبها ومساحة أكبر من جسدها، دون أن تخبر أحدًا انكشمت على حزنها تداويه بالصمت، المرارة تعصر جسدها النحيف. هي تدري أن الصمت في مجتمع جرائم الشرف هو الحل الوحيد بعد أن وقعت قطرات الدم في حقل السنابل، كان فلاحًا ابن قريتها، ذبلت حمرة شقائق النعمان وماتت.

بائع العمائم:

السوق مكانًا والضحي زمانًا اخترتهما لقصتي. التاجر المتجول

خط رحاله وعمائمه في كومة تغري الزبائن، عمائم بيضاء على الخصوص، يصرخ عاليًا: لكل رجل تقيّ، لكل طالب علم ورع، لكل فقيه مسجد، لكل شيخ وقور عمامة بيضاء.. لم يعره أحد اهتمامًا؛ ربط وسطه بالعمامة وبدأ يرقص على إيقاع الشعبي السريع، فالتف حوله الناس يساومون ويشترّون.

جبل التحدي:

قرر تحدي الجبل، سيتسلقه إلى أعلى قمة، هو لا يدري أن فوق كل قمة قمة، لم يجهز نفسه للرحلة التي لن تستغرق إلا ساعات حسب تقديره، انطلق تتقطع أنفاسه، رآها في كل صخرة من صخور الجبل تشجعه، بل وتناديه هيت لك، وصل القمة الأولى، تعب، جلس يستريح، تذكر المثل الأمازيغي أسونفو دو وساون أورتيكي، نظر إلى السهل فقال أتحداك أيها السهل المنبسط.

الكرسي الفارغ:

آن للبحر أن يمّسد ظهره في رفق كما يفعل بالشواطئ، اغمزيه، ناوليه المرهم الواقي من الشمس ناوليه الشمس ليسمر بشرتك، ناوليه القبعة ليغطي شعرك، ناوليه الحب كي يترجمه إلى حركات وسكنات، ناوليه الإخلاص ليطعم منه الصخور. ساعة وأنت تحلمين بالعبارات المناسبة لشروذك. ناوليه الفوطة ليمسح خيانتك لك، كان كرسيه فارغات منه.

شفرات حلاقة:

أوه يا لطيف! دم يسيل على الذاكرة، يختلط بصابون الألم ويرسم لوحة، ما بك؟ حادث حلاقة لا خسائر غير خدش بخدي الأيسر. مرآة غطاها بخار الماء، ذاك ليس وجهي، أشباح كثيرة وغريبة. وضع ياسين شفرة داخل الكأس البلاستيكي الذي تتزاحم

فيه شفرات أخرى. الماء يغسل الدم والمرآة تحسن الصمت،
وتبقى شفرات الحلاقة.

كبة وكتاب فلسفة:

شجارهما ينتهي دوّمًا بتكسير أواني المطبخ، هو: أنتِ لست من
أردت دوّمًا، هي: وأنتِ لست من ابتغيته يوّمًا. هو: اغربي عن
مجالى. يضرب الحائط بقوة. هي: ابتعد عن أحلامي. يأخذ كتاب
نيتشه وينزوي في مكتبته. ينسج كلماته بعنف القلم. تأخذ كبة
خيوطها البنفسجية وتكعب تسرد سريدة صغيرتهما. كأنها تكتب
بلغة الخيوط الصوفية.

رحلة صيد:

يا جميلة، يا غزال تحدثي إليّ، ماذا فعلت لك. عرف رشيد منزلها
عرف السيكتور الذي تتحرك فيه، يمكن له الآن أن يصادفها في
دروب المدينة القديمة متى أراد، بل كل مساء حين ينتهي من
العمل في الكراج. أحبت إصراره، عشقها، أخرجه من مراهقته كبر
حبهما تزوجا. من أنت صغيري حمزة بن رشيد الميكانيك وفاطمة
الخيطة.

وكل ذلك والأئين يتسلل بصمت الحية إلى الكلام وحشجة الحزن
تقبع خلف بلعوم الندم. نمتطي الأيام كفرسان ونزل عنها
كعبيد، تمتطينا الأيام كجياذ وتركنا كبغال مسنة، لا تصلح حتى
للعبرة.

الوطن تعرّى من كلمات العزة المحتشمة، تعرى كأي عارضة في
ملهى جنسي، يرمي ملابسه الرخيصة على شعب من الأحرار، كانوا
يوّمًا أحرارًا، قطعة قطعة يقدم نفسه كأي عاهرة بلاستيكية. قرر

اليوم على غير العادة أن يهدينا الشهداء على مائدة الطعام.
الشباب قربان التاريخ. ودمهم شربة ماء دراكولا في قلعته.
الحب ينحت نفسه كبرج عاجي لا أستطيع دخوله دون وساطة
الوزراء، والزمن يسير وكل شيء أصبح ذكرى. والحب يلتحف أغشية
النسيان واللا توقع، وكذلك، هناك قلبي المسكين جريح الثورة
والقلم. قربان القرية والندم.

وأَتَذَكِّرُ..

بملعقة صغيرة بحجم البنصر تناولني حلوى الكريم شانتيه،
قطعة قطعة، تضعها في فمي بأناقة وصولاً إلى حبة الكرز الحمراء
التي تذكرني بكل الأفلام الرومانسية المحاذية للجنس، ولكن
احتجت أجمل من هذا، احتجت رؤية أصابعها الرقيقة وهي
تناولني الملعقة الفضية، وتآلق الخاتم الذهبي الملولب على
إصبعها الوسطى، أشياء من عالم المعادن النفيسة واللمعان
الأنيق، انتهت من الحلوى في صحنى وأنا في غمرة ارتبائي بانتهاء
وجبة الحب وسفر الأصابع الرقيقة كطيف أزرق من عالم أليس
الفرنسية، وأنا أستفيق من نشوتي الهضمية أنظر في خجل إلى
صحنها الذي لم تلمسه ملعقة.

وكانت دائماً تطلب مني أن أقرأ لها قصيدة الشاعر أيوب مديان
بصوت مرتفع، نعشقه ذلك الشاعر من مدينة تارودانت، يكتب لنا
سيناريوهات عشقية من زمن السخاء العاطفي.

يقول:

ثمة مساءً لم تأفل شمسهُ بعد..

ورؤى لم تتحقق..

رموشٌ تغلق على حُبٍ..

والمكان في دائرة الوهم..

وبعض الوجع صار غزيراً كالمطر..

وكل السحاب..

خيوط دخان سيجارة فرنسية..

ينساب في الأفق اللا منتهى..

مأخودون نحن بالغروب..
مهووسون بالسراب..
فستانٌ يجر أطرافه على الأرض
ويرخيها..
كما يرخي الكون ظلاله..
بُعِيد الوقت بقليل..
أكون سيد قوانين الفيزياء..
منتصرًا على الذات والطبيعة معًا..
منتصرًا على الحب والخديعة..
ها أنا أشتاقك مرةً أخرى بعد زمنٍ..
ليت الذي كان ما كان..
أنا فارغٌ مني مليءٌ بك..
الليلة أحاصرك شبًّا من ظلٍ وهواءٍ..
أحتاجك كما يحتاج القلب وريده..
كما يحتاج الكون سماءه..
وكما تحتاج عيني البكاء الآن..
أحسك تخرقين أضلعي..
أحسني اخترق مساء عينيك العسليتين عند الغروب..
لا أريد أن أكون حلمًا مهجرًا إلى حدود شفئك
لا أريد الموت قتيلًا..
بعيدًا عن عينيك.

أنقذتني هذه القصيدة من موقفي غير الجمالي وسحرت مساء
اللهفة آنذاك. هناك قصائد كتبت لتسحر، لتقول كل شيء بدلاً
عنك.

أنا القروي الجلف غليظ المشاعر البعيد كل البعد عن الإتيكيت

الفرنسي بُعد السماء عن الأرض، نسيت إطعامها حلواها بالتناوب
معي، بقيت ألتهم كأي قرد استوائيّ، وأسرح بذهني في جميع
اتجاهات الأفلام الرومانسية وأغاني أزنافور، مثل هذه اللحظات
هي التي تجعلك تحتقر أسلوب عيشك البدوي.

الساعة الهدية التي أحضرتها معي ساعدت على تخفيف حدة
بداوتي، غريب! للنساء حسابات عاطفية تحول عن طريق المعادن
مباشرة إلى مصارف القلب، لتغفر لك المرأة كل شيء بساعة مذهب
من توقيع أحدهم، هي لا تستطيع أن تتحكم في ميولها المادية،
والرجل بتفكيره المصلحي يزي توجهاها الفلزية ليرتكب بارتياح
خطاياها نحوها.

رجل بلحيته السوداء المعفي عنها ينظر إلينا في كُره وحقد
أفهمهما جيداً فقد جعلنا من مقهى في عمق المحافظة مرتعاً
لحركات همجية في نظره، أعرف أنه على حق لكن أمراض العاطفية
تحول بيني وبين رؤيته الملائكية. عفوك عزيزي. احتراماتي لك.
وأعود لحركاتي الهمجية في محاولة لإصلاح بدويتي الجلفة المتوحشة
أمام امرأة تتقن فن الملاحظة الدقيقة.

ولم أتذكر كل تلك التفاصيل ولم تكن في نيتي آنذاك كتابة
قصص حزينة؟!

obeikandi.com

نوستالجي

نتشابه

أنت رقيقة

وأنا كذلك

نوستالجي

أفكر فيها

أناديها

في الليل

تعيش هناك

في بلاد البرد

حيث الريح دوماً

تأخذني وأنا أحلم

حيث تتلج ناراً

وتمطر زرقه

كانت جميلة

نوستالجي

نوستالجي

نتشابه

هو دجنبر بلدك

..

كان بודהا أن تحرق حياتها

تحت ربيع حقيقي

كان عمرها عشرين

أخذت البحر
في اتجاه سماء
أكثر صفاء
وتركت الرمادي
نوستالجي.

خوليو إجليسياس
وأنا في حاجة إلى بعض الحب.
لا أنكر على ذاتي بعض الحب.
أنا المسخ من بني البشر أحتاج الحب.

يدمني لحن غريب من الجفاف العاطفي، يقلق استكانتي
لسنوات من الجمود، أنتظر شيئاً يسمى شيئاً، أتعجب حقاً من
جسدي الميت، من صوري على جدران الصمت، من احتضاني
لوسادات البرود، أكل هذا السكون لأنسى ماريا؟ وهل نسيتها حقاً؟
هي وقفت بيني وبين الوطن في رعونة عسكرية، وأنا لا أحسن فن
التصويب، أصوب على العدو والخائن ومن جاورهما.

ولمَ الندم وعلاقتي شرعية حتمًا مع التاريخ وموقفي يشهد له
الصديق وابن العم؟ والآن ماذا؟ جسد محمل بالخيبات وقلب
مثقل بالانكسارات، وقرية مستكنة على سفح الجبل كحمامة على
بيضتين. رتيبة هي الحياة بطيئة الحركة، وجسدي أيضًا مستكين
كالقرية يراقب الأعراس والمآتم.

خرجت من الدوار أحمل أفكار في قفة بالية.

«تمان تاركا» مكان ظليل تغطيه شجرة جوز كبيرة، تمر وسطه ساقية ماء أسمنتية لا يتجاوز عرضها أربعين سنتيمترًا، تنقل الماء للمدرجات الزراعية، مأوها بارد حتى في فصل الصيف، مكان ساحر يجذب الكل خصوصًا شباب القرية الذين يراقبون شابات القرية، اللواتي يتمايلن دلالاً كلما اقتربن من الساقية، هذه كبرت وهذه ما زالت صغيرة، بنت دا علي عمّر الحب قلبها، بنت دا صالح أيضًا صحيح ما زالت في المستوى السادس ولكنها سرعان ما تتفتق أنوثتها ويتفجر صدرها تلتين.

- أنا من سيريها على طريق الحب، قال أحدهم.
- لا أنت ستعدها فقط لمن يقطفها منك، ستتعلم على يديك كيف تتجاوب وتتجاوز مع جمل الغزل، وتترك وتوجه لغيرك، هذا ما يحدث دائماً، كلهن هكذا، بنات القرية.
- هل رأيتم أخت صالحة، هي الأروع في بيت دا جامع، بورك عملك يا رجل، عشت يا دا جامع لتلد مزيدياً من زهرات الربيع.
- ولكن بناته لا يقدمن سوى الكلام، لا تدعك تلمسها ولو بيدك اليسرى.

- لقد نسيتم عائشة بنت دا الحسين، وعيناها العسليتين لا توجد مثيلة لها في القرى المجاورة، حبة نادرة.
- إنها أختي يا حمار الطاحونة.
- وهل أنت هنا؟

تنتهي نقاشات «تمان تاركا» دائماً بالشجار، ليس دائماً ولكن هي دائماً تنطلق من الحب وتعود إليه كأنها برلمان العشاق كل يدي برأيه، وفيه أيضًا ترسل الشيفرات والرسائل حين يحتد الصراع حول

إحداهن. وكأن هذا التجمع الذكوري الغامض يتحكم في كل علاقات الغرام في القرية، فهناك من يعلن مثلاً أنه سترك فلانة، ليستعد من هو مهووس بها للتجربة، فتجد الفتاة تنتقل من يد إلى يد كدمية بلاستيكية دون أن تدري، لذلك فتيات القرية ساذجات، وذكورها يهندسون بذكاء كل حركات العشق في قريتهم.

أحياناً حين يرخي الظلام سدوله ينتقل التجمع إلى وسط القرية تحت سور المسجد، وعندما يغادر شيوخ القرية يتسلل الشباب إلى بيت النار أو موقد ماء الوضوء والغسل، يخرجون منه بعض الجمرات الملتهبة ليستدفئوا بها وليشعلوا بها السجائر والجوانات. قدسية قاعة الصلاة لا تصل إلى غرفة النار. ذلك طريق مضيء بنور الطاعة وهذا ينتهي إلى رماد.

مرت أيام هادئة، شهور هادئة، مر موسم الحصاد بكل تعبته، بشمسه الحارقة، الصيف بأعراسه، بأحواش بألوان الفرح والحناء، القرية هادئة لا يعكر صفوها إلا تلك المشاحنات التقليدية بين وجوه متعادية منذ القدم، قلوبها متباغضة تكفي أن تتسلل عنزة أحدهم لحقل الآخر حتى يهدد بالحاكم، ويبيع ما تبقى من ماشيته ليدفع أتعاب المحامي ورشاوى القضاة، انتصارًا للبغض والحقد والحسد، وكل هذا يدخل ضمن الهدوء الروتيني أيضًا.

حضرت عرس فتيات كثيرات، فائقات الجمال، خدمت في عرسهن في الاستقبال والطهي والرقص والنقر على الطبل والدف، «ماذا تنتظر أنير؟»، «متى نرقص في عرسك ونفرح بك؟»، كان لتلك التعليقات صداها في جوفي لم أرغب في سماعها ولكن الناس هنا لا يستأذنونك في الحديث عن أمورك الشخصية، لا توجد أمور شخصية في مجتمع التشارك، حيث كل شيء مشاع يدلي فيه العام والخاص، فلو تجاوزت سن الزواج بقليل يبحثون في صلاحية أعضائك، كل شيء معد سلفًا من قبل التقاليد والتاريخ، والعائلة والجد والجدة وأنت كفرد تابع يجب أن تسير في درب محدد، وإلا أثرت حولك أسئلة لن تعجبك احتمالات الإجابة عنها، الناس هنا أفكارهم على ألسنتهم وألسنتهم خارج أفواههم. وتلك التعليقات والجمال المحشوة بالإشارات تجعلك بتكرارها وتواترها تستسلم دون وعي منك وتسير أنت أيضًا في ذلك الدرب القصير من الزواج والإنجاب و... ولكن أليس هذا هو الدرب اليسير؟ الكل تزوجوا وأنجبوا، شباب جيلي والجيل الموالي الذين لم يعيشوا التهجير ولم تتسخ ذكرتهم بمشاهد الدمار، لهم أولاد في الابتدائي يحملون محافظهم

كل صباح في اتجاه المدرسة. تلك الحياة التي يجب أن تكون وألا يزعجها أحد، كل صباح يذهب الطفل للمدرسة، الأب للحقل والأم تعد طعام الغداء. أليس ذلك ما يجب أن يكون؟ أنا هو ذلك المسخ من الإنسان الذي تحدث عنه كافكا ذات يوم.

تتسع الهوة بيني وبين أفراد جيلي كأني لست منهم، خلعوا سراويل الجينز أو لبسوا فوقها فوقيات وجلايب وانخرطوا في حياة القرية والأسرة والصغار والأشغال اليومية من سقي ورعي ورفش وحرث، يعملون حتى المساء في الضيعات المجاورة، ضيعات البرتقال المنتشرة على أراضي الجموع والسلالات، الضيعات التي التف أصحابها من ذوي النفوذ على القوانين ليسلبوها من أصحابها مقابل دراهم معدودات، الذين أعماهم الطمع يتنازلون عن أراضيهم معتقدين أن مال التنازل يدوم إلى الأبد، ولكن سرعان ما يكتشفون سخفهم ليجدوا أنفسهم عمالاً مياومين على أرض كانت يومًا ما أرضهم.. يعودون في المساء محملين بالتعب وبكيلوجرامات من البرتقال، لكنهم سعداء، وهذا لا يمكن نكرانه قانعون بما لديهم، حرارة احتضان أولادهم كل مساء وملاعبتهم إياهم تنسيهم قساوة الطقس وتعب النهار، تلك السعادة تلك السعادة. وأنا هو ذلك المسخ من الإنسان الذي تحدث عنه كافكا ذات يوم.

لم أعد أعشق. تفتتح الزهور، يلتقطها من يرغب في الحياة، تمر كل فتاة بجانبني كأنها ابنة لي لم ألدها، قد تنادييني إحداهن عمي، وأكره ذلك ولكني أبتمس في وجهها كعم حقيقي. وذلك العشق الذي تتفض له كل شعيرات الجسد لا يأتي ولا يظهر، وأبقى ذلك المسخ الذي يتسول السعادة على غرار سعادة الآخرين ولا تأتيه، أبدع كل يوم خلفية جديدة لوجهي، وأبتمس،

ألقى برجليّ كل نواحي القرية، دو تاركانت، إكي واسيف، دار الخيز، أكرض، الخمس، إمي تتمزكيدا، وحتى سوق إيمولاس، أصعد الجبال المجاورة في الصباح وقبيل غروب الشمس وربما أصبحت لي مشاوير محددة ومعروفة لمن يريد محادثتي، لم أرد ذلك لكن التكرار والعادة سيذا المواقف في زمن الروتين القاتل. هل سأتحول إلى شيخ شباب القرية؟ حتى أن نظرياتي النضالية لم تعد تجد آذانًا صاغية وكل التجاوزات المخزنية لا تحرك الشعور بالثورة على أي شيء. هل كانت ثورتي ضدك أنت فقط؟ وانتهت بعدها الثورات. لم يتساكن الظلم مع الحياة؟ أليست نفس المفاهيم ونفس الكلمات؟ هل ترعزعت القواميس والمجلدات التي تنظر للعدالة؟ خلف الجبال، أمام الجبال، أينما توالي وجهك تجد جبلًا. في قريتي إما أنك صاعد وإما نازل لا تجد مساحات مستوية أبدًا، تضاريس تولد لدي إحساسًا بالحركة الدائمة والجهد المتواصل، هل أخلص من سروال الجينز الضيق، وأرتدي فوينة خفيفة صيفًا تمرح فيها أعضاءي وتتهوى شراييني؟ كم أحسد الرجال هنا على تخفهم مما يثقل الجسد ويزيده قهراً! لا سراويل داخلية لا جينزات لا أحزمة، فقط فوقيات مخططة، خصوصًا في الصيف الحار. حتى أن بعضهم يعوم في الوادي دون ملابس في عودة صارخة إلى الوحيش والطبيعة. يترد ما شاء في ماء النبع بعيدًا عن القرية رفقة أصحابه، كثيرًا ما يغطي الماء العكر أعضاءهم الحميمة ولكنهم لا يخلون، وإن سمعوا خششة أو رأوا طيف أحدهم يقترب غطسوا في الماء حتى أعناقهم فلا يظهر منهم غير الرأس ويبقون على حالهم حتى يمر الموكب، الذي يكون عادة من شلة أخرى من دوار مجاور يبحثون عن مكان بارد يستلقون فيه، يلتحفون جلودهم، ويستمعون للموسيقى من مسجلات لا تفارقهم. أرشاش، عبد الهادي يكو، تسلاطين أونزار، أوطالب..

وغيرهم من الروايس والرايسات. قريتي في الصيف تلتحف الأعراس
والفرح. تحتفل بالجسد والصخب والشمس والنهر.

ابن الجبل أنا، ليس لي عمومة مع البحر، أغرق في زرقته فلا أحيا.

ابن الصخر أنا ليست لي مصاهرة مع النوارس.

ابن الماضي أنا لا أعيش الحاضر.

الصقر أنا لا أنتمي إلى سلالة الأرانب الخائفة.

والسد الملعون يقف وجهًا لوجه ضدي، كيف أقاوم حربًا من الحجر والمطر؟

كيف أحارب عدوًا من الماء والندى؟

والحب يقف على حافة الذكرى في أناقة الغياب. يزغرد قطرًا من الصدا على باب قلبي الخشبي المقفل بإحكام، أي نشيد يبرر استلقاء الصمت على جثة الثعالب الماكرة كالزمن، مضى ذلك العهد من سطر الخديعة المدفون تحت ركامها. هي هي هي، لن تأخذ عرش التقبيل من شفتي وقد يبست دهانات البوح على لساني. رميت النرد وما انتظرت تقبله على احتمالات العودة والرجوع، رميت ودلفت إلى حال سبيلي أغني أنشودة الإصرار على حبك يا وطن العناكب والجناذب والنسور. يحاول في غرابة رجي ورجي وانعاشي على نعشي. هل بقي شيء في جثة على نعش الطفولة ترتد؟ مؤلم جدًا احتضاري في حضوري، قبليني برهة الزمان، المسي جسدي العاري، من على ظهري باغتي، ارم ألف قبلة على كتفي وضميني.

أرتدي سروال العنكبوت فتبقى أرجلي دون غطاء العنفوان، استلقي على فرش من الريح والسهل، تلك هي خرافاتي، توالي الخيالات على ظهري، الذي لم يعرف غير ضرب العسكر من أبناء وطني. قبليني

على ظهري واغسلي خطايا الوطن من على جلدي العاري. آثار
السوط على ضلوعي خريطة رسمها التحدي لكنز مجهول مدفون
في الجبال.

من طبق الحنين

نأكل دمعًا من أتون العابرين.

ننتشي باعتراء القلق لتيجان الوقت في مخيالنا النديّ، غبش
زجاج القاطنين في قرية من الطين والماء وشقائق النعمان والأمل
والعويل يمنعنا من السفر، يمنعنا الرحيل. وتمنعنا وجوه الأمهات
أقمار القلب الحزين. وتمنعنا المناديل التي ستحمل جرح العين
وانسكاب الأثين. جرح العين يبلل جسد الأم النحيل.
حتى أنه ما عاد في العين نبع أصيل. بعد كل المحن والصراخ
لحظة التهجير.

أسيف هو الوادي وهو غير النهر في ذاكرتي، أسيف النهر مدرسي
المصدر وأسيف عنوان كل قصص العشق المراهقة وعبث الأجساد
تتلمس الشهوة.

أسيف هو الحزن، هو كل شجر التين المتدلي من حافة الطريق
إلى الدوار، هو التوت البري الأحمر والأسود الذي نسميه عنب
الذئب نقطفه ونسرع هروبًا من ذئب في مخيلتنا الجماعية. كيف
والذئب لاحم لا يهمه أمر العنب ولا يهمه أمر التين؟!

تلك الخسائر الأدبية من وحي المدرسة.

ولعبة الغموضة التي ما عادت ببراءة الطفولة والتي أصبح الكبار
يمقتونها ويراقبوننا عندما نمارسها.

نقتات على أوراق الخريف، نمضغها عشقًا لصوت الخشخشة،
احتفالاً بالذكر. نمطي الذهول المسرح بالدهشة ونسير وفق
الحنين.

أسيف هو الرجل القوي من أبناء العمومة يدافع عنا من ظلم

الأماكن ووحشة الأيام الطويلة من الصيف الحار، أسيف عنوان قصائدنا العشقية كلها، أسيف فضاء المرح والفرح أسيف. تنزل الفتيات من بنات القرية ضحى كل يوم يحملن المناجل على أكتافهن يبحثن عن حشائش ونباتات لإطعام البقرات والأحصنة خصوصًا. الغناء لا يفارق حناجرهن أنت لا تستطيع رؤية الفتاة وإنما يمكنك عن بعد سماع صوتها ورؤية حركات القصب والشجيرات قربها كلما تحركت لتحصد الحشائش من حولها. التعب لا يهم، الجوع لا يهم، الفقر أيضًا لا يهم، هنا في أسيف الصوت واللحن يدفع الغصص المتحشجة في بلعوم الجسد، هنا الرغبة تحدث، هنا الإنسان في جوهرة في تواصله مع الطبيعة ومع الآخر الرجل، الرجل ليس الغني بمفهوم المدينة وليس صاحب الوظيفة المستقرة والدخل المتواتر، الرجل هنا كل رجل له كتفين عريضتين للعمل بهما، له قلب له حضور له جسد يعيش داخله لا سيارة ينحسر فيها. هنا يتجلى معنى الاختلاف في نماذج التفكير البشرية، هنا المرأة المرأة والرجل الرجل، مكتفيان بالدلالة الوجودية لكل منهما؛ لا يحتاجان موادًا تجميلية لإضفاء القبول عليهما من قبيل الأملاك والسيارات والفيلات والوظائف. قطعة أرض توارثها الأجداد تكفي للعيش بعيدًا عن الاستهلاك المفرط للمعاني.

من قال إن القروية ركن مهجور من أركان الصمت فقد كذب، من قال إن القروية رفيقة الدرب المحايدة فقد كذب، من قال إن القروية بلا عمق فقد بالغ في الكذب، من قال إن القروية عقلها في حضنها فقد قال بهتانًا عظيمًا عليه إثمه، إنها غير ذلك كله وأكثر. ذلك أنه لا يسمع ما كانت تغزله حروفها، لا يسمع ما كانت تررده الطبيعة من حولها، كل غريب ممسوخ المشاعر، غبي الأفكار سيقول عنها متوحشة تبحث بين الحشائش والصخور تقطع الوادي طولاً وعرضاً دون عياء، وجيدها الرقيق وقوامها الممشوق ليس إلا

نتيجة جهدها ورياضتها اليومية وهي لا تحس به ولا بشكله. كل رجل لم يتربَّ على احترام الصخر واحترام التاريخ واحترام القول والموسيقى والألوان والجمال والإنسان، كل جلف من عبدة القوادة المدنية سيقول إنها جسد بلا روح. وهي غير ذلك حتمًا، وردة بريّة من الزمن الأول للحب.

أخرج حصيرًا من القصب إلى «دو توريت» وما «دو توريت» إلا روضة من رياض الجنة! فيها شجرة من كل نوع يمكن أن يزرع في المجال، شجرة جوز كبيرة هي أم الأشجار، شجرة خوخ، شجرة تفاح، شجرة لوز، شجرة مشمش، شجرة ليمون حامض، شجرة حناء، شجرة مسك الليل، وتتطفل على أغصان هذه التشكيلة من الشجر دالية عنب أسود تحرص على حجب ما بقي من أشعة الشمس، أحضر ابن العم صينية الشاي الكبيرة ذات الأرجل الطويلة التي تنغرس في تربة ما تحت الحصير، وصحن طيني بخليط معهود من ثمار الجوز واللوز والحمص والفول السوداني والكعك. قبل الشاي حديث مطوّل، أثناء شرب الشاي حديث آخر طويل وبعده حديث أطول، شاي العصر بنكهة النعناع والشببة والسالمية التي يقطفها محمد من باقة مغروسة بجانبه، لكل عائلة هنا دو توريت الخاصة بها من أجل احتفال يومي بعد العصر يدوم إلى المغرب عادة وخصوصًا خارج فصول العمل الشاق كالحرث والسقي والحصاد والدرس، أربع عمليات تشكل هنا محور حياة الناس. يليها موسم من الأعراس. وما زال العرس بنكهته الاحتفالية في حين تحول إلى مأساة حقيقية في المدينة، يترك الأب مدائنًا سنوات لمؤسسة بنكية تحلب رصيده من الأمل والمال.

هناك أحلام سعيدة لا تحب أن تستيقظ لتقطع سيلها، وهناك أحلام بغیضة تستيقظ لتنساها ولو أنها تتشبث بمخيلتك لدقائق بعد صحوك.

أحب أن أحلم وأنا مستيقظ لكسر طوق الأحلام وانفلاتها من قبضة الذاكرة.

بعض الأحلام كالمآثر التاريخية تراها مرة واحدة وتكتفي بذلك،
قليلاً ما نعود لنفس المتحف مرتين.

نوستالجي

نوستالجي

مستخدمو الأرشفة في جسدي

لا تحينوا الملفات كلها مرة واحدة، احترموا التأريخ المسجل
خلف إبرة الألم، ولا تنفضوا الغبار عن الملفات هي كذلك أجمل
بالغبار البني عليها، دعوها سيغسلها الدم الأحمر القاني، ذلك
الغبار المسجى على الطاولة والمساقات والأضبار أفضل من الرماد
وحبيبات السواد على المحرقة.

نوسالجي

نوستالجي

لا لا تلمسوا ذلك الملف، تلك الليلة، هي من نوع الليالي التي
خزنتها للتولية ولها عصير بمذاق الأفوكا وإيحائه الرجولية،
كما على لائحة مقهى مجمع الأحباب، عصير من أجل صحتك
رجولتك، والذي يمنع الزبائن من الإقبال على المقهى خوفًا من
تلميحات الآخرين، غبي صاحب محل العصائر ذاك.

لا لا لا تلمسوا تلك الليلة، شعرت بالخجل حينها، كنت أنا
وقطة خلف المسجد، لمست فروها الناعم، لمستته بضعف بداية
وعندما لم تعترض ضغطت عليه بأصابعي.. حلوة المذاق.. كان
يجب أن أفعل كل شيء بمنهجية محكمة وإلا سخر مني الواقفون
خلف السور الآخر للمسجد من رفاقي الذين ينتظرون نتيجة لقائي
بالقطة، لمسة في اللقاء الأول انتصار حقيقي يكفي لسد أفواههم
سنتين، ولي حرية التجريب بعد ذلك، سألتها عن نسيج عذب من
الحكايا سردتها في حفلة موسيقية، قلنا كل شيء وليس كل شيء بل

حددنا موعدًا آخر وهذا انتصار ثانٍ في حضارتنا القروية، أن تحدد موعدًا آخر يعني أنك ربحت الرهان وكفى، ستكون سيد السهرة اليوم وسيحتفل بك الأشقاء من كل الجزر المجاورة.

ولكنها نفذت إلى العمق تردد فيه سمفونيتها تلك الليلة حتى الفجر من اليوم الموالي، قطرة نعم ليس لرشاقتها ولا لقفزها على نوات صعبة المنال، بل لملمسها الحنون، شيء من زمن الفرو ونسيج المراهقة، وتلك السطور التي محاها النسيان سنملؤها بما كان من الممكن أن يحدث، فقط لنزين ذاكرة الخراب بديكورات الخلق والابتداع.

تقلبت في فراشي هاربًا من صورتها من كلامها العادي، وظلت تسكني حتى صباح اليوم الموالي. هل كان كلامها استثنائيًا؟ لا لم يكن كذلك. هل كان وحيًا من رمد الجن؟ لا لم يكن كذلك. كان عاديًا وهذا أهم ما في الحب، أن يكون عاديًا لدرجة تمنعك من النوم، وحين تقوم تقوم معافي سليمًا كأ فتره نقاهة قلبك انتهت ولم تنتكس آلامك.

موعدنا هذه المرة لم يكن خلف المسجد، والمسجد هنا لا يحضر إلا كمكان يتوسط القرية ويلعب دور مركز الدائرة. حتى أفعالنا المشينة تتبرك بأسواره، كان جزءًا منا لم يحتكره أحد بنظرياته، كنا نختبئ في مكان يمر منه الجميع، فخير وسيلة لتهرب من الناس هي الحضور العادي بينهم. موعدنا كان على صخرة الحب في أسيف. كنت أسمىها كذلك لأنها مكان للهروب من أعين المتلصصين، وكانت تتيح فرصة الاحتماء من المترصدين لحكايا الخجل فرصة القفز بسرعة خلف حزم القصب والدالية. لم نقل شيئًا مهمًا أيضًا، غريب أمر الحب في قريتي، يمكنك فقط أن تقف برهة في مكان مخصص لينسجوا حولك أروع قصص الحب وينشروها على أوراق شجرة التين، هي ترتجف لا من اندفاعي ولكن

من خطر المحاولة المتكرر من طرفي لنيل المزيد من الأهداف.

obeikandi.com

نوستالجي

نوستالجي

بلى ذلك الملف ممكن تصفحه، وذلك الخيط الملفوف حوله
أيضاً يمكن قطعه بأحد سكين عند الحداد؛ ليست بالمهمة تلك
الأوراق فيه، يمكنكم العبث بها أيضاً لا تهمني كل الإمضاءات
أسفله.

آه كنت مخطئاً، لا لا لا حذار، تم الأمر ولا مجال للتراجع، أي
ملف كرية الرائحة فتحتم؟ ملف اختمار البول على غائط مريض
الأمعاء!

كان صباحاً عادياً من أيام التسكع. كان عادياً لدرجة الخوف، لا
تريحني الصباحات البنفسجية ودم الثوار ما زال على الطريق إلى
القرية، وصراخ الجدات ما زال يرنّ كضرب المطارق في أذني، جاءت
سيارة الشرطة وترجل منها رجلان، لا ليسا رجلين، فقط شخصان
ينقذان أوامر صدرت من مكان ما، أخذوا سيمو إلى المخفر
للتحقيق في أحداث الأمس، وأي أمس ذاك؟ أمس الموت والذل
وجبن الأوطان، أمس الرذيلة يرتكبها الوطن في عهر وسفالة أمس
الطغيان يشد وثاق الحرائر ويمارس الشذوذ عليهن.

أرسلهم دراكولا من قلعته، من بابها الأسود المقوس انطلقوا.

غريب أن يكون قربنا على بعد كيلومترات فقط مركز لتكوين
القوات المسلحة كان سهلاً جداً أن يخرجوا لقمعنا ومنع تظاهرننا،
أغلبهم من أبناء شمال المغرب، استيقظوا للتو من إبر مورفين
تكوين الجنود المضادين للإنسانية. إستراتيجية القمع تقتضي أن
يضرب أبناء الشمال أبناء الجنوب والعكس بالعكس. وضربونا،

كسروا عظامنا ولم يكسرونا، أسالوا دمنا ولم يسيلوا كرامتنا،
شتمونا ولم يفقدونا عزتنا.. دافعنا على الحق ودافعوا عن الشر.
يكفيننا فخراً أننا من جهة النور وهم من جهة الظلام والخوف.
في زمن الشح الحقوقي نحن نطالب بالمساواة لا بين الرجل والمرأة
بل بيننا وبين الحيوان.

أرسلهم الجنرال من قلعته، من بابها الأسود المقوَّس انطلقوا،
كالخفافيش في فيلم رعب خرجوا، يسبحون بالبهتان ويصلون على
دراكولا القبيح.

لَمْ كل هذا الخوف يا هؤلاء؟ لسنا سوى مد بشر شباب ونساء
وعجائز وأطفال نريد حقنا في أرض أجدادنا نريد العيش بكرامة
أغرقتها مياه سد ملعون. لا تخرجوا كل أسلحتكم لا يمكنها قتل
الحق فينا، لم كل هذه الدبابات لقتل الذباب الصغير؟ أعرف
السبب، كان صوتنا كصوت الذباب يزعج دراكولا في قلعته، يصله
قويًا مهما سد أذنيه الكبيرتين، يسمع صراخنا وشعاراتنا صباحًا
ونحينا ونشيحنا ليلاً حين تتعب من الصراخ، نعم كل صباح
نوقظه على أصوات مزعجة كالذباب تطن في أذنيه، تلك لعنته
الدائمة أن يسمعنا نصرخ في وجهه صباح مساء. لن نهدر الزمن
في الصمت وسنظل نثرثر على جنبات قلعتك يا دراكولا البشع.
حتى يتحول أنيننا إلى مطارق على رأسك ورماح في صدرك الخبيث،
أصوات الحمام والحجل والدجاج والديكة تهوي على جمجمتك
البشعة كزلازل تهز أركان وكرك الشيطاني، أما القلب فلا قلب لك،
وتلك لعنتك الثانية أن لا قلب لك.

نوستالجي

نوستالجي

افتح يا نوستالجي بوابة الذاكرة الخربة، فرق بين الدخان والأبخرة. شم رائحة الشياطين على أحلامي المغشوشة، الموضوع على طبق الكذب، ويا ويلك مني يا سمسم إمبراطورية العقارب! افتح درجك وخذ ملفاً آخر واقرأ منه سفر الطفولة والبيت البلاستيكي.

أشاهدي كومة جوع ممدد على الحصر البالي، لم أنا خائف؟ لم أنا حزين إلى هذا الحد والنهار طوله وعرضه لي للعب والركض والقفز والتمرغ في الأتربة والأوحال؟ البيت البلاستيكي يبرد شتاءً ويزيد من حرارة الشمس صيفاً كالحمام البلدي الذي كانت تنشئه جدي ليستحم فيه الجميع، تصنع هيكلًا من الأخشاب كأنها ستبني بيتًا، تغطيه بالبلاستيك وحمل الصوف، وتضع داخله الماء الساخن، فيكثر البخار داخله ويحلو الاستحمام. كان حمامًا اختياريًا من عبقرية الأجداد. ولكن حمامنا الجبري هذا عبقرية خاصة من وطن الاستبداد ضد المقهور بن المستضعف.

لا حديث إلا عن التعويضات ووزارة التجهيز، هل التعويضات هي الحل أكيد؟ ولم كل هذا اللغط حولها؟ والناس استكانوا للحياة الجديدة فلا تظاهر ولا احتجاج ولا شيء. ماذا حدث بعد ذلك أيتها الذاكرة الخربة؟ هل حلت التعويضات الهزيلة مشكلات الجوع والتشرد؟ ولم رفضها جدي آنذاك؟ وتلك الجمعيات الحقوقية التي تأخذ صورًا تذكارية لنضالها لم لم تعد؟ هل انتهت مهمتها، بأخذ الصور والترويج لشعاراتها؟ رجال ونساء يدعون التضامن،

الرجال بكروشهم المنتفخة وأعناقهم السمينة لو ذبحنا واحدًا منهم لكفى سكان المخيم شهرين كاملين، أما النساء فوجوهن شاحبة من كثرة استعمال الأكسجين المشقر للبشرة، شفاهن منكمشة، ذلك أن أسود الشفاه لم يتحمل هول الطريق والسفر، كلاب كلهم كلاب أقول في نفسي وأعود لأتمدد على الحصار البالي. الحصار البالي، الجبال الباردة والثلوج القاتلة الكاريانات والأحياء الهامشية هي معاهد تكوين المجاهدين في سبيل الحرية.

نوستالجي

نوستالجي

ضربني في ججري أسفل بطني، ألم يكن رجلاً مثلي يعلم ألم
ضربة ما تحت البطن؟ انكشيت كدودة أرض على أرضي.. انهال
عليّ ضرباً بالعصا يشق ظهري، ولكني ظللت منكسّاً على بطني
وعظام ضلوعي تتكسر، الرجل منا يحاول حماية بيضتين ليوازن
بهما عصب حياته، والعسكري يضربني، لا أحس به أرى فقط حذاءه
الأسود، وأغيب في دنيا الألم، وكل أمواج البحر التي لم أرها لأني
ابن الجبل تحملني إلى المحيط وتلطم خدي، وهو يضربني، على
ظهري يريد مني فتح بطني وصدري ليتمكن من توجيه البرودكان
لعضوي، فأنا الكائن الجنسي أحمي أكثر ما أحمي ثلاثة أشياء في
جسدي، عداوته كانت واضحة مع رجولتي وأنا ابن الثامنة عشر
من عمري ولن تنال مني، فأنا ابن الجبل وأبائي صخور الوادي،
ولم أنحن، والدم يسيل من أنفي ويسيل الأنف من أنفي وأسنانني
تصطك وتقضم لساني وأنا وكل أجزائي تحت حذاء العسكري
يرفسني رفساً، أموت، صحيح أموت، وما أجمل موتي ودمي على
أرضي، وأرضي بدمي ترتوي! وأنا وأرضي لسنا إلا واحد، تراب ودم
أحمر قان، اقتلني دون أن تنظر في عيني، جبان أنت يا عسكري، لا
تحاول، رأسي أصلب من الحديد، وينزف لا فكراً ولكن دمّاً عادياً
لا يجر وراءه أفكار، لا يستطيع، اضربني يا حمار دراكولا، ولن
أنحني، بدأت ارتخي، أرخي يدي الأولى التي كانت على رأسي، والثانية
تنسحب دون إذني من بين رجلي، أصبحت كالشاة المذبوحة على
جسر الغدر، لا، أنا الخروف الشامخ يرتوي بدمه، وأرتخي ويدي

تفصل عني وهو يضربني ويضربني هو أو هم ، فلا وقت ولا فرق بين ضربة وأخرى. ضربة على رأسي ثم أخرى داخل صدري، كأنه وضع رجله كلها داخل صدري وراح يعصر قلبي، انفجر البطن الأيمن ثم الأيسر، أضلعي ليست إلا قشًا، تبن يمضغه بغل جدي بين أسنانه الغليظة، جدي! أين أنت يا جدي؟ هنا لا، لن أنحني، أنا هنا هناك، أنا هناك، أعيش ولم أعد أنتمي فواصلوا ضربكم فأنا هناك ولا منتمٍ.

ألم يكتف بموتي؟ ينكل بجثتي! أعسكري ذاك أم وحش من زمن القتامة والظلام؟ من خريجي مدرسة دراكولا للقتلة المجانين، أكان يكرهني؟ أكان يعرفني؟

ضمادات على جسدي، كل شيء أبيض من زمن بريتون ومحمود درويش. وصديقي يقرأ قصيدة أمل دنقل لا تصالح على سرير يحمل عظامي الملفوفة في البياض. هل بقي شيء مني ليُجمع في أغشية المستشفى. ألم ألم ألم، حقنة مضادة للألم يا دكتور، ألم ألم ألم وحقنة أخرى عبر السيرو إلى يدي، أين يدي؟ يدي هنا يلامسها ابن عمي ويبيكي، ودموعه تحرق خدي، يؤلمني ألمه لا ألمي، هو مجروح القلب وأنا مجروح الجلد والعضل والعظم، هو يتألم أكثر مني حتمًا، أريد أن أواسيه دون جدوى فأين جسدي؟ أنا كومة عظام في مشفى، ملفوف في البياض والسيرو بالسكر معلق فوق يقطر داخلي قطرة قطرة ليعيد الحياة إلى جسدي، قطرة قطرة، عوض ضربة ضربة، عدد القطرات بعدد الضربات وأتذكر ذلك الجندي وأبكي ويقطر كل شيء في المشفى، صديقي يقطر دمًا وأنا أقطر دمًا والسيرو بالسكر يقطر دمًا والمرضات والطبيب والممرات والسرير والشراشف والشيش والقطن ودواء البيتادين يدمع والكل يبكي، والجندي وحده يضرب بعنف، كيف لم يرق قلبه؟ فقد كنت أموت ومثّ فعلاً وما زال يضرب، ونثرية صديقي

الشاعر دم ودم دم، يهز أركان المشفى ويختلط بالبيتادين الأصفر.
وألم وألم وألم، دكتور.. حقنة أخرى مضادة للألم، أرجوك،
يطلبها محمد كأنه أحس بالمي. وقد أحس بالمي، لا، كفى حقن
اليوم، لا يجوز كل دقيقة تأخذ حقنة، اصبر قليلاً، أنا صابر لكن
صديقي يتألم، اقرأ «لا تصالح»، لا كفى، اقرأ نزار قباني، لا اقرأ
درويش، أو عد بي إلى شاكر السياب، نعم شاكر السياب وقصائده
لك الحمد لك الحمد لك الحمد.. استطال البلاء.. استبد الألم..
دعني أنام فمفعول الحقنة بدأ، وجدي أيضاً راح يغني قرب شجرة
الخروب التي يحبها لا لأنه يجني من ورائها مالاً كثيراً، بل لأنه
زرعها في صغره وراقبها تنمو، ثوب أصفر برتقالي بحزام ملون قرب
الخباز تضرب (لا تضربي أيها الكلب) العجين وترشه بالماء المالح،
تغسل الحجيرات الصغيرة بالماء لتضع عليها أشهى خبز في القرية
كلها، والشمس حارقة جداً وما زلنا نلهو قرب المسجد، تخففنا
من كل ملابسنا إلا ما يستر العورة وقررنا التبرد بالعموم في مياه
العين، ومقاعد الدراسة، وهي تناديني باسمي شعرت بالغبطة،
ابنة المدينة كانت تحدياً كبيراً لي، متشرد الأوهام متسول الأحلام.
تحرك السرير من مكانه وووخزي الأنبوب المعلق إلى يدي،
استيقظت ألماً، نظرت إليهم، إلى من؟ إلى الأشياء في غرفتي داخل
المشفى، وقد عادوا لضربي من جديد داخل المشفى. وجدي يغني
وهو يحمل العتلة ويفتح ممراً جديداً لماء السقي. يعجبني جريان
الماء في تلك المصارف والمسالك، أتبعه من إفري إلى إكران ودو
توريت أركض وراءه أسابقه ويسابقني. وتهشمت عظامي والأربطة
تجمع ما تبقى مني، البرد قارس في المستشفى رغم كل الأغطية،
زقاق الألم بارد ويجب أن نسير فيه بسرعة، ولكن الخدر يسيطر
على أطرافي ولا أتحرك، وجروحي تلتهب وتحرقني، وما وراء حانوت
البقال ولفافات الحشيش وهي تمر قربي.

obeikandi.com

نوستالجي

نوستالجي

ارسموا معي اللوحة، جبال عالية، شجرة أركان خضراء تحمل ثمارها الصفراء، راع يحمل عصاه وكيسه وكلب متيقظ وأنسة جميلة، الوقت قبل الغروب، جلسة وداع، هنا داخل هذا المشهد كانت لي قبلة.. هذا أصل رومانسيتي، أن تكون رومانسيًا يعني أن تكون لك أول قبلة بين أحضان الطبيعة. لا أن تشتريها من مومس أو أن تكون ضحية مطلقة أو عانس. وعدتها أنني سأعود يومًا، ووعدتني أنها ستنتظرنني، لم أكن أعلم أنني لن أعود وأنها لن ترائني ولن تنتظرنني، لكن بقيت لأيام أستحضر صورتها، بسمتها، بساطتها في ثيابها البدوية الملونة، ماذا تراها تفعل الآن؟ أعرف أنها تستيقظ في الصباح الباكر تأخذ جرتها وترافق صديقاتها إلى العين لإحضار الماء، أول ما تفعله الفتيات إحضار الماء لأنه أصل الحياة، قرب النبع المترقق كنت أنتظرها قبل إخراج القطيع إلى المرعى. حركة الماء كحركة حبنا لا تتوقف. بذلك الدَّق الشعاري نبادل تلك الكلمات الخجولة ونفترق.

والآن بعد الظهر، تجلس إلى المنسج، تكتب لي رسالة بخيوط الصوف. هي تدري أنني سأحضر يومًا لأقرأ جميع زرايبها. وربما هي قرب الرحي تدير الزمن بيديها وتتعجل عودتي وتغني، يصلني صوتها من الجبال التي خلف الجبال التي خلف الجبال. لا يمكن أن تعيش في الجبال دون أن ترقص وتغني.

obeikandi.com

نوستالجي

نوستالجي

ليس يسيراً أن تتقاذفك الأسطوانات، وترتج على خريفك موسيقى
البيادر والأحصنة الدوارة، ليس سهلاً أن تتناوب عليك رؤى وأحلام
تحقق بعضها ولم يتحقق، إن باب النوستالجي المغلق بإحكام
فقد مفتاحه السري، وأصبح مشاعاً للعوام، ولكن ألم أدعي يوماً
انتمائي للعوام ورفض التبرجس في طبقة أعلى؟ ألسنت المنحاز إلى
من هم تحت؟ ألسنت الحنين يعبر فوق رؤوس اليتامى والمساكين
درءاً لخطر الشمس؟ ألسنت الأئين برلمان البكاء على الأمل؟

تتدل أرجل الجدة الكسيحة من العربة، كتلة العظام تخترقها
ومضة الثورة ونور النضال، تصفق وتصرخ كصبايا العشرين، إنها
العجوز تتلوى شاباً يا فتيات الخديعة، والعسكر هجموا وانقلبت
العربة فجأة والعجوز ما زالت تردد شعارها المفضل: «الأرض
لنا». الأرض لك يا جدة النضال، الأرض لك يا عمة الجهاد وطقم
أسنانك سيف آخر ينغرز في حلق دراكولا، وشالك الطويل وحزامك
المطرز ذلك علمنا ورايتنا، تلك ثوري الصغيرة يا من فشلت
ثوراتهم، الغبار كاد يخنقها وأرجل العسكر كادت تدوسها، رغبوا
في ذلك حقاً ولكن نسوة القرية حملنها على ظهورهن، وأحفادها
دافعوا عنها، رجالاً من الصخر، وهي تنشد.

كان سيضربها، فعلاً هو خريج مدرسة دراكولا المتعطش للدم.
دم عجوز هرمة ليشربه على العشاء، ويضيف به النياشين على
كتفه العريضة وصدره المريض، كان الكلب سيضربها، لم ينظر
نحوها بحنان، البغض الشرس الحقد تطاير ورمى بشره عليها،

ولم تحفل به وظلت تردد شعارها الوحيد الذي تعلمته أتقنته
بلغتهم ليفهموه.

نوستالجي

نوستالجي

أغلق البوابة. ارحل.

قبل موعد الإغلاق تنبعث من رحم الذاكرة إضاءة باهتة كأنها تريد أن ترسل رسالة ما عبر الضوء، عامل النوستالجي لا يتسرع في الإغلاق، أمانا الوقت الكافي للسهر على أفلاك البوح هذا اليوم، افتح نوستالجي ساعات إضافية بتعويض رمزي.

نوستالجي

نوستالجي

حوار واحتضار

رحيل وداع مرافئ، مطارات.

توَّحَّ الحذر؛ هناك صديق يتهاوى في دركات النسيان.

- أحبَّ الحب، يا للسخرية!

- لديك الكثير مما تفعله بأيامك.

- لدينا أيام قليلة لنفعل ما نشاء.

- سبحان الله! كل واحد يرى ما لا يراه الآخر.

خصوصًا أنا وأنت.

- لا ليس بالضرورة أنت وأنا وأنت وآخرين.

- ولم قلت أنت وأنا في حين أنا قلت أنا وأنت.

- لأنني لست الذي اختلف معك. بل أنت اختلفت معي. في حين

أنني متفق جدًا جدًا مع أناس آخرين اختلفت أنت معهم على

نفس النقاط التي اختلفت معي فيها.

- أتمم، وأنا ألا أتفق مع أناس آخرين تختلف معهم أنت؟

- لا أعتقد هذا، خصوصًا أصدقاءنا المشتركين منذ شبيب ورائد إلى غاية حسن وعبد الكبير.
- لكن رائد أستاذي وليس صديقي إنه أكبر مني.
- صحيح أدهشني قولك هذا اليوم.
- لم؟
- ظننتُ أنك ربما تكون نسييتَ أنه أستاذك.. وأكبر منك.. وأقدم منك.
- وكيف أنسى؟ إن الذكرى تنفع المؤمنين وأنا مؤمن وهناك من يذكرني إذا نسييت.
- الحمد لله لكن حاول ألا تنسى كثيرًا فالرفاق يتساقطون تبعًا.
- وربما لا تجد ذات وقت من يذكرك.
- إن من يسقط لورقة يابسة أن لها أن تسقط.
- صحيح ويبقى الجذع بعدها عاريًا، لا تنس أنها كانت غطاءه.
- إن من يتكل على ورقة يابسة غطاء حق له أن يبقى عاريًا.
- والعكس صحيح إن ورقة يابسة ظنت بأن جذعًا عاريًا بعدها سيحميها من السقوط فهي ورقة حق لها أن تسقط.
- عمومًا هي غبية.
- يمر الشتاء بكل قساوته على الاثنين، على الجذع كما على الورقات.
- لم تعرف أن من قطع عنها الماء والغذاء جدد أناني.
- وللفضول أن تثبت أو تنفي غياب هذه من «ذكاء» ذاك.
- جذع أناني؟
- أناني؟
- ألم أقل لك إنك مدهش هذه الليلة؟
- ألم أغير صورتني لأدهش.
- بلى، حتى أنني فكرت لبرهة ربما تدهش نفسك ساعتها.

- لا ليس كذلك العجب سيئ والغرور رذيلة.
- نعم، كم تعلمتُ منك الكثير!
- وهناك الكثير لأتعلمه منك.
- لا أعتقد.
- أنا أعتقد، فقد سبق أن فعلت. ثق بنفسك.
- لأنني واثق بنفسي قلت إنني لا أعتقد، حان الوقت لنبدل مواقعنا، فتصبح أنت الأستاذ وأنا التلميذ بكل انتباه.
- ومتى كنت أنت الأستاذ؟ نحن في ورشة، لا في صف تقليدي عليك بعلوم التربية.
- أجل، هذا ما قصدته، كنا بورشة ولم أقل كنتُ أستاذًا، والآن آن الأوان لتصبح أنت الأستاذ وأنا التلميذ، لا بد من الخروج عن تقليدية الورشات.
- تبديل المواقع يقتضي وضعية قبلية كنت فيها أنت الأستاذ وأنا التلميذ ليصبح العكس متى كان ذلك مع فخري الكبير بأن يكون لي أستاذ مثلك.
- ليس بالضرورة. والفخر والشرف هو لي ولمن عرفك واكتشف ما فيك وقدرتك على أن تكون أستاذًا متميزًا.
- لا يهم كثيرًا ما يحتاج التلميذ أستاذه، بل ويتجاوزه نظريًا كما اليونانيون القدماء.
- المهم.. وخر لنا فإننا لا نحسن الاختيار.
- أحسن الانتظار إذن.
- صح.
- نوستالجي
- نوستالجي
- أغلق البوابة.

obeikandi.com

الفصل الثالث سقوط الأقنعة

obeikandi.com

الحنين هو الاتصال بزمنين.

عبد الله العروي

«La pensée d'un homme est avant tout sa nostalgie».

Albert Camus

obeikandi.com

المدينة احتضنتني بفرحها المعهود، سورها الطيني الدافئ يمد أصابعه نحوي، في كل قصة حنين أعود إلى السور الآجوري الأحمر. أستمد الهدوء من تعاليه التاريخي وحكمته القديمة. نسيت ماريًا، أو لنقل صنفتها مع باقي الذكريات. أكيد وضعت لها صندوقًا بنفسجيًا يليق بها، لكنه مغلق بإحكام. تستطيع هي بفنها أن تجد له مكانًا، زاوية، غرفة تضعه فيها. ولتحطه بباقة ورد منوعة.

وليكن الورد أصفر الغياب، سيد النسيان، وليكن فوقه تراب السنين. صخب المدينة منزوع الشهوة، شجرة الكستناء المعمرة ترقع سريدة بالية من الصوف، تسرب صوفها خيطًا خيطًا عبر مجاري التاريخ.

المدينة ترتدي دومًا مقاسات أكبر من فهم الإنسان وتترك له مجال تطريز حقيقة تناسب حاجته البيولوجية للسلطة.

المدينة سمكة كبيرة تلتهم الماء والأسماك الصغيرة الملونة، لذلك تجدها مبتهجة بأصواء متنوعة، كلما قتلت روحًا بدت أجمل. المدينة، الغربية، الضياع وسط الحشود، التعدد، الصمت، هذه الأشياء هي التي تجعلك تكتب. أما القرية والطبيعة والوادي وموسيقى حفيف الأوراق وزقزقة العصافير فتجعلك تنصت فقط وتكون إنسانًا فقط دون عقد كتابية.

أما أنا الرجل الجديد المنطلق نحو الحياة، الممسك بتلابيب أيامه يعتصرها اعتصارًا ليخرج منها فرح الساعة، فرح اليوم وفرح الغد المشرق. بعد انجحاري المخزي أعود إلى الأمام انزلاقة عنقود الأمل، لا سقوط ورقة البؤس في خريف الاحتراقات وصحاري الذاكرة. لن أكون أصفر الحزن تتقاذفني رياح الحنين، بل سأكون

نخلة العشق تتمايل ألقًا في ربيع الانتصارات وبساتين الحب.
لن أتعلق إلى جبال راشية أكلها الدود ونخرها النمل، بل سأتسلق
بجبال مجدولة جبال العز الشاهقة لأستنشق هواء الحب النقي،
وأزفر أحاسيس الكبت المتعفنة.
للتدحرج أيام الظلام الكاسدة على سفح الصدق والنور، لتبقى
الأفكار السوداء في جحر القلق ولتحضن الأعشاش الدافئة ابتسامات
الياسمين.

صدر الأمومة يحضن رضيع العشق لينمو ويكبر كامل الملامح،
ممتلئ جيوب الحنان حتى آخر طيبة، إن ما كان جنيًا تغذى عبر
مشيمة الحب، يخدمه الدم المشحون بالحب في بطن انتفخ
بالحب لن يولد إلا ونفسه تواقّة إلى الحب حب الحياة والناس.
سأكون صخرة تتحدى عمر الكلام لا طينة يذوّبها ماء الزمن،
شتان بين قعر الوادي وقمة الجبل.
مضت الليالي الرعناء وجاءت الصباحات.
مضت الخرافات الحمقاء وجاءت الإيضاحات.
نكست الأعلام السوداء ورفعت الرايات.
تدفقت العيون انبثقت عبر الصخور والركام ولن تخمد النيران،
لن يغيّر الوطن إلا سيل أو بركان.
خريطتنا الشوهاء تزداد تمزقًا وتمزقًا، آن لنا أن نرسم معالم
وطن على طريقة النبلاء والشرفاء لا قطاع الطرق وسراق الحرية.
كان الجو صحوًا؛ الشمس ليست حارقة كعادتها في مدينة قارية
المناخ، مدينة تستقبلني ساحاتها ودروبها كلما ضاقت بي حقول
القرية وبيادرها.

نوادي الإنترنت في كل مكان، ساعة إلى حاسوب لن تغيير برنامجي، بسرعة إذن أفتح الفيسبوك، رسائل كثيرة تنتظري وقصيدة. أنا أكره الشعر الذي يحاith الثورات، ليس الوقت للشعر، الوقت كل الوقت للمقالة السياسية التي ترفع الظلم عن الوطن مقالة توضح وتقترح، تقول وتنتفض. أضغط خانة المحادثات الفورية.

زين من السودان

- كيف الحال؟

- السودان انشطرت نصفين والبشير لا يبشر بخير.

- هل من مصالحة في الأفق؟

- لا فقط مساعدات إسرائيلية للجنوب وقرصنة للسفن. وكيف

الحال في المغرب؟

- هههه نحن حالة استثناء.

وائل من فلسطين

- كيف الحال؟

- غزة بخير تسلم لي حبيبي.

- لكني سألتك عن فلسطين وليس غزة؟

- فلسطين انقسمت حزين. هل تريد أخبار الضفة أم القطاع؟

- هل من مصالحة وطنية في الأفق؟

- نعم، سنحتفل بها بعد أيام. وكيف حال المغرب؟

- نحن حالة استثناء.

أدهم من مصر

- مصر يا مهد الثورات.

- الله يكرمك حبيبي، تفرق الشباب عادوا من ميدان التحرير لبناء الوطن.

- مرحى للشعب المصري! ستحاصر إسرائيل إذن.

- لا، القيادة الجديدة حافظت على كل المعاهدات.

- لكن إسرائيل تتنكر للاتفاقيات بمجرد تغيير الرئيس، بل ونفس الرئيس يغير خططه بين ليلة ومنتصف الليلة.

- نحن الآن ننظف الوطن، نهتم بالجهات الداخلية. وأنتم؟

- نحن حالة استثناء.

رباب من تونس

- كيف حال الخضراء؟

- أنا بخير وأنت.

- سألت عن تونس وليس عنك.

- التنمية أشق من الثورة.

- لكن النجاسة ابتعدت عن البلد وهذا جيد. ماذا عنكم؟

- نحن حالة استثناء عزيزتي.

عمار من اليمن

- ماذا يجري أخي عمار؟

- الرئيس يتظاهر ضد الشعب.

- والله لدينا تلة من الرؤساء تستحق الدراسة ما بين سيكوباتي

ونشال هارب.

- نظم مظاهرة تسانده ولكنه سيرحل سيرحل سيرحل.

- آه لكن لم كل هذا العدد من القتلى؟
- لا يهم؛ إن من يموت شهيدًا لا يموت أبدًا. قال تعالى {ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون}.
- لا خوف على تلاميذ معاذ بن جبل.
- والمغرب كيف حاله؟
- هه نحن حالة استثناء.

مها من الأردن
 - كيف الحال؟
 - يا هلا.
 انقطع الاتصال.
 عاد الاتصال من جديد.

- آمنة من لبنان
- كيف حالك؟
- كالحمامة المذبوحة.
- لا، أجذك كالطاووس المتبختر.
- إذن انحنى إجلالاً لاكتمال القمر.
- أنت القمر والشمس، أنا من ينحني إكرامًا لسيدة اللغة والأخلاق.
- هربت حروفي مني متعثرة تحاول جاهدة لحاقًا بخيول عباراتك ذات الترانيم الملائكية.
- بل الحروف تهرب نحوك من ملامس حاسوبي تحاول معانقة جملك النورانية.
- أشكر أناملك المراقبة للحروف لتخلق منها نجومًا زينت بها سمائي وأثريت بها ليلي.
- الليلة التي تعرفت فيها على آمنة لا تحتاج إلى نجوم؛ هي

مضيئة بك.

- أكاد أشع من فرط فرحي بصحبتك.

- البلور يشع من سطوع خيط نور بسيط ولو كان خافتًا مثلي،
الفرح ينبع من داخلك أنت الطيبة تستحقين الفرح الأكبر في
العالم فلا تكوني حمامة بعد اليوم.

- وماذا أكون إذن يا عطر الزهور؟

- كوني نورسًا يطير من الفرح والسرور.

- سأستمد نوري من ضيائك ومياهي من جداول أنهارك.

- أخجلت تواضعي؛ لست تلك الشمس ولست ذلك النهر من
بنات أفكارك.

- أين الثرى من الثريا؟ لأنك الثريا طبعًا.

- أنا الثريا؟ أقبلها ولكن أنت القصر قطعًا.

- قصدت بالثريا ذاك النجم في أعالي السماء، لا أحب أن أشبه
شيئًا من صنع البشر لأنهم يقيّدوه، وأحب أن أكون حرة كتغريدة.
- نعم، لوحات الطبيعة أغنى من رسوم البشر ومن تعالى إلى
التفكر في الملكوت هو الحر عينه وقد استغنى عن مزايل الدنيا،
أعني القصور.

- في محرابك لا يسعني إلا أن أركع معلنة إيماني بك، وتصبح على
ألف خير.

- يا مريم أتى لي هذا، بل قل لي نم واحلم بأجمل أمر.

حالة استثناء.. أقول ذلك حبًا لوطني، فلا يمكنني أن أشوه صورة وطني، ولكن هذا الوطن تجرأ وشوه صورتي. حيي له أكبر من حبه لي، تلك طبيعة الأوطان. وماريا أيضًا. أقول حالة استثناء هروبًا، خجلًا من الجواب الذي هو أن الثورة بطيئة بطاء السلحفاة العرجاء.

أليس في بلدي طغيان؟ أليس في بلدنا فساد وقهر وسراق وناهبون؟ لم لا ثور؟ لم لا ثور إذن؟ سنوات التدجين والإخضاع تفعل مفعولها اليوم. المسؤولون يحصدون ما زرعوا في قلوب الشعب من جهل وأمّية وخوف. مسيرات هنا وهناك ولكنها باردة وجافة. أعتزّ بثورتنا الحمراء الصغيرة في القرية، نعم إنها وطننا الصغير المضطهد الذي قام بمسيرة حمراء دافع فيها عن شرفه. العساكر ضربوا الرجال والنساء، الأطفال والعجزة. تحطمت العظام، سالت الدماء علقت الصور بذهني وترفض أن تغادره. لم تتوقف الشعارات رغم العنف والترهيب، بل سارت المسيرة إلى نهايتها. وسط الجبال وسط الحر وسط الصخر سرنا في هستيريا جماعية، يزداد الغضب مع ازدياد القهر، والشمس الحارقة تساندنا تزداد اشتعالًا، والجبال تزداد شموخًا افتخارًا بنا كأن الجبل بذلك يقول: هؤلاء أبنائي هؤلاء رجالي هؤلاء أبناء الشعب الأحرار الذين سكنوا الجبال قروئًا. استمروا سيروا اقدفوا الغضب في وجه الطغيان، هذا عهدي بكم. إنكم أبنائي الأحرار.

وأتذكر..

وأتذكر..

صورة العجوز المُقَعَّدة التي أصرت على حضور المسيرة حملها

أبنائها في عربة يد صغيرة. يتناوب أحفادها على جرّها وحمايتها من الازدحام، كانت ترفع رأسها تردد شعارات لا تعلم منها إلا أن بيتها هدم وأن بقراتها الحلوب ضاعت وشجيرات الأركان والزيتون التي زرعها وسقتها بيديها اجتثت من جذورها.

هي لم تقرأ سيرة الثوار الصينيين ولا خبر تشي جيفارا، لم تسمع عن الثورة الفرنسية ولا عصر الأنوار. قد تكون رأت على التلفزيون انتفاضة أطفال الحجارة. لكن في الأخير هي مجرد عجوز مسنة أخذت منها أرضها غصبًا، تشردت، جاعت، رأت ضياع أحفادها، فقامت تصرخ. وهذا هو حطب الثورات الجوع والقهر والظلم.

من قال إن الثورات تشتعل بقوة الشباب؟ إنها أيضًا تشتعل بضعف المسنين. إن الضعف الإنساني يوقظ البراكين ويفجرها في وجه الحكام. إن الضعف الإنساني يقلب أنظمة الحكم ويزعزع أركان الطغیان. إن الضعف الإنساني حطب الثورات. المسيرة الحمراء كانت رسالة قوية إلى الدولة، التي عملت كعادتها على بث جواسيسها ومخبريها في كل مكان، في القرية، في القرى المجاورة، في السوق الأسبوعية، في المحطات الطرقية، وحتى على الحافلات والعربات، ترصد كل كبيرة وصغيرة، بل كل صغيرة وأصغر منها. في المقاهي على الخصوص ينتشر أشباه المواطنين لينشروا الإشاعات بين الناس، وكانت الإشاعة الأشد سخرية هي محاولة ضرب قوى اليسار الراديكالية، فقد عملت الدولة على استهدافهم بالدين وقالت إنهم لا يصومون رمضان لا يصلون ولا يعبدون الله، فكيف يمكنهم مساعدة الناس وتحقيق العدالة ما داموا لا يعرفون الله؟

الدولة البوليسية المريضة بمرض الاستخبار ترصد الميزانيات الضخمة لرصد حركات المواطنين وتقلبات أمزجتهم وحتى أنواع سراويلهم الداخلية، إنها ميزانية تكفي لبناء القرية وما حولها وبناء

المستشفى والمدرسة، ولكن ليبقى الشعب جاهلاً مريضاً مهائاً
ترصد الميزانيات لتكثير العيون الراصدة والبصائين الذين يكتبون
تقارير يومية.

يا لظلم الأمكنة! المدرسة القديمة تقفز قفزاً إلى الذاكرة حين
كنا نغني «يا وطني الغالي لك إجلالي أنت في روحي أنت في دمي».
ذكريات مرتبة ترتيب المنهاج الدراسي وترتيب السنوات الدراسية.
كنا نركض نلعب نغني يا وطني الغالي.. بين الحشائش والزنابق
وشقائق النعمان على الخصوص لأنها تكثر في فصل الربيع
والياسمين أيضاً من الزهور التي تزين فصول الطفولة من رواية
الحنين.

أشرطة أميمة الخضراء وظفائر رقية المجدولة وبذلة سمير
البيضاء ونشيد المدينة «يا قدس يا مدينة الصلاة أصلي».
أبا هند دعنا نخبرك اليقين، فالوطن بات يؤذينا، وطن الغرباء
والآخرين

يطرق مسامير الوجع في قصائدنا حيناً
ويدق نواقيس الإهانة في ثرنا حيناً
وطن الغرباء والآخرين.

يكفر بأناشيدنا المدرسية القديمة ويأتينا بسمفونيات عسكرية
يلحن بها كلمات السب والشتم ويجعلنا نغنيها، لا في ساحة
المدرسة بل في مخافر الشرطة ودهاليز السجون.

يا زجاج التاريخ وقافية الجغرافيا.
يا سطور كراساتنا ودفاترنا، يا كل بيت شعر من محفوظاتنا.
يا كل شرح جانبي وكل حاشية أليمة.

يا كل قلب خططناه بقلم الرصاص وثقبناه بسهام كيوييد
الشهيرة.

يا كل نجمة خماسية خضراء رسمتها أناملنا الصغيرة تتوسط
بساطاً أحمر يتوسط حديقة مفروشة بالزنابق والسنابل والياسمين.
لقد ثقبنا جراحنا ودماملنا وبثورنا لنسقي الوطن، الوطن الذي
ظل يوزع مناشير حزينة في بركة التاريخ ليسكت الحناجر، سقيناك
يا وطن، سقيناك بالدم والقلم والأنامل والصدور، وانتظرناك
انتظرناك عذراء الظفائر والجداول تمشي في حبور، فجئنا ضفدعة
مجهولة الاسم منهوكة الجسم تلعن تشتم تقتل، غانية فوق
الستين موطوءة الفم والقدم يابسة النهدين. جئنا خريطة
انشطرت نصفين مغرب لنا ومغرب لغيرنا، بل مغرب لغيرنا ومغرب
لغيرنا. أحملك وزر الطفولة والحروف على الألواح والخريشات على
المقاعد الخشبية، أحملك وزر الدمع المسكوب على مقابر الخيانة،
أحملك وزر القلب المتيّم عشقاً لك ولكن أنت تصر على أن تكون
وطن العناكب والجنادب والنسور.

اكتب يا مدوّن التقرير إن الطفل سمير وأميمة ورضى وكل شباب
العشرين سيغنون، لكن ليس في مدرستنا القديمة، بل في ساحات
التغيير.

أتت ريح مكسورة خاطر من كوة الباب، بعثرت حزنها الدافئ
على سريرى، تقلبت في حلمي الأخير المتعلق بالثورة والذي كان
أقرب رؤاي إلى الكوايس، تقول الريح إنها مرت بنخلة عربية وما
أسقطت تمرّاً، ومرت بحقل مصري وما تناولت فولاً، ومرت بجوز
الأطلس وما تسوّكت، ومرت بزيتونة تونسية وما عصرت زيتوناً،
تخففت الريح من الكلام، ونامت.

الذاكرة المتعبة..

نجمع شتات المواقف، وقصاصات الجرائد، رؤوس الأقلام
وسجل الأقلام. لنقول كان هنا ورحل صوب المستقبل. غمرته
مياه السد الملعون واختفى كما اختفت قريننا، يرتفع الماء شيئاً
فشيئاً، ليغيض الجبال.

الذاكرة المرتبكة..

تحفر القبور بحثاً عن ركام صدئ، لا لتعيد دفنه في قبر لائق،
بل كي تنعّص عليك ليلتك، وتحركه من مكانه تحت التراب لتصنع
منه صغير دراكولا ثانياً، هذا مُحال، هي مرتبكة جداً وترتكب
أخطاء تقديرية في تواريخ الصداقة ومواعيد الرحيل وحتى مواقيت
الدفن في مقبرة النسيان. كثيراً ما أوصيتها بعدم تحيين المتروكات
في سلة المرميات، ولكنها ببرامجها المعقدة تضبط كودات البرمجة
الخاصة على ساعتها الداخلية المحسوبة خارج نطاق رغبتى، تلك
اختصاصات خارجية ولا دخل لي بها.

فلتفعل الذاكرة ما تشاء.

شتان بين ضغيب الأرانب وضرة النمر، شتان بين حب وحب،
ذات زمن كان الغرام يستلقي على جسدي، وكنا غير خاضعين
للجاذبية، عصرًا نشرب قهوة القرنفل أو شاي عرق سوس استعداداً
لدهشة المساء، ومع بداية المساء نستكين إلى سطيحة أعلى البيت
نراقب القمر، كانت تغرينا البطاقات البريدية ونشتري منها المزيد
فرحاً بالورد والقلوب الحمراء الموزعة في تناسق كالعشق تتمدد،
وتلك الكلمات من روايات الفرسان والأميرات تتوهج وسط كوكبة
الخطوط الوردية. أحبك لا تنسي حبي، أنت حبيبتي، حبي الأول

والأخير، لك قلبي، أنت أو لا أحد. ما أبهج زمن الحب! كأنه طفل صغير عليه أثر النعمة متورد الوجنتين لا يملك الناس إلا أن يعجبوا ببرأته الطفولية، ذات غرام كانت لمفردات الغياب زلزلة الساعة ونواقيس الخطر، وكانت لها دموع الحيرة وبكاء بحيرة العين الزرقاء، وكان لمرادفات الشوق سكاكين الأنين، أما اللقاء فكان عرس الزهر والياسمين.

واليوم..

تسير بمحاذاة السور العتيق لتارودانت ولا تدغدغك أي أثربة، تسبقك حمى جبن وتطوقك وتمنعك الحب، تقتل فيك نسيم الهذيان الجميل عن زمن الوردة الحمراء وكل معانيها المتوالدة. كيف حالك؟ تطرح السؤال على نفسك.

أنا بخير. تجيب.

وتمضي في طريقك تتلمس أجوبة لأسئلتك الشفافة، تسكب ما تبقى من الحنين على الأرصفة، تارودانت عشيقتي، الذين اتخذوا لهم عشيقات في المدينة يغيروا بهن طعم القرية، يعرفون جيدًا دروب المدينة العتيقة ومكامن قتل الشهوات، زقاقات الخمور والحشيش وماء الحياة، والغابة المحيطة بها، ولكن أنا اتخذت المدينة كلها عشيقة لي، ولا طعم أغْيَرُه سوى طعم التراب على حدسي ومنطقي، لا جسد أشتهيهِ سوى جسد السور ألامسه وأتحسسه إنصافًا لي لا له.

أي الطرق أسلك الآن وقد تعقدت المسالك؟

فاجأني خريف من الصور التي لا تتردد في طرح سؤال بعد آخر، بل هو نفس السؤال، ماذا بعد؟ ماذا أعددت لفصل الرياح والأمطار؟ أي درب ستسلك؟ أي منعرج تطوي؟ بل أي شاي تشرب بعد كل الكؤوس؟ ماذا الآن أنير؟ قل تحدث! فكر، ماذا ستفعل الآن؟

ستركب قطارًا آخر من الذكريات يجر وراءه عربات الحنين.
ستغني تلك الأغنيات عن الماضي الحزين.
سترقص.

الآن استقر الزمن على الرتبة، مظاهرات هنا وهناك، انشاقات في صفوف المحتجين، انسحاب بعض الأطراف عودتهم، لم تصرف كأن الأمر لا يعنيك؟ أكنت تنتقم منهم، لأنهم لم يساندوا ثورتك الصغيرة في القرية؟ ألا تثير شعاراتهم أي حماسة فيك؟ أين حساسيتك المفرطة تجاه الظلم؟ أليسوا شعبًا من المقهورين؟ لم تعد الهتافات ضد الاستبداد تبعث فيك دفء النضال ورعدة المقاومة! أنت ميت لا محالة وسيدفنوك بعد الظهر، ليسقط الاستبداد يقولون أليس هذا مرادك منذ وعيت الظلم وتعلمت قسوة الأوطان؟

الناس في المقاهي ينظرون إلى جموع المحتجين، أي بلد هذا؟ لا يقوم فيه الرجل عن كرسيه في المقهى ليرى مصدر الضجيج والهتاف؟ لو كان شجارًا في زقاق بين سمينتين لهبوا لفصه، عجبًا لمن يحمل جريدة الصباح والمساء ويقبع في المقهى تمر قربه مظاهرة تطالب برفع الاستبداد ولا يقوم من محله ليستطلع. أتحمل له الجريد كل الأخبار لدرجة لا يتعب معها نفسه في القيام، أم أن مفعول الجريدة طوال سنوات يسري عليه يخدره كي لا ينهض، أم هو الخوف، أم هو التعالي؟ لا يمكن فهم شخص كهذا. وأنت ألسنت منهم؟ لم تقف كالبعلة تنظر في وجوههم وتتفرس صورهم؟ حتى الحنين لا يستيقظ في سريرك العفن. تقدمت بك السنون يا أنير.

تلة من الشباب ورايات سوداء، والغضب، لا، بعضهم ليس غاضبًا، هم عاديون يرددون شعارات عادية ربما. ألهذا لم يثيروا شهية الاحتجاج عندك؟

تنخرط فجأة في كوكبة المتظاهرين ترفع صوتك كما لتجرب
أوتارك ودرجة امتداد صوتك، الكوكبة مشحونة بالغضب مستعدة
لندوس سيارات الشرطة التي تطوقها عن قرب وعن بُعد، خليط
من اليسار الراديكالي وجماعة العدل والإحسان، وأنت إلى أي جهة
تنتمي، لا منتمي، لا منتمي أنتمي إلى الشعب المقهور، لا، أنتمي
إلى نفسي فقط، الكل هنا من أجل الحركة فقط مع طمس
التوجه الأيديولوجي، ناقشت الفكرة مع نفسك، لم ترق لك
منهجيًا وتنظيميًا، لا يهم، سترحل بعد قليل، فأنت كأرنب سباق
ستتعب وترحل وترك المظاهرة تسير إلى نهايتها، الرايات السوداء،
وعلم فلسطين وتونس ومصر وسوريا، لم تحضر فلسطين في كل
نكبة؟ هل تحتفل بعيد ميلادها مع كل ثورة؟ جرح مشترك يضمّد
بالأعلام. تلمح صديقًا لك في المدينة، تقترب منه شيئًا فشيئًا،
ولأنه قاص يحترف الكلمة، تطلب إليه أن يكتب لك قصة قصيرة
عن رجل يقبع في المقهى ويسخر من الثوار ويقول إن دوره أكبر
وأرقى من الصياح مع جمهور من الشباب الملتحي والتشيجيفاري،
يستسلم صديقك لفتنة المشهد ويعدك بأن يفعل، فالصورة
مكتفة مضحكة هزلية ودرامية كما يحب وكما كتب دائمًا وكما
يحب شخصيات قصصه، كائنات ذهنية من نوع صاحبنا على
رصيف المقهى، يتناول قهوته بالحليب ويمضغ علكة الفشل لأنه
ليس من جيل التغيير، مات على جريدته منذ يوم ولادته، حتى
عندما لم يجد عموده المفضل، وأخبروه أن صاحب العمود
معتقل، حرية تعبير تأسف على مساحة السواد مكان العمود لا
على الصحفي الجريء.

ومع سمري على الفيسبوك وصلني قصة شكيب أريج كما توقعتها، ساخرة في صميم ملهاة رجل المقهى، أحسست وأنا أقرأها أنني سكبت بولاً في قهوته الحليبية وأنها استحالت قهوة ديدان الأرض، وأنه يتناولها كضفدع أخضر في مستنقع، قرأتها بلهفة بشوق لأنها سطورها وكانت كما أردتها، عابثة حد المجون، رصاصة من مسدس الحكي بكاتم صوت. عمود الكهرباء.

لو تحدث العمود..

لو تحدث العمود القائم في رأس الشارع عند المقهى الذي يفتح واجهتين على شارعين لا تهدأ حركتهما.

تعالى العمود واشرب برأسه فتدلى منه مصباح باهت الإضاءة. كان العمود يتوق إلى الحديث عن بائع الديتاي عند قدمه، عن الباعة المتجولين وأصحاب الكراريس والفراشة، عن ماسحي الأحذية، وعن المتسولين، وعن المارة، وعن رواد المطاعم والمقاهي، أحد هؤلاء الرواد يبعد عنه بخطوات. كم يشبهه هذا الرجل! طويل مثله. جامد مثله. صامت مثله. مثله مثله.

لو تحدث العمود القائم في رأس الشارع عن هذا الرجل، يأتي كل صباح، يقرأ الجريدة، يشرب قهوة سوداء، يدخل بشراهة، ينظر بامتعاض إلى الناس ويمط شفثيه ضيقاً مما يسمعه، يتابع حركة الشارع، السيارات، الواجهات، اللافتات، المؤخرات.

العمود القائم في رأس الشارع يخال هذا الرجل مثله، فهو يشاطره نفس الإحساس إذ يتوق دائماً إلى القيام بحركة عكس توقعاته، إنما لا يستطيع، يود لو يعصف غاضباً في وجه المعريدين من السكاري، في وجه المتعجرفين المعجبين بأشكالهم. يود المسكين

لو يلاحق الجميلات التائهات، الساهرات، الباهرات الحسن،
الضاربات بالمؤخرات ذات اليمين وذات اليسار. يود لو يلاحق موكب
العرس ويرقص فوق السيارة المبهرجة وسط دهشة وفرحة نساء
ورجال وأطفال العائلة الموقرة. يود لو يلاحق مظاهرات الشباب
بالشعارات الساخنة لا بعينيه المبلقتين. يود لو يسير جنبًا إلى
جنب مع تلامذة وطلبة المعاهد الدراسية. لو يتحدث فقط.
غمس الرجل سيجارته في المنفضة وتأمل العمود القابع أمامه
أبدًا. تساءل في قرارة نفسه عن أوجه الاختلاف بينهما.

يقف النهار وما طال، ويسهر الليالي بطولها وعرضها. يقتسمان
الفضاء نفسه والدخان نفسه. وكلاهما يكتفي بدور الشاهد على
حياة الشارع.. أكيد أن العمود تعاطف مع المشردين والمتسولين
لكنه مثله لم يحرك ساكنًا. كم يشاطره هذا السكون الرهيب!
وأكد أنه مثله لعن قطاع الطريق في وضح النهار وفي وحشة
الليل. مثله أثر الصمت المذل. تساءل الرجل مع نفسه: ماذا لو
تحدث العمود؟

كان السؤال يزنزن في رأسه الأسمنتية: ماذا لو تحدث الرجل؟ مثله
قابع أبدًا هناك، تتبدد أمامه أدخنة المطاعم وأدخنة السيارات
وأدخنة السجائر.. يرى الجميع من أعلى عليين. يمقت تسارعهم،
تهافتهم، تكالبهم، لا يشاركونهم في شيء مما يفعلون. محايد حد
الموت. لا فرق عنده بين من تقيًا عند حدائه، ومن مسح مخاطه
أو دمه عند قدميه.

أشعل الرجل سيجارة جديدة. تأمل بعينين فارغتين متسولاً
مقطوعة يده اليمنى، يستجدي براحة يده اليسرى. أكل المتسول
أغنية الاستجداء. انصرف. أشار ماسح الأحذية إلى استعدادده لتلميع
حذاء الرجل. أشاح الرجل بوجهه.

استرق النظر. استرق السمع. هؤلاء لا حديث لهم إلا عن البورصة

والريال.. كم هم مغفلون! هؤلاء أهل اللوح والطباشير لا حديث لهم إلا عن الإدارة والوزارة.. كم هم مملون! هؤلاء أهل الفكر والسياسة يخفت حديثهم وما يلبث أن يعلو.. كم هم مزعجون! طاولته كانت تنعم بهدوء مشوب بالريية، فلطالما نظر إليه البعض على أنه مخبر، ولطالما تنذر به بعضهم. أشاح بوجهه حين احتكم إليه أحد زبائن الطاولة المجاورة:

- هل أنت مع الريال أم مع البورصة؟

لم يكلف نفسه عناء الجواب على سؤال أحدهم حين مرت مسيرة احتجاجية:

- أأنت معهم أم ضدهم؟

كل الذين يستفسرونه عن حاجة أو ساعة أو مكان لا يلقون عنده إلا جوابًا واحدًا:

- لا أعرف.

لا أحد أكثر معرفة منه. هو يعرف كيف يمكن أن تحل مشكلة البطالة في رمشة عين وكيف يمكن أن يزدهر التعليم بين عشية وضحاها، وكيف ينتظم السير بدون قانون سير. صمته حكمة وعدم إدلائه بدلوه في هذا العالم الذي تكاثرت فيه الدلاء حياد إيجابي، ثم إنه لا يستجدي الآخرين من أجل الأخذ بمعونته، من يعرف قيمته عليه أن يأتيه زحفاً. يفضل الانتظار الأبدي على الانغماس في حمأة طواحين تطحن نفسها.

في ذلك المساء رمشت عين مصباح العمود على غير العادة. نظر الرجل إلى أعلى، ثم عاد إلى طأطأة رأسه.

لم يسمع همس من هم غير بعيد عنه. كانوا يراقبونه طوال الوقت وقد تأكدوا تمامًا أنه لا يمكن أن يكون إلا مخبراً.

وغير بعيد منهم كان آخرون يخلعون الشك ويلبسون اليقين «هذا الرجل ليس مخبراً مثلهم».

تلعثم ضوء مصباح العمود، تراقصت حبال الكهرباء، ارتبك
الشارع، مال العمود ببطء مهيب. كان الرجل يرفع رأسه بهدوء غير
عابئ بالجلبة حوله. وفي اللحظة التي حذق في العمود المتهاوي، كان
المشهد يرتج في جمجمته وينتهي.
رأس العمود متهدم على حافة سطح المقهى. حطام كراسي.
سائل القهوة السوداء اختلط بسائل أحمر بأعقاب سجائر. العمود
يجثم بركبتيه على وجه الرجل المهشم.
لك صديقي القصة كما طلبتها.
توقيع شبيب أريج.

شكرًا لك، ذلك مآله، تلك نهايته المحتومة، وذلك ما أردت له، تمر الجنازة ولا يقف، تمر المظاهرة ولا يلتفت، يمر موكب عروس ولا يبتسم، تقع حادثة سير مروعة ولا يكرث، كذلك ننتقم من عناصر في مجتمعنا بالكتابة، نتخلص منهم دون جرح، نضربهم بقلم الرصاص ولا رصاص، ندفنهم في القبور ولا قبور، نرتكب جريمتنا في صمت أروع من الصوت، نفرغ شحنتنا الكهربائية في عمود كهرباء. شكرًا لك شقيب لأنك بصقت عليه بقم قصة، وأسقطت عليه عمود الكهرباء فلم أعد أنتبه لوجوده بالمقهى، كأنك محوته بمحاة كبيرة عملاقة، فلم يعد يستفزني مروره بجاني وبريهه الأسود ومعطفه الأخضر الزيتي، وجريدته التي فقدت معناها تحت إبطه ذي الرائحة الكريهة. شكرًا لأنك شاعر وقاص يفهمني، شكرًا لأنك قاتل مأجور لا يسبح دمًا ولا يرتكب جريمة.

سقط العمود؛ فلتسقط جميع الأعمدة ولتسقط جميع الأقنعة، لتظهر الحقيقة ليتعري الوطن من ثياب الظلم البالية، وسراويل القهر، وليتخفف من أحزمة الخداع ولينظر إلى نفسه في مرآة كبيرة لعله يكتشف أن لا عورة له وأن بإمكانه -هو وحده- أن يمشي بين الناس معززًا مكرمًا، وأن عريه عظمة وشفافيته حكمة، سيكتشف -ولو متأخرًا- أن العري ليس فضيحة خصوصًا حين يتعري من ملابس الحزن ويتجمل بالشمس والريح والسكينة.

تعري يا وطن فلا عورة لك.

لا تكون لك أجهزة تناسلية إلا حين تقنع نفسك بأن جهازك العسكري يستطيع حل كل المشكلات العويصة، آنذاك تصبح لك مساحة عهر تتسلى بكشفها أمام الجميع، حينذاك سيستنكر

البعض فعلتك ولكن الأغلبية ستستلطف غريكَ الفاضح؛ حين يكون الوطن أنثى ترمي بالخطيئة على رصيف التاريخ المنزلق، آنذاك سيتمتع الكثير من تجار الوطنية بالتفاوض حول ثمن الليلة وكما سوترا القبض والمساومة، آنذاك سيفترشها قطاع طرق حرية ويفترعها شواذ القانون.

ألبس ليلى وأنام على سرير الرغبة، الرغبة في التغيير، أزيح عني حاسوبي الذي أضعه على صدري لأنام، ولكن قبل رفعه تأتيني رسالة على الفيس من عبد اللطيف يقول:

- تصبح على وطن حر.

قلت له مازحًا:

- تصبح على حب، فالوطن يحتاج حبًا أكبر من ذي قبل يا صديقي.

كثيرون تؤرقهم حال الوطن، كثيرون يحبون وطنهم بصدق. لا ينامون إلا والوطن على أسرتهم يداعبهم ويداعبونه، يقبلونه قبله ما قبل النوم ويغطونه، بأدفاً غطاء. هؤلاء يعرفون أن الوطن ليس بذكر ولا أنثى، يعرفون بأن الوطن جسد دون عورة، ملاك من نور ولا أحد يستطيع إطفاءه، ولو اجتمعوا.

كان العمود ليسقط عليّ لولا بعض جيناتي الثورية من زمن يوبا ويوسف بن تاشفين وماسينيسا وعلي الكومي، وتكفاريناس.

لو استمرت الأعمدة في السقوط لفرغ المقهى من كل زواره، لخيم الموت على المدينة ولجأ أناس من الكواكب الأخرى ليقطنوا فيها وتلك القلة القليلة من المعارضين بجيناتهم الرفضية سيحسون باللا وجود في مكان عمرته كائنات من كواكب أخرى ربما من نجوم بعيدة، ولكن الأعمدة فضلت الصمود خوفًا من التغيير وبقيت كما هي جذورها في التربة ورأسها في السماء هي لا تنظر أبدًا إلى ما يقع، بل تغض الطرف عن كل شيء.

سأنام، فصوتي بُحَّ من الصراخ وترديد الشعارات المعارضة، كانت ضد كل شيء، الفساد، الدكتاتورية، الرشوة، المحسوبية والزبونية، حبالى الصوتية تمددت وعضلات وجهي متعبة، سأنام، سأنام نومًا طويلًا ثقيلًا، وقبل ذلك أمر على غرفة أُمي، أطل من الباب طلة خفيفة للاطمئنان عليها، أغلق الباب بحذر مخافة إيقاظها بعد منتصف الليل.

أسمعها تنقلب إلى الجهة اليسرى، اليسرى نعمن هي تنام أولاً إلى الجهة اليمنى تردد أوردة وأدعية ما قبل النوم وهي متكئة على جنبها الأيمن، كأنها لم تنتبه لإطالاتي ولكني أعلم يقينًا أنها أحست بي، أنها انتظرتني، حين لا ينتظرك أحد في البيت فاعلم أنك عبثي، وحين تنتظرك أمك العجوز اعلم أنك ممتلى حتى النخاع بعصير الحياة، فلتنتظريني أُمي الطيبة، فقد انتهى زمن العبث. سأنام، منذ مدة طويلة لم أشعر برغبة في النوم العميق، كأن المظاهرة ساعدتني على تفجير مركبات الأرق التي تعسكر في جوفي، بهدوء إذن أنسحب إلى غرفتي الرمادية حيث كل شيء رمادي كمنزل كوكاكولا، مشروب الصودا هذا لم يكن له لون أسود بقدر ماكان يمزج ألوانًا من الأحمر والبني والرمادي والجنسي والصيفي واللذيذ وكل ما تعالق به من ألوان الفرجة والفرح بحكم تاريخه الكبير في الإشهار الذي يرافق المغاربة كظلمهم. مع كل مناسبة تخرج قينة الكولا كعروس في حُلَّة جديدة تتدلى لها أسنة العطشى والجوعى للمتعة. وعدا الإشهار فهو مشروب كغيره سكريّ المذاق، ترافقه صور تلفزيونية من أحلام اليقظة والجوائز التافهة والكثيرة. ما كان يهمني فيها البيت الذي اتخذته لنفسها في الشرق، بيت كوكاكولا

وتصميمه العالي الذوق والرفيع المستوى، والذي أوحى لي بديكور غرفة النوم في بيتي المديني، الذي أقطنه أنا وأمي ولم تدخله أنثى غيرها سوى بعض الجارات بحكم التواصل الاجتماعي، حتى أن الطيبة لم تقبل بدخول خادمة للبيت واكتفت بمساعدة الجارات لها في القيام ببعض الشؤون الصغيرة، فهي دائماً تقول لا عاشت امرأة تنتظر امرأة أخرى لتغسل ثيابها وتطبخ لها طعامها، وقد ضغطت عليها بشدة لقبول خادمة إفريقية من المهاجرات لكنها رفضت.

كان لي عدة منازل، فحياة الترحال والتهجير التي عشتها في صغري علمتني قانون الاحتياط، وكانت عقدي مع المنازل أعقد من أن يحلها معالج تنموي، كنت أمر من المدينة وأشعر بحمي العقارات تسري في دمي.

لذلك كان لي أكثر من بيت وامرأة واحدة.

ولكني أبدو تائهاً بلا عنوان أسير إليه، أينما اتجهت أجد باباً يفتح في وجهي، ولكن.. يبدو الأمر صعباً بعض الشيء. تلك أبواب حديدية سهلة الفتح بأففال مفاتيحها بين يدي، الأشق عليّ فتح باب لا أملك مفتاحه ولا أملك عنوانه أصلاً. باب المستقبل.

سأنام، أكتب على الفيس آخر تعليقي، وقبل أن أتممها يأتيني تعليق من زمن الصداقة البنفسجي، قائلاً:

«صديقي أحتاج إليك، فمتى سترفع وجهك عن كتبك لتتفقد من قررت أن تعدمهم دون محاكمة عادلة وتقرهم في مقبرة النسيان قسراً دون أن يحين أجلهم؟ أحتاج إليك صديقي قبل أن أصير مجرد ذكرى ويصير الرثاء مجرد هراء، أحتاج إليك دون أن أعلم السبب.. أحتاج إليك».

فيما قد تحتاج جسداً محملاً بأطنان الذكريات المعلقة إلى حبل الغسيل الرث، المتسلقة جدران القيم البالية كثوب قديم

من الصوف الذي نخرته المجهریات، فيما قد تحتاج رجلاً وضع نفسه رهن إشارة العقارات بعد أن تركته المرأة الوحيدة التي أحبها بسبب منع نفسه من البحث عنه خجلاً من ألا يفهم، فيما قد تحتاج رجلاً ظل يتساءل عن الحب ومعنى الحب إلى أن وجده وفقد معناه. فيما قد تحتاج رجلاً ليس له من الحياة وسورها غير قطعة من شعر السيّاب.

أنت الذي غبت دون سابق إنذار دون وداع دون اعتذار، أنت الذي رحلت وتركت وراءك قصة من زمن الصداقة الجميل، وقطعة من السفرجل والرائب ومحبة تيسافين، وكل تلك الأماكن من أولوز من تليوين، من حد إيمولاس من تمضغوست من هركيته من تمالوكت، التي أكلت أقدامنا.. وتركت وراءك أوراقاً تتحرش بذاكرتي سميتها نوستالجيا الحب، فيها نون النسوة من بنات أحلامك وبنات أفكارك، وتركت دفاترك ومذكراتك، كانت حملاً ثقيلاً أضفته إلى القفة الصخرة التي ترزخ على صدري وتجثم على أنفاسي، لم حملتني وزر الفراق، لم حملتني وزر الأصنام المعبودة في ثنايا الظلام، لم حملتني ثقل النوايا وعمق الخفايا، ألّتجعلني كاتباً؟ ها أنا ذا أحرق مرسومك العشري، وأتلو من غير مستنداتك، ها أنا ذا سمسار عقارات كما لم تتوقع من قبل، ولي في كل بيت حائط وفي كل درب منزل، أردتني حقاً شاعراً أردد تراويل السياب حزناً على كل لحظة غضب، أردتني قطعاً يقفز في تدلل ليلتقط فتات الخبز، أنا نمر يصطاد بقوة عضلاته.

تفتت قطع الزجاج ونكسرت صورة الليل في ثنايا التاريخ المنسي. كتبتي ودفاتر شيكاتي، أقلامتي الحبرية وحساباتي البنكية ورسومي العقارية.

وارتباط جاد بالمكان، الأرض الطيبة، وعبقريتها في الاحتفاظ بروائح الحدث، الحدث مهما كان هذا الحدث نقبض عليه حبلاً كان أو

جمراً أو ثلجاً، نقبض عليه بالذاكرة نخزنه في أعماق الجسد.
أحياناً نحتاج الهذيان.

سمسار.. حرفة لا تعلمك أن تترصده العروض وتنتهز الفرص فقط، بل تعلمك أيضاً قراءة النظرات في عيون البائع والمشتري، والاقتصاد في تقديم المعلومات، فالعصر عصر المعلومة، قل لي كم تعلم أقل لك كم ثروتك، أحياناً كل معلومة تساوي ثروة من الدراهم وهذه المهنة وإن كنت تعلمتها تطفلاً وفضولاً فقط، فقد عصرت خدماتي وأقمت مكتباً فاخراً، رغم أن سلوكي التجاري بقي تقليدياً يعتمد التنقيب والعلاقات العامة والتشارك والتراجع والغدر والإشاعة وأشياء أخرى من قبيل أسرار المهنة.

فيلا على شاطئ البحر لا تغريني، لأنها بيعت مئات المرات عكس دار مثلاً في المدينة القديمة، التي قد تدر أموالاً طائلة بإعادة استصلاحها وتغيير ديكورها الداخلي أو حتى تحويلها إلى رياض سياحي أو دار إقامة وضيافة.

كنت مجرد كاتب بسيط لديّ منعش عقاري أكتب في صمت معاملاته وتعاقداته، بدأت أفهم شيئاً فشيئاً لغة السمسرة وإيتيكيت النفاق والخداع القانوني والبيع والبيع المضاد، ومبدأ أخسر قليلاً اليوم لتربح الضعف غداً، ومبدأ الفكرة أهم من رأس المال، ومبدأ العمل عمل والصدقة صداقة، ومبدأ الكلمة غير الموثقة كالهواء.

كان الحاج سليمان يعلم أنني أتعلم منه، بل وأنا أسرق أسرار مهنته، وحتى بعض علاقاته، لكنه لا يمنع عني ذلك ولا يغضب، كأنه أحس بأستاديته لي وأحياناً أحس من إشارات أن درساً مهماً عليّ الانتباه إليه على وشك أن يقدم، خصوصاً حين يحتدم الصراع حول بقعة أرضية جديدة، أو في عروض المؤسسات العمومية

وإدارات الدولة التي تعتبر موردًا لا ينضب للمنعشين العقاريين، ولكن هذه الأخيرة تتطلب أن يخلط الإنسان السياسة بالعمل الجماعي بالعقارات.

فلا فائدة من الاستثمار في منطقة لن تقوم الدولة نفسها بمدها بالماء والكهرباء ومجاري الصرف الصحي، وهنا ضرورة الحصول على المعلومة الصحيحة في الوقت المناسب ولا مصدر لهذه المعلومة غير موظف رخيص من إدارة ما.

الحاج سليمان بجلبابه ولحيته يختزل كبريات النظريات في الاقتصاد والتدبير والأعمال، بل أربع شركات تحت طاقة واحدة، هو لم يحتج إلى كاتب يدير مواعيده أو لقاءاته، فماغه عبارة عن مكتب سكرتارية أنيق ومرتب. على خلاف مكتبه العقاري الذي كان أقل من متواضع، بكراس خشبية وأريكتين قديمتين ضاع لونهما تحت الأوساخ المتلبدة عليهما، كانت حانوته، إذ لا يمكن أن نسمي المكان مكتبًا على كل حال، مقرًا للكتابة العمومية، وهي حرفته الأولى قبل أن يبيني مجده، وتحولت شيئًا فشيئًا إلى مكتب عقارات بيع - شراء - كراء. لم يطلق الكتابة العمومية لأنها بدورها تشكل ركنًا من أركان السمسرة ومصدرًا من مصادر المعلومات، فكثيرًا ما تحولت شكايات حول الإرث إلى فرص ربح كبيرة تحول معها الإرث إلى ملكه الخاص.

كان الحاج سليمان مستمتعًا بالحياة إلى أبعد الحدود، تزوج أربع نسوة كلهن على شاكلة واحدة كأنهن خرجن من مصنع واحد أو أن هذا المصنع وقع عقدة مع الحاج لتخريج دفعة تحت الطلب، كان يشترط في المرأة -كما أخبرني وكما لمحت بأمر عيني مرة وأنا في بيته- أن تكون على قدر من السمعة يفوق مئة كيلوجرام وما زاد فهو خير، العينان يحبذهما زرقاوان وإن اخضرتا فلا بأس بذلك، هذان ركنان أساسيان في القبول والطلب، لا أذكر أن له مغامرات أخرى

خارج الزواج، فهو على قدر كبير من الإيمان، لا تفوته صلاة في المسجد مع الجماعة، ويصوم كل يوم إثنين وخميس، يحفظ كل الأوراد اليومية من الأدعية والآيات القرآنية، يرفع يده بالدعاء عند كل صفقة أو عقد، أنظر إليه أحياناً فأجده على قدر من الطمأنينة والسكينة التي يورثهما الاستقرار والثبات في اتخاذ القرارات، وربما هو وجهه المستدير وألوان ملابسه التي يغلب عليها الأبيض هما ما يزيده وقاراً وهيبة بين الناس وفي نظري أيضاً، ولكنه يتحول إلى مقال شرس لا يمكن التلاعب به خصوصاً عند اشتداد المعارك. تلك حياة الحاج الذي كان يكره السفر، فجل حياته قضاها في تارودانت، له صديق مقرب وهو صائغ على قدر كبير من الغنى لكنه مختلف عنه تماماً، له زوجة كمسمار الكباب تكره الذهب وهذا ما جره إليها، فقد تأكد أن مخزونات من الذهب والفضة لن تكون السبب في تعلق المرأة به، يهتم كثيراً بها وبطلباتها وأسفارها وعلاقاتها. الفرق بينه وبين الحاج سليمان أيضاً أنه كان على قدر من الثقافة يحمل بين يديه، بين الفينة والأخرى كتاباً باللغة الفرنسية بما أنه خريج مدارس النصارى على عهد الاستعمار فكانت تربيته على الكتاب والقراءة تفعل مفعولها فيه، تلصصت يوماً على عناوين كتبه التي يتأفف منها الحاج سليمان حسداً ربما أو لا مبالاة فقط، فإذا بي أقرأ: نجمة، كاتب ياسين. جيرمنال إميل زولا.

استغربت علاقتهما بداية وكيف أمكن أن يجتمعا معاً، وجدت التفسير في كتب الفيزياء التي تقول إن السالب والموجب يجذبان بعضهما بعضاً، هما كذلك الحاج سليمان والسي منير الذهبي، يلتقيان على طاولة الضحك وتبادل النكات، الحاج سليمان يرى كل شيء بعين ضخمة كما يقول الذهبي، حتى المرأة يجب أن تكون أضخم لتسد عينه، أما الحاج سليمان فيقول عن الذهبي

إنه يقتصد حتى في وزن عظامه، وتنتهي غالبًا حواراتهما مع أذان العشاء، عندما يتجهان إلى المسجد حيث يعيد الحاج تجديد وضوئه بينما يدخل الذهبي المقصورة مباشرة فهو مقتصد أيضًا في ملء كيس بطنه.

للذهبي ولد واحد يدرس في فرنسا بجامعة السوربون، يدرس الأدب الفرنسي الحديث، ورث حب الفن والكتاب عن أمه التي لا تفارق الكتاب في حلها وترحالها، أما الحاج فله أبناء من كل امرأة أغلبهم في سن البكالوريا والجامعة يستحيل أن يقبل منهم مغادرة الدراسة قبل البكالوريا طمعًا منهم في العمل معه، بل يجبرهم على تكرار المستوى حتى يتجاوزوه بنجاح، بمجرد حصولهم على هذه الشهادة يمكنهم أن يفعلوا بحياتهم ما يشاؤون وله أن يمول كل مشاريعهم، ولكنه يطلب منهم طلبًا واحدًا أن يعتمدوا على أنفسهم لبناء ثروتهم لا عليه، أما البنات فلهن حق الاختيار بين المكوث في البيت أو الزواج، ويستحيل في نظره أن تذهب الفتاة للدراسة بعيدًا عنه في مدينة أخرى، ولو كانت قرية مثل مدينة أكادير الجامعية، فكل القصص عن بنات الجامعة الحقيقية منها والمزيفة، المرئية منها والمسموعة تجعله يتحجر على موقفه رغم مراجعات صديقه الذهبي، والحقيقة أن له جواهر كالألماس ليحفظ بهن في البيت، كلهن شقراوات، زرقاوات العيون، إذا حدث ومررن أمام المحل يتبعهن إلى أن يدخلن الرياض الذي يسكنه، لا يراقبهن ولكن يراقب الأعين التي تربص بهن والأعناق التي تتناول من الدكاكين المجاورة لاستراق النظر.

- اخجلوا لعنكم الله. لا تحسنون سوى التبصص على الناس، العمى، العمى لكم.

كذلك يصرخ في وجهه من حدث ورآه يحملق فيهن.

هناك رجال بحجم الجبال يجب أن تلتقي بهم ليغيروا حياتك رأساً على عقب، من أمثال الحاج سليمان، عليك فقط أن تتصف بالنباهة وتبعد عن نفسك بلادة المقهورين وغباء الطبقة الوسطى، انطلق فهناك أكثر من باحة لتجري فيها.

كان الذهبي ينظر إليّ مراراً وتكراراً ويقول للحاج: من أين أحضرت هذا الصيني؟ إنه يعمل كالآلة. يظل منحنيّاً لا يرفع بصره حتى ينهي كتابة العقود والالتزامات. يرد الحاج مفتخراً: سيماهم في عيونهم.

ينخرط الاثنان في جوهما المرح، لا يزعجني أبداً حوارهما، بل كنت أحبه، وأترك شعري ينسدل على وجهي ليخفي ضحكاتي، فلم أكن أرفع بصري ولكني كنت أرفع سمعي وألتقط كل صغيرة وأصغر منها.

كان شيء في هياّتي يحبب الناس في، ربما قصري، شعري وربما عيوني الصغيرة السوداء، لم تكن الطفرة الجينية تهم شعري، فقد كان أفراد عائلتي كلهم بنفس المواصفات، إلا أن عينيّ كان فيهما سواد خاص ونهايات إلى الأعلى تجعل من ينظر إليّ يصنّفني من ميكانيكي شرق آسيا أو يعتقد أنّي من الصيادين الصينيين الذين يعملون على المصانع العائمة وينزلون بشواطئ المغرب، أما القصر فكل أبناء الجبال قصار القامة وحتى لو لم يكونوا كذلك تجد أن ركبهم قد طويت من كثرة المنحدرات والمرتفعات التي يمشون عليها.

وكأهل آسيا الشرقية، عملت على بناء جسدي، وكانت الأثقال التي أتدرب عليها قد بنت كتفي وصدري وجعلت رقبتني أكثر امتلاء

ورأسي مرفوعًا نحو الأمام فكل قصار القامة تجدهم يتطلعون إلى الأعلى، ما ورثته عن الجبل كان غزارة شعر لحيتي وصدري وأطرافي خلًا للجنس الأملط من الآسيويين، كانت كاترين أشد المعجبات بشكلي، وكانت تقولها في جميع المناسبات، ولكن عفويتها في قولها تدل على أنها لم تكن مغرمة بي، كنت في نظرها لوحة جميلة لا غير، ولو كان لي إطار كما تقول ستعلقني في فندقها الصغير الذي تديره بنفسها داخل المدينة، وتدير أيضًا رياضيًا ملحقًا به في ضاحية بعيدة قريبة من الوادي، كاترين الفرنسية تعرفت عليها في هذه الفترة بالضبط التي بدت فيها بتكوين مكتبي وعلاقاتي. هذه الفترة التي سكنت فيها منزلًا مشتركًا مع مهندس كمبيوتر مبتدئ ما زلت أحمل له الود في قلبي، ورافقتني في كل مراحلها كما رافقتها أيضًا وكانت صديقة من نوع خاص، حتى بعد أن نقلت عملها السياحي إلى أكادير احتفظت بمشروعها الأول، ليس وفاء للمدينة بل لأن من المحتمل أن ينتعش من جديد ولأنها تتخذه ملجأ لها حين تتعب وترغب في استراحة بعيدًا عن ضجيج المدن الكبيرة. فمع كاترين لا نتحدث عن الوفاء في مجال العمل ولا مشاعر في المال، هي إذن مربيتي التجارية، ومنها تعلمت بقية الدروس التي لم يحضرها الحاج.

وكان لها موقفها الخاص من ماريًا، عملتا معًا على الفندق الصغير وعلى الرياض خصوصًا ولكنها تقول دائمًا إنني مجنون بحب غير مقنع، فما يجمعنا أقل بكثير مما يفرقنا، وكانت تتعجب من وفائي الشديد لكل شيء. فأنا أتعلق بالأوراق والأقلام التي أكتب بها، فكيف أنسى امرأة بحجم الحب نفسه. وكاترين تحلل الأمر على أن تعلقي بها هو من منطق تعلقي بكل الأشياء وخوفي من فقدان. وأن ماريًا ليست إلا موضوعًا من مواضيع تعلقي. هذا تحليل خاطئ، فأنا أحببتها حقًا لذاتها ولأنها ماريًا فقط.

عملت بجد، في منطقة صغيرة بحجم سهل سوس، كانت لي رحلات مكوكية بين التجار وبين الأراضي والدور والعمارات، كنت أتنقل بسيارة تاكسي وبعدها بسيارة رباعية الدفع مكيفة، لم أكن أحس بتلك التغيرات البسيطة في حياتي لأنها كانت مرتبة ترتيبًا زمنيًا لا يختل، وكلما كبرت أعمالك تزداد حاجتك لوسائل الراحة والتسلية. وتتسع رهاناتك وتصبح شيئًا فشيئًا رجل أعمال، ولكني أكره هذه التسمية وأحن دومًا إلى نعت سمسار عقارات، تلك مهنتي ومادتي الأولية.

كل ما ستفعله بعد ذلك هو الاحتفاظ بأرقام هواتف تديرها عند كل عملية، يكفي اتصال أو اثنان لتكون قد ربحت نسبة مهمة. ويكفي أحيانًا أن تصل هذا بذاك وتنسحب بعمولة تفوق حجم ميزانية مؤسسة.

obeikandi.com

الفصل الرابع شريان ریح شاردة

obeikandi.com

تعالى معى لنصنع الليلة ماضياً مشتركاً
يقول المريض بالحنين
سأتى معك لنصنع غداً مشتركاً
تقول المصابة بالحب
هى لا تحب الماضى وتريد نسيان الحرب
التي انتهت
وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته
ولأنه يريد أن يكبر أكثر.

الشاعر محمود درويش

obeikandi.com

وأن تكون في الأربعين من عمرك، أعزب، بأوراق كثيرة تتحرش بك ولا وقت لديك للكتابة عليها، تلك مسألة أخرى، أن تنصب نفسك مؤرخ قريتك، بل مؤرخ جراحاتك ومنعرجات فجائعك، قلبك الذي يسيل مع كل ذكرى بدم الحنين، لا يسمح لك دومًا بأن تكون سمسار عقارات فحسب، بل يطالبك في المقابل بصفقة حزن غريبة، ففي الأعماق يسكنك رجل فاشل، فاشل في الحب وفي الثورة، في وطن فاشل، فاشل في التغيير وفي الثبات، تحاربك امرأة انسحبت دون مقدمات من حياتك لتترك الجفاف واليباس، وتلك الكتلة من نسوة الدقائق اللواتي يفشلن هن أيضًا في الإحاطة بحزنك، فينسحبن من مجالك العاطفي غير نادمات على مسار رجل أربعيني محمل بالهواجس ومسكون بامرأة واحدة حطمت مشروعه العاطفي وتتحرش بقريته المهجرة لتلقي فيها بمشاريع زوجها الثري.

تلك المرأة ماريًا، ليست ماريًا اليوم بل ماريًا الأمس البعيد، السوسنة التي تطير بلا أجنحة وتحط في عش العشق. ليست تلك التي رفعت التحدي وباعت ما تبقى من نظرات الحنان، ماريًا الأمس البعيد، الذي يبدو أبعد من الحقيقة، هو أمس الغموض والرحيل.

الجرح جرحان، مدية وطن وغدر حب قديم. ماريًا.. إن كنت أنت سيدة الزوايا الضيقة فأنا رجل المسافات الطويلة.

ماريَا الشَّعر، ماريَا الوطن، ماريَا الكلام والهمس، سيجمد جسدك بالكلوروفيل، كأَي ضفدعة مختبر، لأنك أنت من سمحت

نفسك بأن تكوني شيئاً من أكسسوارات الرجال، الرجل يملك السلطة والمال وإمكانه تحنيطك داخل المنزل لتحضري معه حسب الطلب سهرات رجال المال، ترتدين فستاناً موقعاً من غيره وحذاء بكعب أقصر كي لا تنفض قامته القصيرة وأنت قربه. وستبتسمين ببلاهة كلما مر بقربك رجل مهم. ابتسامتك ستكون صفراء مستطيلة. لن يصدقها أحد. وضحكاتك المدوية ستخفت تدريجياً.

ماريا الوطن..

هل اعتقدت يومها أنني سأظل الكاتب العمومي، يملي عليّ الحاج سليمان ما أكتبه وأنا لن أرقى إلى مستوى الصفحات الأنيقة من وحي الشعر؟ خاب ظنك، ها أنت امرأة ديكور كما لم ترغب يوماً، ها أنت معلّمة وطنية يلتقطون حولك صوراً تعيسة، ها أنت قد فقدت اسمك البرّاق وأصبحت حرم فلان، جنباً إلى جنب أنت وهاء الغياب.

أنت كالوطن، يضعك التجار والعسكر في إطار ذهبي كواجهة، كستار يغطي جرائمهم اليومية، عارية أنت رغم كل الأثواب التي تشتريها من المحلات الراقية. من زارا على الخصوص، فأنا ما زلت أتذكر ذوقك، دون أن تملكي حق نقد ألوان الموضة. فهي الموضة عليك ارتداء ما على الموضة، من أجل الواجهات الزجاجية الباردة. ها أنت امرأة بلاستيكية حزينة، بالصباغات الزيتية تزينك رتوشات الآخرين، امرأة جميلة من زمن الصمت والقصور الباردة.

ومع مرور السنوات، تتغير الأوضاع ولا أتغير، ما زال ذلك المهجر في داخلي، يكزني بالذكرى مرة بعد أخرى، ولكني أحس بأنه بدأ ينهار ويتراجع شيئاً فشيئاً، أمام ساكن جديد أكثر حزمًا وأكثر لا مبالاة وأكثر نسياناً، أن تعيش وداخلك أكثر من شخص يطالب بحقه في جسد واحد، كل واحد يهزم الآخر في جولة من

ال جولات والنتيجة الحسم لم تقرر الفائز بعد، إلا أن الملاحظ
تراجع الطفل المهجر المسلح بالماضي الدفين أمام المستثمر
السماز المدجج بالمستقبل.

obeikandi.com

الصمت الثقيل يحيط بالمكان ولا يعكر صفوه إلا طقطقة المنبه الأثري القديم بعقاربه النحاسية الثقيلة، كل شيء ثقيل ولا يتحرك. تمثال واحد تسكنه مجموعة من الأساطير القديمة، تنسج حوله الكثير من الحكايات بعضها صحيح وبعضها شهرياري ينبع من عظم الخوف ووطأة الموت. تمثال واحد تسكنه بعض الأشياء السرية اللا مرئية لا يرتعش لخبر ولا يهتز لإشاعة بل يظل محتفظاً بصمته الأنيق. ينتظر أن تحني أمامه العيون المندهشة لصلابته وقوته.

أن تترك الماضي وتتنكر للطفولة أصبح شيئاً ضرورياً للاستمرار، ولكن ونحن نبتعد نشعر بالغربة كغربة المهاجر، تتباطأ خطانا وننظر كل حين إلى الوراء وقد نتعث ونسقط على وجوهنا وندميها. حين يتخصص جسدك في إنتاج الحيوانات المنوية والفشل، تصبح بلا ريب شركة تقاوم في الاستثمارات الحزينة، تصدّر إلى الداخل موجات كهروعاطفية تططب على كتف الحزن المحلي وتنعشه ليستقر ويزداد.

وأنا أتحدث إلى نفسي أستعمل معجم المال وسجلات الأعمال، حقيقة مُرة إذن أن الطفل المهجر غلبه النعاس ونام على حصير بارد داخل الكوخ البلاستيكي الذي يقطر سقفه القصبي، هذا الإنسان الجديد يتخفف شيئاً فشيئاً من الهم القديم، جلباب القضايا التي ولد بها بدءاً باسمه الممنوع في دفاتر الحالة المدنية كأنه ولد فقط ليقف على عتبات الدوائر الرسمية، مطالباً بحق من حقوقه، بحقه في كل شيء لأنه حرم من كل شيء، من ترابه وجباله، من اسمه ولغته، وورث جرحاً في الهوية لا يلتئم وشرخاً تاريخياً

لا يملؤه غير الهواء الفاسد، وحتى تلك القيلولة من زمن الحب المبعثر داخل البطينين غير المتواتر نبضهما، نبض مثلهما تمامًا يهتز بعنف أحيانًا وبلطف أحيان.

نخجل من تكرار التوبة ولا نخجل من العودة إلى الخطايا. الهواجس التي تسكنك لا تجدها دائمًا في واقعك، بل تبقى حبيسة جمجمتك الصلبة، تدير محرك السيارة الفارهة، تأخذ مرسيديس كلاسيكية من أجل لقاءات الفنادق الفخمة وتحفظ بالكات كات للعمل بالجنوب والصحراء والجبال، وتستعزى في داخلك بكل رجل أعمال يستعمل الكات كات لحضور الاجتماعات وتقول عنه إنه لم يستطع التخلص من الفلاح داخله.

فندق فخم، عشاء فخم، حضور متأق حسب خطوط الموضة، وهناك من يبالغ ويرتدي سروالاً أحمر مع طقم كلاسيكي، هذا نوع رجال الأعمال على طريقة السيجار الكوبي، هؤلاء يروقوني كثيرًا؛ معاملاتهم سهلة وإقناعهم لا يتطلب وقتًا، هم مغامرون في المال كأنهم في لعبة حظ، يصبحون صديقاتهم إلى كل اللقاءات والحفلات ويستمتعون بكل لحظة غنى كأنهم سيفلسون غدًا، وهناك نوع آخر يأتي مدججًا بكاتبته الأربعينية بنظاراتها السوداء السمكية، ومحاسبه الآلي الذي لا يخطئ كأنه حاسوب إلكتروني، يوشوشون له بين الفينة والأخرى، يتحدثون في أذنه كأنهم يحذرونه من مغبة الاستسلام لشروط الطرف الثاني، هذا النوع المحتاط لا يغامر كثيرًا لأن ثروته بلغت حدًا من التضخم لا يحتاج معه إلى مضاعفتها، ولكن الطمع يبقى قائمًا أبدًا ويجب استغلاله، والماركة المسجلة في السوق يجب أن تحافظ على مكانتها.

أخطبوط ضخم يسيطر على المكان، يسيطر على الأحاديث حتى الثائية منها، الشركات الكبرى تبث رجالها بين كل طاولة وطاولة وتحت كل طاولة، رئيس الاتحاد الإقليمي للمقاولات يخطب في

الحشد المالي الكبير، لا يتحدث إلا عن الاقتصاد الاجتماعي ومسيرة نهضة الوطن، ويحذر من استيراد البضائع الصينية، يبدو أن الجميع يملك وطنًا لينهبه، ولكنه يبدو صادقًا تمامًا، ماذا لو كان صادقًا؟ ماذا لو اهتم حقًا للوطن؟ جلوسي إلى طاولة بعيدة عن المنصة منعني من التأمل في حركاته، والقاعدة تقول إن كل من يعتلي المنصة كاذب بالضرورة، وإلا كيف يمكنه أن يكون رئيسًا لكل هذه الأخطبوطات المالية التي تلتهم العقارات والخدمات والمصانع والضيعات وقطاعات التعليم والتكوين والتسيير؟ لا بد أنه يكذب. الاقتصاد بخير، السياحة بألف خير فقد استفادت من هروب السياح من البلدان التي تعرف قلاقل ما يسمى بالثورة. هو لا يضغط على كلمة الثورة محاولاً تجنبها قدر الإمكان. هو لا يضغط على الثورة يعرف أنها ثور هائج قد يقذفه خارج الملعب.

سأقترب من المنصة، هو يقترب من نهاية خطبته، لا يمكن أن أرحل عن الحفل دون عمل، يجب أن أحصل على بطاقة زيارة على الأقل، أو على رقم هاتف، وأنا أقترّب تزدداد التصفيقات عندما ختم بيانه التكري، كان صغير السن لا يتجاوز الأربعين من عمره، لا أكبره إلا بسنوات قليلة، ولكن حجم أعماله يدل على أنها ولدت قبله في كنف والده وجده، ولكنه سمين يكاد عنقه ينفجر من الشحم المكسد حوله، أصبحت ترهلات عنقه تحيط بربطة العنق بدل أن تحيط هي به. منتفخ كديك رومي معجب ببيانه التكري كأنه حقق انتصارًا في انتخابات المجد والفروسية. جمع أوراقه الصغيرة المكتوبة بخط غليظ كأنها كتبت ليقراها أعور في بلاد العميان. وبعض فقراتها مُشكّل لتجنب تلك الملاحظات السخيفة التي قد تتبع من فم رجل أعمال كان يومًا ما بين المكتب والسبورة، والذي قد يسخر من ثقافة الرجل العربية وقد يشك

أيضاً أنه تابع دروساً لمحو الأمية. لكل ذلك وأكثر كتب كل فقرات خطابه بخط كبير مضغوط وشكل الكلمات الصعبة والخجولة. لكن مثل هؤلاء يفهمون أن يضيفوا تلك الحركات البهلوانية عند التأثر العميق، وأن يبكوا إن استدعى الأمر، ولكن رجلاً في موقف رئيس سادة الأعمال ومنسق التجار لا تليق به الدموع ولو تعلق الأمر بالوطن.

هو لا يضغط على كلمة الثورة، كل الجروح نيئة، حديثة، وأي ثقب مهما كان صغيراً سيجعل الدم والقيح يسيل على منصفته، وكما باب المؤتمر مفتوح على مصراعيه ستفتح التأويلات والتفسيرات ولن يسدها سياسي مهما بلغت حنكته.

مثل هذا الرجل لا يهمني إخلاصه للوطن، فالمخلصون ماتوا، كل ما يهمني نقط ضعفه ونقط تلاقي اهتماماتي المالية بشركاته، رجل أربعيني بمركز رئيس الطهارة، يستطيع أن يشوي أي نعجة استثمارية ويدعو إليها من شاء من الحلفاء.

وتلك الكلمة التي يكره أن يضغط عليها هي في الحقيقة قبلة قابلة للانفجار في أي لحظة، أنا أيضاً لا أحب أن أستعمل الكلمات الكبيرة التي تخرج عن سياقاتها التاريخية وتحول موقفاً احتفالياً منعماً بالمال والسهرة ووجبة عشاء إلى حرب دلالية بين قصد وغير مقصود، تلك الإزاحات غير محبذة هنا، بل لا تليق بالمكان، ولنقل إنها ليست من الإتيكيت في شيء، فيمكنك أن تتصور معي فندقاً فخماً حد الترف ومؤتمراً متخماً برجال الوطن المخلصين وأصحاب الرتب العالية والأوسمة والنياشين. وحفل عشاء فاخر ونساء بمقاسات محددة، وأزياء تعتمد الخطوط الراقية، الخطوط فقط، خطان رفيعان من على الكتفين وصدر شبه عارٍ وظهر عارٍ تماماً، يسير بالنظر إلى مداخل الأنفاق المجهولة. وبعد أن تتصور ذلك هل يمكنك حقاً الحديث عن شيء يبدأ بالثناء المعجزة غير

الأصيلة، من قبيل ثورة وثور وثريا وثائرة وثائر؟ أي قبح ستسببه
بقاموس غريب عن تقاليد البلاد وعن نوع خاص جدًّا من العباد؟
الثناء المعجزة لا ترقى بنفسها لا بد لها من راء لتصبح ثروة.

obeikandi.com

كث اللغط ونهض الناس عن موائدهم المستديرة، واتجهوا نحو بوابة الخروج نحو صالة تقديم العشاء، وأنا اتجهت نحو قرار غير يسير، اتجهت إلى مثواي ما قبل الأخير، وهي كانت هناك قريبه ترتب أوراقه المبعثرة على منصة الإلقاء.

ماريا.. جئت لأخذ رقم هاتف فقط لا لأخذ درسًا في الفجيرة.

مرحبًا بك في عالم الارتباك.

مرحبًا بك في إعصار الذكريات.

- مرحبا سيدة عمراني، كيف حالك؟

- بخير أششش.. أشكرك.

لا تفتحي فمك هكذا؛ لا يليق بك الذهول، تليق بك الابتسامة أكثر، ترفقنيها دائمًا برمي شعرك نحو الخلف، شعرك الذي كان يختزل كل قصصي القصيرة، تلك التي كانت تضحكك أحيانًا وتجعلك منبهرة بطريقتي في تكثيف المعاني أحيانًا أخرى. أما زلت تقرئين القصص القصيرة جدًا أم أن روايات شركات زوجك...؟ أما زلت تهتمين بالتفاصيل الصغيرة لديكورات الزوايا أم أن هندسة الحسابات حلت محل فنك؟ ماريا، لا تنذهلي، لست ذلك الشخص التعيس المريض بالوهم والتناقض، أنا أمامك تاجر سمسار شريك في وجبات الوطن الدسمة، أنا مثلك جئت لأخذ بطاقة زيارة.

- جئت لأخذ بطاقة زيارة أو حتى موعدًا إذا أمكن، أريد مقابلة السيد عمراني من أجل عرض فكرة عمل.

_ أنا لست سكرتيرته، يمكنك الاتصال بمكتبه الشخصي، ألا يمكنني سماع العرض؟ أنا مستقلة بشركاتي، يمكننا العمل معًا.

- لا يمكنني تجاوز السيد لأعمل مع زوجه.

- أما زلت متشبّهًا بضلالك القديم؟
- لنقبل بذلك.
- يمكنني توجيهك إذن، فأنا وعمراني وجهان لعملة واحدة، كنت أمازحك فقط.
- مزاحك أصبح بالعملة الصعبة.
- ومزاحك ما زال يقايز بقضايا رثة.
- من أين لك بكل هذا التمثيل؟ حفلتك التنكرية ما زالت في بدايتها، احتفظي بأقنعتك؛ قد تحتاجينها.
- لا تعامل معي بالجمال الحارقة، فكلي مياه جوفية.
- المياه الجوفية تروي الأشجار والغابات ولا تقتلعها لتعوضها بالأسمت المسلح.
- لماذا أتيت ما دمت ممزقًا بين غابتك ومدينتك؟
- أراك بأظافر طويلة، ألا ترعجك حين تعملين على تحفك؟
- أنت تكرر نفسك في جميع الأمكنة، أنت كما أنت لم تتغير لغتك، تريد كل شيء خطيًّا كي لا يزعجك، أنت ستبقى جامع انفعالات تدافع بالماضي كلما حاصرتك الأشياء من حولك.
- أرى أنك ما زلت تجيدين الاستعارات، بعد كل هذه السنوات ما زلت تحكمين عليّ بالفشل.
- هي لا تحكم عليّ بالفشل، هي تحكم على نفسها بالنجاح، لا بد أنها تكفكف الحب بمنديل ورقي، أيعقل أن تكون قد أحبته حقًا؟ ذلك المخلوق السمين بعنقه المكتنزة ووجنتيه المنتفختين! ربما الغيرة أخذت مني مأخذًا، كيف يمكن ذلك؟ لا أغار منه، فأنا لا أحبها، ما زالت قوية، رمتني بأشد الاستعارات وضوحًا وقالت إنهما وجهان لعملة واحدة، أي وحدة جمعتهما؟ أيمن أن تعيش معه تحت سقف واحد وهي لا تحبه؟ كثيرون يعيشون تحت سقف واحد وأسرّة متفرقة. ما كل هذا الهجوم؟ هل كانت تخطط لحرب

بيني وبينها؟ لا يمكن، فهي لا تدري أي قادم وحتى لو رأت لائحة الحضور فلن تميز اسمي بين كل هؤلاء. يكفيها أن تتأكد من حضور الأشخاص الأكثر أهمية، والبقية مجرد أثاث. ماريا هي العنكبوت في كل علاقة. ربما تنسج رواية محكمة لتشعري بتفوقها، ولكنها كانت غاضبة لا يخفى غضبها، نظاراتها ترقص فوق أنفها الصغير، أظافرها المصبوغة بلونين مختلفين أبيض وأحمر، أي عناية فائقة هذه في مساحة لا تتعدى ظفرًا رسمت مشهدًا طبيعيًا بلونين. لا بد أنها استهلكت وقتًا للإعداد لحفلة كهذه. في لجة الموج لا يسع بحرًا مثلي أهلكته الذكريات إلا أن يسأل ويقبل بجميع الأجوبة.

- هل تحببته؟

- ولم لا أحبه. إنه رقيق جدًا ويعاملني بلطف زائد. الحب المطهو على نار هادئة ينضج على مهل فيستوي كما نريده. - لن يكون الحب غير عاصفة مدارية محملة بالعواطف بدل العواصف تقتحم الكيان. تطغى على الاثنين دون سابق إنذار، إلا إن كان لأحدهما يخت مستورد يقاوم موج البحر.

- لا بد أنك مزعج، عليك ألا تفضح نواياك، فأنت سيد اللغة الملوغمة، كيف تتخلي عنك قصصك اليوم؟ أنت تصر على اقتحام المتاريس وفتح الأبواب المغلقة، أنت لا تملك مفتاح المدينة.

- أنت مستغرقة في الثراء، لا وقت لديك لضبط التعاريف.

- وأنت مستغرق في الأحلام، وتتهم غيرك وأنت الفاعل.

obeikandi.com

في أقل من خمس دقائق أنشأنا محكمة ابتدائية وأخرى للاستئناف والنقض، ولم يصدر حكم القاضي بعد، في قضايا البعد كما كتبت يومًا الكل خاسر، المحامي يراقص شاهد الإثبات، والكل محكوم حتى القاضي، محكوم باللا فهم المؤبد، أنا هاجمتها لا أخفي انفعالي، ما كان عليّ أن أقرب منها، أن أحاكمها، فلست أقل استغراقًا منها في الثراء، بل إني أسوأ منها بكل ما كنت أدّعيه من نبل ومثالية على الأقل هي كانت دومًا إلى جانب الواقع تستمد منه منطقها، ولم تكن تحلم مثلي ومثل جيل بكامله بثورة بأئسة لم تتحقق ووطن أعرج يسير على رجل واحدة، هي باعت الوطن واشترت رجلًا ثريًا يسدد نفقاتها، ها أنا من جديد أدّعي الوطنية أكثر من غيري، ها أنا من جديد ألومها وأبرئ نفسي، أي نرجسية أكبر من هذه! كان عليّ فقط أن أنفض عن معدني لأجدي من نوع عمراني متخم بالمادة يتنفس الدرهم ويصطاد الغزلان.

- ولكنك أحببتني حقًا، لا يمكن أن يكون كل ذلك مسرحًا.

- أنت لا تريد أن تقول إنك أحببتني حقًا، غريب! كيف تبدأ دومًا بنفسك؟ إن ما حدث لا يفسر، أنا رحلت وأنت رحلت، ابتعدنا عن بعض، كان ذلك حلاً سهلاً.

- أنت رحلت، أنا لم أفعل.

- ولكنك لم تكثر لرحيلي، هل من امرأة تعود مجانًا؟

- أكان كافيًا أن أبحث عنك لتعودي إليّ. طنجة غيرتك، وعمراني فتح عينيك على عالم الثراء وهجرت البؤس بالمختصر من المسالك، كان لنا وطن بنينه وحب نشيده وكنّت خائنة، لن أذكرك بالماضي فربما تكون له تلك الروائح النتنة التي قد تفسد سهرتك. وأنا لا

ألومك ولا أنهمك جئت فقط لأخذ بطاقة زيارة.

أيا امرأة تعجن القلق كل صباح. لا تبحي في كثران الرمل عن حبات الفراولة. فالصحراء لا تلد غير الشمس والحيرة وبعض لبن النوق التي تفتت عقالها من شدة الندم. لا تنسجي من خيوط العنكبوت رداءً كاذباً كي لا يكون حبك أوهن منه. ابحي في أدراج قلبك عن الحقيقة. وكوني على قدر كيانك تصنعين من الوجود كشيئاً من الأمل.

ربما أغلقت القوس الذي فتحته عن الحب، ومن رحل أولاً؟ حكايا المراهقات المتكررة، من يتحمل مسؤولية العبث في علاقة كانت تعني كل شيء.

- لا بد أنك سعيد بزواجك.

- الأنثى الوحيدة التي أسعدتني هي أمي، أنا سعيد بأمي.

صمتت للحظة، كأن ما قلته جفف نبع مياهها الجوفية، ستعتقد حتماً أنني ما زلت وفيّاً لحب قديم كل هذه السنوات، جميل جداً أن تكتشف أنني ما زلت متيمّاً بها، أي أسطورة سيكون هذا الحب الطاعن في المرارة والانتظار، أي امرأة عظيمة في التاريخ السياسي للعشق ستكون ماريّا، إن ظنت حقاً أنها المرأة الوحيدة لرجل ظل ينتظر عودتها المستحيلة. ما كان عليّ أن أحرق أوراقى، حضور امرأة أخرى كان كفيلاً بأن يشعل عود ثقاب آخر، ينضاف إلى ترساتى الدفاعية، أي منطق لمحكمة قلبية هذا؟! وهل أحتاج كل النار لأطفئ النار، وكل الماء لأغرق الماء!؟

- لكل رجل أنثى تسعده، ولا دستور يمنع أن تكون أمه.

- الحاجة يامنة تسعد الكل؛ هي صاحبة القلب الكبير.

- جميل أن تتذكرى اسمها.

- لست بالحجر الذي تعتقده، ذاكرتى إنما تنتقي ولا تحطم.

- أو تنتقي لتحطم.

سيصعب حتمًا الاستمرار في لعبة الحب القديم مع امرأة ما تزال تحتفظ بمخزون من الجمل السرية، وتعود لمسارات دلالية غير متوقعة، فما أن تحسسك بالفوز حتى تطعنك من جديد وبمفردة بسيطة، أن لا تكون حجرًا يعني أنها لم تنس الماضي وأنها تحن إليه، ولكنها أردفتها بحصة انتقاء تستثيني حتمًا منها ككل نبات ضار. ولكن يجب أن أنتزع استسلامًا من هذه المرأة السياسية التي تقدم بلاغاتها على حذر. أيمن حقا في لقاء واحد أن تنزع جملة حنيًا منها إلي؟ عليك فقط أن تحذر من الاحتباس العاطفي، فدرجة حرارة الكلام وتلوث الجمل بدخان الماضي ومرضك المزمع بالحنين قد يقلب اللعبة ضدك ويجعلك تعترف بدل سحب اعتراف، وقد يجعلك تستسلم للشكوى. إياك أن تطلب توضيحات أكثر فقد يعني ذلك أنك تتوسل.

كظل أناني يحاول جمع ظله ليعزله عن كتلة من الأحداث ترمي بأنفاسها على سطور من التاريخ الجوراسي كما لتجعل الحب يتحجر متخذًا شكل نظرته إليها، كانت تجمع ما تبقى في سلة حزينة مكدسة بالأنين. تغطيها تارة بمنديلها الأبيض المطرز بخيوط حرير صنعتها دودة قز قلقة، تعلم علم اليقين أن مناديل مبللة بدمع عاشقين ستدفن فيها ذات يوم، وتارة أخرى تقطف أضمومة من الزهر حيث الياسمين يرفض الاستلقاء غرورًا من كثرة رسائل السمان إليه. تسير إلى حيث تقبع ذكرى مسنة مضت عليها سبعة آلاف من السنين تبش في الأهرامات عن عشيق كليوباترا وتقول إن الهيروغليفية لم تقرأ بعد وأنهم أخطؤوا في تأويل حضور الشمس. وأن رمل سيناء ودلتا النيل كانا شاهدين على حب لم تصرح به كتب التاريخ.. وأن كل الآثار ورسوم الطيور والتراتيل ليست إلا قبلة عابرة تركت أثرها على جسد أخطأ مواعده مع الحب بسبب الخوف من المستحيل.

أي منا..

- ستسعد حتمًا بزيارتك لها. فهي وحيدة إلا من جاراتها ونساء القرية.

- ذلك شرف كبير لي، سأستشير زوجي.

- لم لا تصحبه معك؟ الأمر لا يحتاج استشارة، لن ننشئ شركة جديدة. سنزور الجدة فقط.

تسجيل نقطة جديدة تشتت معجم المال الذي اتسخت به لهجتها كان موفقًا، فأن تستشير زوجها إشارة كافية لنوع العلاقة بينهما، وأن تركز على كلمة زوج دون ذكر اسمه الشخصي سيربط علاقة ورقية بينهما في ذهني، أظن أن الجولة لصالحه. كيف لا تكون كذلك فقد أحسنت فن الانتظار؟

- ولكن يجب أن نقرأ لنا قصصك القصيرة جدًّا.

- ولكنني لم أعد أكتب كثيرًا، الكتابة لا تكون إلا عن الحب والوطن وأنا فقدتهما معًا.

- كنت تقول دومًا إن الحرمان مدعاة للكتابة وليس الشبع.

- سأقرأ لكما إذن قصص الفقدان، عليك فقط أن تستمعي جيدًا. وأن تتحملي جملي الجديدة فهي كالتهم تلتصق بمستمعها، لم تعد قصصي قوارير عطر فواحة بالاستعارات بل أصبحت زرابي لغوية مزركشة بالفداحة والخسارات.

- ألهذا الحد أسلوبك غاضب؟ لا بد أنك تغتصب الأوراق بدل الكتابة عليها.

- أنا لا أرتكب الفواحش الورقية، قد يكون أسلوب من نوع الطلقات الرصاصية.

- أما زلت تكتب لقارئ واحد فقط؟

- أكيد، ولكن هذا القارئ ليس أنت.

- إذن هي كاترين.

- لا ليست كاترين.

ليست كاترين، كاترين وجودها مهم في حياتي، ولكنه وجود محاييد تمامًا، كشخصيتها، تجلس دومًا لكروسي هزاز صناعه حداد في تارودانت وتقرأ، تقرأ وتستمتع لحديث الآخرين في نفس الوقت، وحين ترغب في إلقاء ملاحظة ترفع نظارتها وتقول كلمة أو كلمتين فقط، تغير فقط دون ضجيج. تقول كاترين، لقد تغيرت ربما، ولكن كاترين رحلت إلى باريس من جديد، من هناك تسير منشأتها السياحية، وترسل أفواجًا من الزبائن إلى هنا، ما الذي ذكرها بكاترين؟ ربما تعبت من الوعي ودخلت سمفونيات اللاوعي، ربما حضوري أربك احتياطاتها اللغوية وتركها على شفى حنين. وأنا لا أفهم نفسي ولا لعبتي الجديدة، لماذا أحاول إرباكها أصلاً وأنا متأكد من عدم رغبتى فيها؟ أنتقم في سرية إذن انتقامًا حلواً غريباً وأنا أتفرج على لغتها المتزوجة بمنجد عقاري بليغ.

عينها تكرر عيني، ولسانها مبعثر كلساني، فلم أكن أفصح منها، وكنت أقول عكس ما أرغب به، أحدثها كأني أكتب، وفكري قد من رعشة، وتحدياتي بلغت حد السخافة وكلّي احتباس عاطفي، منذ عشر سنوات لم أقرب منها إلى هذا الحد.

للجسد كودات تعمل بالأشعة تحت الصوتية، هامسة، كصفير ورقة خريفية تلعب دور بلبل صامت.

للجسد استقلال سري موقع من ذكريات استعمارية حطت بشطآنه يومًا.

للجسد حضور.

وللحضور سلطة.

وللسلطة قرار.

والقرار أني هنا لأخذ بطاقة تواصل لا غير.

obeikandi.com

عودة إلى القهر، إلى القبر، ما عاد في القلب شريان ريح شارد،
القلب مهندس بإحكام وكل مسلك فيه يؤدي إلى منطقة أمان
عاطفي، ما عادت في القلب دهاليز الانتظار ولا محطات الإخفاق،
القلب سرية عسكرية منضبطة للعقل.

رؤيا، نظر، فتيت لغة، ما عاد في القلب فخار قابل للانكسار،
هزّنا المؤقت والمؤجل، تركنا عند حافة التكرار، ورد وبرد وتويجات
ذهبت مع الريح، والفصل ليس فصل خريف، هو فصل انغمار
في انغمار، موسيقى بحيرة الوجد، تراقصك أنثى معمدة بالسراب
والقلق، دروب من العلامات توصل للفراغ، حركات راعشة تحاith
الصقيع وتبرد بالاقتراب، خنفساء فرعونية مسحورة ترتدي قفطان
الوجود وترقص، ترقص على أنغام عود مدوزن على إيقاع
الصمت، عود لا أوتار له غير قليل من الذكريات وخيط حنين
رث، يسبح المطر على الرصيف ونرقص سيلان من الدمع، نرقص
لنحيا، ربق الحركة لا ربق السفر، نمشي طربًا من شدة الاحتراق،
نوتات هاربة من جمل مزقت شرايين الهدوء، نرقص نرقص،
نمشي نسقط، تذرونا الرياح تسير بنا كتبن منسي في البيدر.

سأخون قريتي بحبك، سأخون جدي و«تودا» وقبريهما في سفح
الجبيل، سأخون وطني ومسيرة الدم الحمراء قرب السد، سأخون
رفاق السجن والعنف.

لن أخون.

- جبينك يشي بك دومًا، سرحت كما لم ترغب، يحدث ما لا
تريد. قالت ورحلت.

- سأنتظرك، أرجو أن تبليغي السيد عمر اوي دعوتي، أرغب حقًا في

التعرف عليه.

obeikandi.com

وأنا بين الناس أعيش حياتي عادية كأني رجل أعمال، ولكني أرسل ذاكرتي كروح متجولة لتعيش بين خراب الماضي السقيم، تجول بين أراضي قريتنا القديمة، وتحط على سور المقبرة تسلم على «تودا» وترحم على جدي، تذهب إلى المدرسة التي بنتها الدولة بسرعة لترقع بها فضيحة التهجير، فضيحة تناقلتها وسائل الإعلام الغربية في فرنسا وألمانيا، وتعرضت للتعتيم الممنهج من طرف الإعلام المغربي، روجي تقبل نسوة القرية اللواتي شاركن في المسيرة الحمراء اللينينية التأطير، وتقبل كل جروح وكسور الرجال والأطفال الذين كبروا بسرعة، فزمن التهجير ليس هو الزمن العادي الطبيعي، إنه زمن يجعلك تكبر بوثيرة الحزن المضاعف وفقدان الوطن، زمن يكبر بالأسئلة المستقاة من رحم الانتماء.

آه من الجراح! ما زالت جمجمتي شاهدة على ما حدث، ألم بسيط فوق أذني اليسرى، وانتفاخ تحت فروة الرأس بسبب البرودكان اللعين للعسكري المخدر بالأوامر.

ستزورني سيدة عمراوي رفقة زوجها، وسأحس بما يليق بحضور زوج وعقد مقدس، رغم الألم المكسد داخلي، لن أخون رجلاً مثلي مهما كان ثقل مخزوني العاطفي والجسدي مع زوجته، وإلا كنت حيواناً، تلك مبادئ، لا أعشق أبداً ملكيات الغير.

obeikandi.com

أعدت أمي، سيدة غصن الزيتون، وهو الاسم الذي سجلت به إقامتي بنواحي تارودانت، أستقبل فيها شخصيات من عالم المال وبعض الأصدقاء، فيلا صغيرة داخل شبه ضيعة، تحيطها نباتات من مختلف بقاع العالم، خصوصًا تلك الأنواع من غابة الأمازون، بأوراق غليظة، وبستان يضم تشكيلة من أشجار الفواكه، برتقال، تين، مانجا، تفاح، موز، كيوي.

تتوسط البستان بحيرة مصطنعة، تركت الحشائش والأعشاب تنمو حولها، سطحها مغطى بأوراق رطبة، خماسية الأصابع، تبدو كأنها نمت بشكل طبيعي لكن الحقيقة أنها جلبت من الأمازون أيضًا لتوثق الحديقة، البستاني المهندس ترك قرب كل نبتة وشجرة ورقة تعريفية، تضم الاسم العلمي للنبتة، ومصدرها وشروط نموها، إنه عالم أخضر لا أتبته له في غمرة انشغالي، إنه هنا يساعد على تمرير الصفقات وتلطيف الجو المالي الصرف.

أمي الحاجة تهتم بكل التفاصيل رفقة العامل البستاني، رغم أنها لم تعد تملك يد الفلاحة الخشنة، إلا أنها تعرف كيف تسيّر كل ما يتعلق بالفلاحة، وكانت أكثر ما تهتم به شجرة أركان ARGANIER نمت بشكل مشير، خضراء تظل منطقة كبيرة من الحديقة، تحتها طاولة حديدية بكراس حديدية لثمانية أشخاص، نستعملها عادة لتقديم العشاء في الليالي الصيفية.

رغم اتساع الإقامة، أو ربما بسبب اتساع الإقامة لا ترتاح فيها الحاجة كثيرًا، هي تحب شقتنا الصغيرة في أكادير حيث تهتم بكل تفاصيلها حتى ما يتعلق بالطبخ، يثيرها البحر لأنه غريب عن ثقافتها، تحبه وتخافه، إلا أنها تفضله على الجبل، لأن ذاكرتها

كذاكرتي مثقلة بمشاهد دمار لصيقة بالجبل، الحاجة سليلة
الوجع، تداوي وجعي بلمستها الحنون، خصوصًا حين أكون متوترًا
حد فقدان الشهية، فأحيانًا تترسب فوق معدتي ألوان من تعازي
الحنين.

تقول أُمِّي إن الحجر الصلب الذي يتكون في فم المعدة جرّاء
تراكم الأحزان لا يذوب ولا ينصهر. هل أصبحنا من حزب الصخور؟
تضع يدها على النار ثم على الزيت ثم على النار وتمسد معدتي
بحنان لتذيب الحجر. وبين هذا وهذا تتمم سورة الإخلاص
والفاتحة. متعة صوتها ويديها الدافئتين تصهر الجبال المترسبة
في معدتي وشرابيني، أُمِّي تتقن العزف على الجسد، تشايكوفسكي
تعلم منها كيف يزين النوتات في قصائده ودرويش العربي أيضًا
استفاد من خبرتها في صنع خبز الشعير الأسود.. ولكن هي لا تفرق
بين السلاسل الرسوبية التي قد يذيبها محلول الحنان والسلاسل
البركانية الحية الطرية التي ما زالت الالفا تسكب عبر الجروح
المفتوحة دومًا في وجه الذكرى.

جاءت ماريًا رفقة سمير عمراني، رجل سمين بشوش، أسنان
متراسة وعاجية تجعل ابتسامته متناسقة، وجهه أحمر، لكن عيناه
صغيرتان جدًّا، وتتغلقان حين يبتسم، كثير الضحك، لا يحمل أي
هم، رغم أنه يعرفني جيدًا ويعرف أني السبب في هدم مشروع
حياته، تلك القرية السياحية التي كان ينوي تشييدها بشراكة مع
الألمان على أنقاض قريننا ليستفيد من منظر السد الملعون،
ومنظر الجبال المكسوة بالأركان والبلوط، كان مشروع سياحة جبلية
رصد له كل طاقته.

وأنا رصدت له آنذاك كل طاقتي، سلسلة من المظاهرات، سلسلة
من الاعتصامات الليلية، تلتها هجومات على آليات ووسائل الحفر
والبناء، تراجعت على أثرها رغبة الألمان في استكمال المشروع

لظروف أمنية، ونقل المشروع بعدها لمنطقة تازمورت رغم أنها خالية من العنصر الطبيعي، إلا أن الرهان كان على حجم الملاهي ونوعية الخدمات الفندقية وصالات القمار والسهرات.

أن تكون سمسارًا معناه أن تعرف كل شبر في منطقتك، أن يكون لك مرصد إداري في كل مصلحة وهذا لا يمنع أن تدفع ثمن كل معلومة، هناك دومًا موظف مستعد لبيع نفسه، عليك فقط تحديد السعر المناسب.

دخلت ماريا أولاً بفستان حريري سماوي اللون. أزرق غرفة الضيوف بقريتي يتنفس الذكرى، لم ارتديت أزرق الحنين؟

ربما كان اختياراً عشوائياً، لكنني أضع دومًا احتمال حدوث علامة. ماريا لم تفقد شيئاً من رشاقتها، بعد ذلك خرج من السيارة طفل صغير كأنه ملاك، يمشي في خجل، تمسكه خادمة من يده، طفل مكتنز يشبه عمرأوي تمامًا، قدمته لي ماريا على أنه ابنها ياسين.

ياسين هو الاسم الأحب إلى قلبي، وددت دومًا أن يكون لي ولد باسم ياسين، هل هذه علامة؟ هل أستمّر في تجاهل رصاصاتها وأتغابي؟ أعتبرها رصدة مطر ستبعتها غزارة من الدلالات؟ أم أفرح فقط فرحًا طفوليًا لأنها اختارت لابنها الاسم المفضل عندي، إنها تُمرّح على جمر قلبي ليشتعل بالحنين، اكتوى قلبي من الحنين، أريد سلامًا سيدتي الأنيقة، أريد سلامًا سيدتي.

- مرحبًا بكم سيد عمرأوي، حضرتك سيدتي، والأمير ياسين، برعم اللقاء.

- نشرك سيد أنير، لطف منك دعوتنا إلى مدينتك التاريخية. حين رأى الحاجة ضحك ضحكة جنونية وذهب يحضنها كأنها أمه، كأنه يعرفها، رافقها مباشرة إلى البهو الرئيسي كأنه سيد الدار،

واستمر في حديث ثنائي بعيد عنا، لا نسمع منهم غير ضحكات
تتعالى بين الفينة والأخرى، الحاجة انطلقت أساريرها، كأنها تحدث
إحدى صديقاتها.

- كيف حالك أنير؟
- بخير، بألف خير، وأنت؟
- أيضًا.
- آسفة أن حولت عشاء عملك إلى زيارة عائلية، عمراوي لا يخلط الصداقة بالعمل، إنه منهجي جدًا.
- الأمر واضح وأنا سعيد بذلك، يبدو أنه منسجم مع الحاجة.
- إنه ينسجم مع الطيبين بسرعة، إنه طيب المعشر.
- جميل جدًا أن يكون للمرء قلب أبيض، يكتشف بسرعة قلوبًا بيضاء أخرى.
- أخبرني عن أمورك، كيف تسير؟
- تسير بخير، الباردة أزعجني ألم برأسي لم أعتد عليه.
- هل هو نفس الجرح؟
- نعم نفس المكان، به انتفاخ كأن شيئًا صلبًا تحت فروة رأسي فوق الأذن.
- عليك بزيارة الطبيب، الجرح عمره أزيد من عشرين سنة، قد يكون مجرد تكدس شحمي يزعجك كل مرة، لكن الأفضل أن تستشير طبيبًا.
- سأفعل أعدك، فالألم يزداد.
- لم أنتبه لوجود الحاجة بجانبنا وهي قلقة، ففترة صمت بينها وبين عمراوي سنحت لها بسماع شيء عن زيارة طبيب، ولكن ماريا، قالت لها بسرعة بديهة إن الأمر يتعلق برغبتها في إنجاب طفل آخر تأخر حضوره، أشعرتها بالخجل فرحلت وهي تضحك ملء جوفها وتداعب سبحتها، وتعديل خمارها، وتعود إلى رفقة عمراوي، كأنها

تحدث أعز صديقاتها.

توجه ياسين إلى التلفاز وربطها بألعابه الإلكترونية وبدأ يلعب في انعزال تام عن العالم الخارجي، أما ماريّا فقد اقترحت أن نجلس قرب المسيح، لذلك قمت بإضاءة منطقة المسيح وشغلت نافورة صغيرة بجانبه، وجلسنا نحتسي كلامًا عاديًا بدايةً، إلى أن طرحت عليها سؤالاً فاجأها قليلاً.

- إذن تزوجتِ رجلاً يحبك.

- لا أحب الحديث عن زوجي عادةً، ولكني مرتاحة جدًا معه، قد أكون نوع النساء اللواتي يفضلن الزواج برجل يحبهم ولا يحبونه، بدل المخاطرة مع حبيب لا يبادلهم نفس الهيام، ولكني مع الشطر الأول وأتحفظ على الشطر الثاني. أخبرني، كيف بنيت ثروتك؟

- الثروة تحتاج المغامرة والذكاء كما تعلمين، أنا استثمرت في ما هو مضمون، أنا في الأصل سمسار عقارات اشتغلت بطريقتين، تقليدية وعصرية، تعلمت مبادئ الحرفة مع الحاج سليمان الذي سمح لي في ظرف وجيز بأن أستعمل بعض علاقاته وأدخل الميدان، لكن ضربة الحظ كانت مع كاترين، نستصلح الرياض القديمة ونعيد تجهيزها وبيعها، المنازل القديمة أيضًا، حين نُفرغ ما تحتوي عليه من أتربة وحجارة نحصل على مساحات شاسعة وفي وسط المدينة، وفرص أخرى كثيرة كهذه، حين يكون لديك الوقت الكافي تفعل كل شيء. ولأن البيض لا يوضع في سلة واحدة فقد استثمرت في مجالات بعيدة عن العقار، الفلاحة والماشية والزيوت وغيرها.

- كيف حالك مع الكتابة؟

- الكتابة جانبي الخفي، طقس غريب أمارسه أحيانًا، أحتاج أن أكتب كي لا أفقد ذاتي، كي أرتبط بنفسي وبتاريخي، الكتابة هي حقيقتي، أما المال فمجرد وجود اجتماعي ضروري للعيش، لتبقى

على قيد الحياة، ولكن لتحيا حقيقة يجب أن تكتب، أن تخلد ذاتك
ولو في قصص قصيرة جدًا بحجم الكف، أنت مثلاً ألا تستيقظين
ليلاً لتلعي بحاسوبك وتوثقي الفراغات بديكوراتك وهندستك؟ لكل
شخص مسار سريّة يوحد فيها نفسه مع نفسه، خصوصاً إن كان
فناناً، الفن تعويض عن كل شيء كما تعلمين.

- لا يعوض الحب.

- بل يعوض الحب.

obeikandi.com

سواء عوّضه أو لم يعوّضه، فالحب قد ضاع، ضاع بين الشك واليقين، هل حدث فعلاً أم لم يحدث؟ هل ولد ولادة عادية أم قيصرية؟ بدأت ماريّا تميل شيئاً فشيئاً عن مواضيع المال والأعمال، وتنحو بعينيها نحو الذكريات، ماريّا تغيرت، كل شيء داخلي يتنكر لها، هل سبب ذلك أنها زوجة رجل آخر أم أنه الحب كمصباح الكيروسين ينطفئ بشح الطاقة العاطفية. ماريّا ترتب حياتها كما ترتب الفضاء الداخلي للبيوت، عملها وهوايتها سمحا لها بأن تؤسس للترتيب داخلها، ولكنها تبدو لي الآن منطقة صحراوية جرداء لا أثار فيها ولا إضاءة، تجلس قربي كأي فتاة أخرى لا تثير شعراً ولا ترغب في سماع الشعر، ربما نسيت معنى الشعر ربما نسيت شعراء المدينة الصغيرة تارودانت التي كنا نقضي فيها سهرات رفقتهم، أيوب مديان، فاطمة الزهراء الرياض، الحسن الحسيني، حكم حمدان.

أشعر بالألم في أذني يزداد شيئاً فشيئاً.

- أنير اقرأ لنا بعض القصص لو سمحت.

- لكنها لم تعد تلك القصص المريحة التي تصنعها اللغة، لقد أصبحت تشظى داخلها اللغة كأنها حطب نسمع له طرطقة الاحتراق، وكلما مروّحنا عليه يزداد اشتعالاً، يزداد لهيباً، وهي في نفس الوقت مائية الطبع، كسيل يسيل عبر المزارب في فصل المطر، أحس أحياناً وأنا أكتب أنني أسيل كدموع اليتيم داخل نصوصي.

- قصصك الأولى رغم بساطتها كانت قلقة.

- ولكنني مؤخراً تجاوزت مرحلة القلق واستسلمت لنصوص هادئة،

تعبر ولا تتفجر، وحدها لغتها تحترق كأنها على جمر الكانون، رغم
أني أكتبها بهدوء تام.

- لقد تجاوزنا مرحلة القلق ونحن الآن على أعتاب النهايات ربما،
سنمارس الآن دالة رتيبة واضحة المسار، لقد كبرنا ربما. كبرنا بما
فيه الكفاية.

انتظري، سأشغل هاتفك وأقرأ لك.
سأحكي على لسان الريح، سأعلن عن مفقودات تائهة، مفتاح
مدينة الشعراء وإزار أبيض مطرز بالتاريخ يلف خاصرة الجغرافيا.
وأميرة تمردت على القبيلة. تاج ملك كان عرشه على القهر، صندوق
قيم ورموز، قلم حر ودولاب أحلام، وأشياء صغيرة أخرى من
نوع الالتفاتات الجميلة وحركات دفع الخصلات الذهبية إلى الوراء،
تحريك الساعة في المعصم وتعديل حقيبة اليد. اسمعا قصتي
القصيرة.

القصة الأولى

أميرة حزينة حد الرقص. كتبت شعراً حجازياً بالغ الترف يحتفي
بقافية منسية من زمن الكبرياء، قصيد يتوجع، حروف مد طويلة
كالأنين. كان حديثنا ثورياً ببلاغة صديقين تعمقا في مشاركة كل
شيء حتى أحلام فناجين القهوة الصباحية بلون الشوكولا. الحكي
فعل جمالي والاستماع جمال حقيقي مؤلم. أي هشيم لأي نار،
كان متخصصاً في إخماد نيران الآخرين ولكنه أمي في شم احتراقهما
داخل قصة حب تقليدية حد العنوان برهينة المسافات والوثائق،
كان عليها فقط أن تقر المطلق لأحترق بنار روي أبدي مشتعل
بالغاز العاطفي. تحكي كأنها تبكي، ولأنها كانت عريية تآبى الخنوع
استحلفتني أن أصمت أبد الدهر.. فصمت وكانت لي الاستعارات
ميداناً منفلاً من النذر.. أختي أنت.

القصة الثانية

من هوسها بجمع الأشياء القديمة رتبت مجموعة من الخسارات، وكانت تحفة التحاقها بقلبه أجمل هزائمها. باب من معجم هندي سقطت منه التعاريف لأن غاندي يرفض أن تقاتل حتى في سبيل حبها. اكتفت بالارتواء بحليب أزرق من ثدي آخر أنثى أسطورة حكّت عنها عجائز كمبوديا، اكتفت بالنظر والانتظار وكانت تصلي من أجل التفاتة معجمية تسمح للاهتمام بالاهتمام بها. حتى أنها همت بالرحيل حين فجأة جاءها سطر ينط من فرط هيامه بهيامها. فكتبت أنها ستبني زريبة حمراء تبثها مسافات من غابات آسيا وتعلمها بنات جنسها يقرأنها كلما رغبن بالبوح أمام منسج أو مغزل صوف بدل احتضان سكين الرفض.. منذ ذلك الوقت والبنات يغنين ترانيل الاحتفاء بالهجر بخيوط من ظهر الخروف بعد كل ظهيرة، يلامسن صدر الشجر وبينين عسًا من ورق الصفصاف وأعواد السرو وقش الحناء. يغزلن وينتظرن، يغزلن ويتهن في أصداء الحنين، يجتمعن ليغزلن من الوقت وقتًا آخر، يجتمعن لينتظرن ويصنعن من الانتظار رؤى تتصدع لها الزرابي كلما جلس عليها دون أن ينتبه لحروف تتألم تحته.

القصة الثالثة

ضمت صدرها إليها وراحت تحتفل وحدها بجراح فاخرة، خلف نافذة قدّت من خشب شجرة كان أكثر أعشاشها لأرامل الغربان المهاجرة، أينها المتبرج قد من عمر، يتفرج الصمت على كيائها المتدفق على مهل كماء يندلق من أنية فخار نصف مكسورة بسبب أن صانعها أصيب بخيانة ذلك اليوم، هزائمها مصفوفة خلفها في رف خائف يرتعد من إثم قديم ارتكبه، كل لوازم الاحتفال حاضرة، شمعة روسية، جوليا بطرس الغاضبة، طيف شاعر لا يعجبه شيء

حتى الباص، ارتدت فستاً بنفسجياً من الساتان البراق وراحت ترقص ألماً كزوربا اليوناني. الأشياء من حولها بدأت ترقص خطأ، فرحاً، ولكن الاحتفال أسعدها حقاً وبدأ جسدها يفرز هرمونات النسيان.

القصة الرابعة

بمقهى المنظر الجميل، في موعد مع عنتره أقنعه أن داحس والغبراء منعته المزيد من الحب، وأن ما كتبه عن عبلة أروع من بطولاته، وما تناسل عنها من خرافات. وأنا أداعب التاريخ على طاولتي جلست إليّ عبلة. تنظر تجاهي وأنا مندهش من عدم سماعي لوقع سنابك الخيل ولهذيان الهودج. قالت: كان على نيلسون مانديلا أن يظهر قبل هذا الوقت كي يكتب عني عنتره أكثر. فرحلت وتركت خلخالاً عربياً عربون محبة على طاولة أمازيغي يشرب الشاي المنعنع بالجنوب المغربي.

القصة الخامسة

بين النسيان والتكرار مسافة ندم، اركضي في باحات صدري، شرياني الخليجي ينبض باقترابك مني، ولمفاوياقي المغربية تتبته لجريانك النهري أمام عذاباتي، مقيم بك عاديّ جداً أن أغطس في وحلك وأنت كالماء تتفلتين من ذراعي، كلما حاولت أن أكون شمساً تسطع لك وحدك تكونين رملاً صحراوياً يحرق نفسي ويسد بخبث مسالي العاطفية وأنحي، في قضايا البُعد الكل خاسر ومحامي الدفاع يراقص شاهد الإثبات ويحتفل الكل بخوفي المؤبد من ضياعك مني. «تاسانو» أرحل مع القافلة القادمة صيفاً أم أرقد في قبر بروضتك؟ ألك كهف أنام فيه عدد سنين، أم أستوي سحرًا فرعونياً مؤجلاً في أهرامات نهدك؟ «تاسانو» أمهليني قرناً ونيف،

عَلَيَّ أَوْفِيكَ حَقَّ الْإِنْتِظَارِ. سَأَكُونُ هُنَاكَ فِي الْمَحْتَضِرِ مَكْفُفًا مَغْسِلًا
أَنْتَقِي مِنْ جِيدِكَ أَنْوَاعَ مَوْتِي. وَسَتَكُونِينَ لِي أَنْثَى سَرَابٍ أَنْثَى فِرَاقٍ
أَنْثَى كَهْفٍ بِالْأَطْلَسِ أَنْادِيهَا «تَاسَانُو» وَقَفَّةَ الْأَعْشَابِ الَّتِي تَلْتَقِطِينَهَا
مِنْ أَجْلِ بَقْرَتِكَ الْوَحِيدَةِ، «تَاسَانُو» يَتِيمَةُ كِرْوَايَةِ، وَحِيدَةُ كَبْصَمَةِ،
عَمِيقَةُ كَأَخْذِ حَبِّ، «تَاسَانُو» أَحَبُّكَ.

القصة السادسة

جرح بالجرح، دم ينزف من الدم، ورصيف طويل ملتوٍ تسير
عليه كليوباترا وهي تسمع مطر مطر بصوت حزين كالسياب.
إمي حنا، كيف الهدوء والدواخل تغلي؟ إمي حنا، كيف السير
والسلاسل؟ كيف الأثر والعواصف؟ كيف القافلة تضيع والقصائد؟
بي ما بي من من سوائف اليتيم، إمي حنا اليتيم رفقتنا القديمة،
هل نبراً من العمق فينا؟ أندأوي انكسار غصن بلفه يتويجات
زهرة؟ أنقطع الجذر لنطعم الثمرة؟ إمي حنا، دليني على حاشية لا
تلفظ شاعرًا، إمي حنا دليني على قنطرة لا ترفض يتيماً، دليني على
متشرد لا يحمل كيساً مخدراً، إمي حنا، الوقت ضد الوقت، والرؤيا
ضباية الحلم، وما تبقى من الآتي انتهى. «إمي حنا هان تسي
تباقي» وما عاد في الأحشاء طي لاحتضان المستحيل الذي يسيل
نحو الأمام هروباً، ويسير ضد احتمالاتي فرحي.. جيكور، أساكا،
أفنسو، السكيرات، أنفكو، سطيف الجزائرية بغداد والنواحي، قرى
الليل والحزن المدوي.

تناولنا العشاء على إيقاع نكت عمراوي وضحكات الحاجة، رغم ثقل جثته فهو خفيف الظل، صاحب نكتة، قال بأنه ينسى العمل تمامًا حين يكون في سهرة عائلية كهذه، أي شخصية هذه التي أقنعت ماريا بالزواج، لا بد أن فيه شيئًا مميزًا، قدرته الفائقة ربما على التسيير، رغم أنه حاصل على إجازة فقط، لكنه استفاد من خبرة وثروة والده ليضاعف حصته من إرثه بعدما توفي الحاج عمراوي، إخوته اكتفوا بمناصب إدارية ومرتب كل شهر في حين غامر هو بداية بكل شيء، مشكلته الوحيدة هي في انكباه على الأكل كلما شعر بتوتر في العمل، وهذا سبب سمته المفرطة رغم ضغط ماريا عليه ليهتم بصحته، ولكن لماذا أبحث عن مبرر خارج ذاته هو كشيخ، كرجل، ربما هي معجبة به لا بماله، خصوصًا أنها هادئة جدًا في علاقتها به، ربما أنا المريض الوحيد داخل هذه المجموعة أنا المحمل بعقد تاريخية لا تفك أزرارها، ربما أنا الوحيد الذي يحمل هم الكون في جعبي، حتى تحليلاتي تسير وحزني المؤبد.

بعد العشاء ذهبت وماريا في جولة حول الضيعة، كانت المواشي نائمة في الحظائر، الدجاج في الخم مستسلم لريشه، الديك واقف على رجل واحدة، يتمايل بين الفينة والأخرى ليغير قائمته. جناح الجمال ومشروع حليب النوق المقلب أثار انتباه ماريا. ماريا تمسك بيدي فجأة، يدها حنونة بنفس الملمس، بنفس الأثر القديم، لكنها كهربائية الطبع.

- دعني أمسك يدك.

- تفضلي.

وكان صمت، صمت، صمت، بدت لي حركتها مثيرة للشك، وتبادرت لذهنِي رواية «قصة حب مجوسية» لعبد الرحمن منيف، لا أريد أن أكون مجوسي العقيدة، يدها جمرة، وأنا ماء، أحسست بشيء مفقود في المشهد، أنا وهي وضيفة، ولا شيء يجمعنا، حتى الشك القديم في وجود عاطفة لنبحث لها عن اسم غير موجود، أنا وهي وممر طويل مظلّم، به إنارة خفيفة محسوبة المدى، كل شيء معد للحظات رومانسية تلتصق مرة أخرى بالذاكرة، ولكنني لست مجوسي القلب.

جولتنا معًا لا تثير الحنين، كأن ذاكرتي شفيت من مرض هروب الأرشيف، كنت أمشي وأنا أضغط على يدها، نحن الرجال تعلمنا معاملة الجسد مهما كان صاحب هذا الجسد. أنا وهي.. وطاولة وحب عميق.

الآن أنا وهي وضيفة، وممر وظلمة، وشركات وصفقات، وزوج وأم، وذكريات ونهايات، وحلم وقصص، وتاريخ ونضال، وعالم كبير ولا شيء.

كرهت دومًا حياة التفاصيل، لذلك استهوتني القصص القصيرة جدًّا، كحبنا، كان بحجم الكون في ذرة، كان يحتضن العالم في كرة البلور السحرية التي تستعملها العرافة البرتغالية، كان كمرآة تعكس كل عمق العالم الذي أمامها، كان حبًّا مبركًا يجعلك تشك في كل شيء تعلمته منذ ولدتك أمك، كان يجعلك تشك في الحب نفسه، وفي طبيعته المتحولة.

كالقصص القصيرة جدًّا تختزل الكبير في الصغير، العميق في السطحي، المعقد في البسيط.

- أنير.. لم فجّرتم شاحنات شركة زوجي، كان المشروع ضخّمًا، لقد جعلت التحدي الشخصي بيننا ينسحب على مصلحة المنطقة. فكرت بعنف الشباب فقط. قالت.

- كانت إهانة لشعب المهجرين، ما دامت المنطقة تصلح للمشاريع لم تم ترحيلهم إذن؟ لم تكن نملك شيئًا لنخسره، هزيمتنا في النضالات الأولى نتيجة القمع والضرب والمحاکمات علّمنا أن نراهن على كل شيء نملكه ضد ما لا نملكه، كنا نحتاج أن ننتقم لأنفسنا وكانت فرصة لنعيد بعض كرامتنا المهذّرة، ما كان عليك أن تفكري في مشروع على أنقاض كرامتنا، فهو لا محال سيمر على جثتنا وعلى قبورنا.

- هل تعتقد حقًا أن مشروعًا بهذه الضخامة يعتمد على فكري؟ الأمر يتجاوزني، الفكرة كانت مرافقة لبناء السد، وقد نقول إن السد بُني من أجل الفكرة نفسها، لكن الظروف الأمنية العالمية ساعدتكم، أعطيتكم وهماً بأن خلايا نائمة وراء التفجير، حققتم هدفكم، ولكن الصمت جعلكم تنتصرون للتطرف.

- الإنسان المقهور يواجه التطرف بتطرف أقصى. كنا مستعدين للموت.

- هل أنت مرتاح الآن؟

- جدًّا، لقد أخبرتك أنني تجاوزت مرحلة القلق حتى في شكلها الفكري والوجودي، أنا من حزب الهدوء الآن. وأنت؟

- أنا لا أُنتمي لأي عاطفة، أعيش اللحظة كما هي، أنا مسكوكة من معدن الترتيب الداخلي.

لا أستطيع أن أصدق كل هذا التأقلم المصطنع، امرأة برجوازية بدون أسئلة وبدون اضطرابات عاطفية، أردت أن أختبرها وأفجر نبع البوح عندها أريد أن أراي من جديد، أريد إعصارًا يكسر ناطحات كبريائها المعهود، كنت أعشق تعاليها النفسي، أخذت يدها بين كفي وقبّلتها بخفة، لم تنسكب «لأف» البوح الشفيف كما كنت أظن، لكن هذه بتلك، فهي أمسكت يدي دون إنذار وأنا قبلتها، قبلتها قبلة خفيفة كأنها ريشة بيضاء لحمامة تائهة مرت

على أصابعها، ريشة خفيفة من بطن الحمامة لا من جناحها.
تذكرت عمرائي فجأة، لا يمكن أن أخون رجلاً في زوجته، مهما
كان هذا الرجل، الزواج رباط مقدس عندي، لا يمكنني طعن رجل
مثلي تركني مع زوجته، كنت منذ عصور ما قبل المراهقة أكره أن
أستغل امرأة متزوجة، وحتى غير متزوجة، لا بد أنها أخت رجل
مثلي، خالة رجل مثلي، أم رجل مثلي.
إن خنته سأكون بذلك قد خنت عرق النخوة ككل. أشد ما أكره
الخيانات!

لن أخون رجلاً في بيتي تركته رفقة أُمِّي لأخرج مع زوجته للتنزه
ليلاً في حديقة ضيعتي الخلفية.
كان اختبار ذكريات فقط.

- أنت تحب العواطف القصوى، تحب بلوغ الحد في كل شيء.
تحب بشدة وتكره بشدة، تحب بسرعة وعمق، وتتخلى بسرعة كأنك
سطحي، كنت تخيفني بمشاعرك.
- لا تتضح رؤاي إلا في الأعماق، السطح تعمره الأوراق اليابسة
والتبن والحشرات المائية.

الألم في رأسي يزداد، لا أستطيع مقاومته، بدأت أشعر بدوار
غريب، لكني لا أريد أن أفوت فرصة الفهم، لذلك سألتها:
- هل أحببتني حقاً؟ هل أحببت مساعد الكاتب العمومي؟ هل
أحببت الطفل المهجر المثلث بالألم هل أحببت أنير المناضل؟
أخبريني الحقيقة.

- أحببتك حقاً وبشدة، ولكنك كنت تعيش داخلك، لم تترك لي
فرصة الدخول لحياتك، كنت قلعة موصدة بإحكام، كان الحزن
يغطيكَ حد العتمة، ما الفائدة مني إن كنت لا أصلح لتهوية غرف
قلبك، أنت تعتبرني أميرة وأنا أردت أن أكون فقط سيدة أحاسيسك.
- طنجة غيرتك.

- طنجة منحني مسافة أستطيع من خلالها رؤيتنا، جمعنا الحب
وفرقنا أشياء أخرى، كنت متشبهًا بالمكان، وأنا كنت سندبادية
الطبع، كنت صامتًا حد القلق، وأنا كنت ثرثرة حد الشفقة، كنت
تغلق قلبك بعشرة مفاتيح، وأنا كنت شفافة كزجاج، أحسست بأني
أعاشر جيلًا لا رجلاً. كان عليّ أن أرحل.

- ما كان عليك أن ترحلي.

- لم تمنعني، كان لي كبرياء أنثى تتدلل.

- وكان لي منطق صمت أحتمي به ضد التدلل، احترمت قرارك،

ودست على قلبي.

وألّم رأسي يزداد ولم أعد أطيعه، أخبرت ماريا أنني لست على
ما يرام، أشعر بالدوار وبالصداع ينهش رأسي.. شعرت باليبس في
فمي وفي حلقي، ودمعة حارقة انسابت على خدي، شعرت بالدوار
يأخذني فاستسلمت للحرارة.

ومات الكلام في فمي.

obeikandi.com

ملحق
طائر يستريح

obeikandi.com

كل شيء أبيض

حين يعطيك الألم هدنة فليس لتستكين للراح، بل لتنظر حولك
فتجد كل شيء يبكي من حولك.. الوسادة، السرير، المصباح الطبي،
المناديل الورقية، الأنابيب الشفافة بعض دمك عليها، الحقن
المنسية على الطاولة بسبب إهمال الممرضة.. وأنا.
ما يخيف في غرفة الإنعاش ليس بياض الأسرة أو زرقة الأغشية،
إنه صوت الآلات تيت تيت تيت. والباقي محض إيمان، أي سكينه
تلك التي ترافق المريض المستسلم المتيقن من أنه سيشفى بإذن
الله لا بتعقد الآلات.

أبحث في داخلي، أطوي المسافات بيني وبين نفسي علني أجديني
في بقعة سلام هناك، أكوي جراحاتي كي أعقمها من الألم، أعزله
عن مقامات العصر فيحرقني كنيزك أخطأ مساره الكوني، كسير
كأسير فقد قضيته بعدما فقد حريته. كسنديانة خربة تحوي
أعشاش الغربان السوداء، كشاعر خاتمه قصائده الأربعين، أأثم
صبري كصنهاجي يستمع ليوسف بن تاشفين وهو يسبر أغوار
القلوب والنفوس، هناك في داخلي صحراء من رمل وحنين، قبائل
متناحرة فتواها غزو وضرب وقرع وحرق لكل نخيل الواحات
وإرباك لاستكانة العصفير والأوهام في، جيش مدجج باللا رغبة،
بلذة الهزيمة، بحلم موؤد مخبوء داخل سطل طمي وأنين. أريد
نافذة لا بوزفورية الزوايا، أطل منها إلى خارجي كي أستنشق هواء
الآخرين.. والحنين عقدتنا القديمة كاليتيم يرافقنا عبر دروب السراب

في صحرائنا المغمورة بالصمت، هو الجنوب الندي بالاستعارات
يهشم سكوني واستكانتي، أفاعي الصحراء تبحث دومًا عن طائر
متعب يحط عليها من شدة الحلم، أنا طائر متعب ولا أفاعٍ
تلتهمني، أنا طائر، أنا سائر لا أستريح.

جسد منهك وأعين ذابلة، تثقله الذكريات، يبدو كعربة محملة
بالزمن البطيء، يصارع الرياح بين الفينة والأخرى ويغلب أحيانًا
وينهزم أخرى، إنه هو تاريخ قائم على الذات والآخر الغادر،
مطروح للنباش والتلفيق، كذاكرة مترنحة سكرانة يعبث بها
المؤرخون. حزن هنا وحزن هناك، فرحة متوارية خلف الجدار
خجلًا من الواقع، سلسلة انكسارات وسجاد سقوط.

زفرت زفرة عميقة، أخذت هواء كثيرًا من قنينة الأكسجين،
وقررت أن أنتصر، أن أعود، لن يخونني جسدي، فهو لم يخني
من قبل، كم مرة عاشت الشاش والبيتادين وقنينات الأكسجين،
ولم ينالوا مني، كنت تحت الحراسة المشددة لأنني كنت حسب
تعبيرهم، عنصرًا محرضًا، ولكنني قاومت جروحي، وقمت من
جديد، سأنتصر مرة أخرى.

حين يهددك الموت ترغب بالحياة بشدة، تتمسك بكل خيط
أمل.

تلك الضربة التي أفقدتني الوعي أثناء هجوم العسكر على
المظاهرة لفضّها، بقيت دون أن تلتئم، كان حذاء العسكري مطعمًا
بالحديد، ضربني فوق أذني اليسرى وأرداني بطلاً، يقول الطبيب
ببرودة الأطباء إنه تحوّل إلى ورم خبيث، في مرحلة ثالثة، وسينتشر
بسرعة إذا لم نحاربه بالأشعة، هكذا دون سابق إنذار يتحدث كأن
شيئًا لم يقع.

- أُمي، ضعِي يدك على جبيني، واقري سورة الكهف، لا تبكي
إمي حنا، إن كنت تحبينني لا تبكي، كفكفي دمعك وابتسمي، أحتاج

ضحكتك أكثر حبيبتي.

لا يهمني مرضي، أخاف فقط من دمع أُمي، أُمي التي واجهت
التهجير وواجهت الترمل، كانت أقوى من نخلة، حنونة مع الجميع،
لا أريدها أن تنكسر، لذلك أحاول أن أبتمس في وجهها ولكن هذه
الأنابيب والآلات تحيط بي كشرنقة.

أحس بالألم، كل خلية في جسدي تطالب بحقها في الألم، حتى
حلمة أذني تتألم، كل ذراتي تحترق، مرض لعين، ملعون كالسد، ماؤه
لهيب يحرق، يدمر، هي ذاكرتي تسقط كل الصفحات الشاحبة، ها
هي ذاكرتي تنتصب مرايا.

أريد أشعة كيماوية. أريد سمًا أكبر أقتل به الوحش بداخلي،
أقتل به السم الذي يستولي على أذني، ورأسي، وكل جزء مني، لن
أستسلم لمستعمر يستوطن جسدي، إما أن يغادر أو نموت معًا،
مزيدًا من سم الأفاعي دكتور، أريد احتراقًا كاملاً أنهي به عذابي،
أريد أن أعيش، أريد أن أهزمه، سأهزمه.

القوارير والعقاقير تتفخت بلا استحياء.

والشاش أبيض كلساني متكلس.

لا يتذوق.

كيف الهروب والأنبوب إلى شرياني؟

وذات الرداء الأبيض تغرز شوكة وتسبق.

يا أختي؟

هي ألف إبرة تصطف بي

للجلد ما حنت

هي كالبرق للعظم تندلق.

ريح حرى تلفح خدي سكرانة.

بجفني ترقد

لها الفك ينفلق.
جنبي وجنبي أتلعب المواضع ما اتفقت
والمواقع بين أضلعي
تحكي وتتفق.
الريح والطواحين والأرض والأعاصير.
ودمي دمي ينضب كل ليلة
والألم ينطلق.
هنيهات الزمن من عمر رثتي ينفث الموت.
وزوايا من كبدي تتشقق.
أفرش الدمع، أبكي سيلاً.
وعيني دين الحزن تعتنق.
الورم في خليتي جبان يختبئ
يا جباناً
أمن لحمي ودمي تزدرد وتسترق؟
وأنا ككل فإن تأت عليّ شهقة.
أكون فيها كشعرة في العجين
تختنق
فقل للسكينة ذات الخمار الأبيض
هي الروح تحترق
هي خاتمتي أهدهدها، كفني أغزله
كقميص مكوي
أردد الشهادتين حين أنطق
ما الموت؟
الموت جاري وحقى عليه.
وإن طال البين يزور جلدي ويتصدق
قل للمنية هي تفتك وأنا مستبشر

وجه الرحمن أرغب وأتشوق
إلهي، ربي لك الأمر عجل بالشفاء.
أنت الرحيم
الرفيق أنت المترفق.

تارودانت

المغرب

٢٠١٤/١٠/١

obeikandi.com

الفهرس

استهلال	٧
الفصل الأول «نوستالجيا حب ووطن يتعري»	23
الفصل الثاني «أوراق الورد الحزينة»	117
الفصل الثالث «سقوط الأقنعة»	233
الفصل الرابع «شريان ربح شاردة»	269
ملحق «طائر يستريح»	317

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..

بالفصحى، بالعامية أو حتى بالإنجليزية ..

بتحب نكتب ، أو تعرف حد ييحب يكتب ،كلمنا ..

هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك وتكون كاتب ..

لأن في كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :

محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450

أرضي: 0235688678

www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :

info@kayanpublishing.com

kayanpub@gmail.com

وتابعنا :



[Kayan.publishing](https://www.facebook.com/Kayan.publishing)



[kayan_publishing](https://www.instagram.com/kayan_publishing)



[Kayanpublishing](https://twitter.com/Kayanpublishing)



[kayanpubishing](https://www.pinterest.com/kayanpubishing)



[+KayanPubishing](https://plus.google.com/+KayanPubishing)



[KayanPublishing](https://www.youtube.com/KayanPublishing)